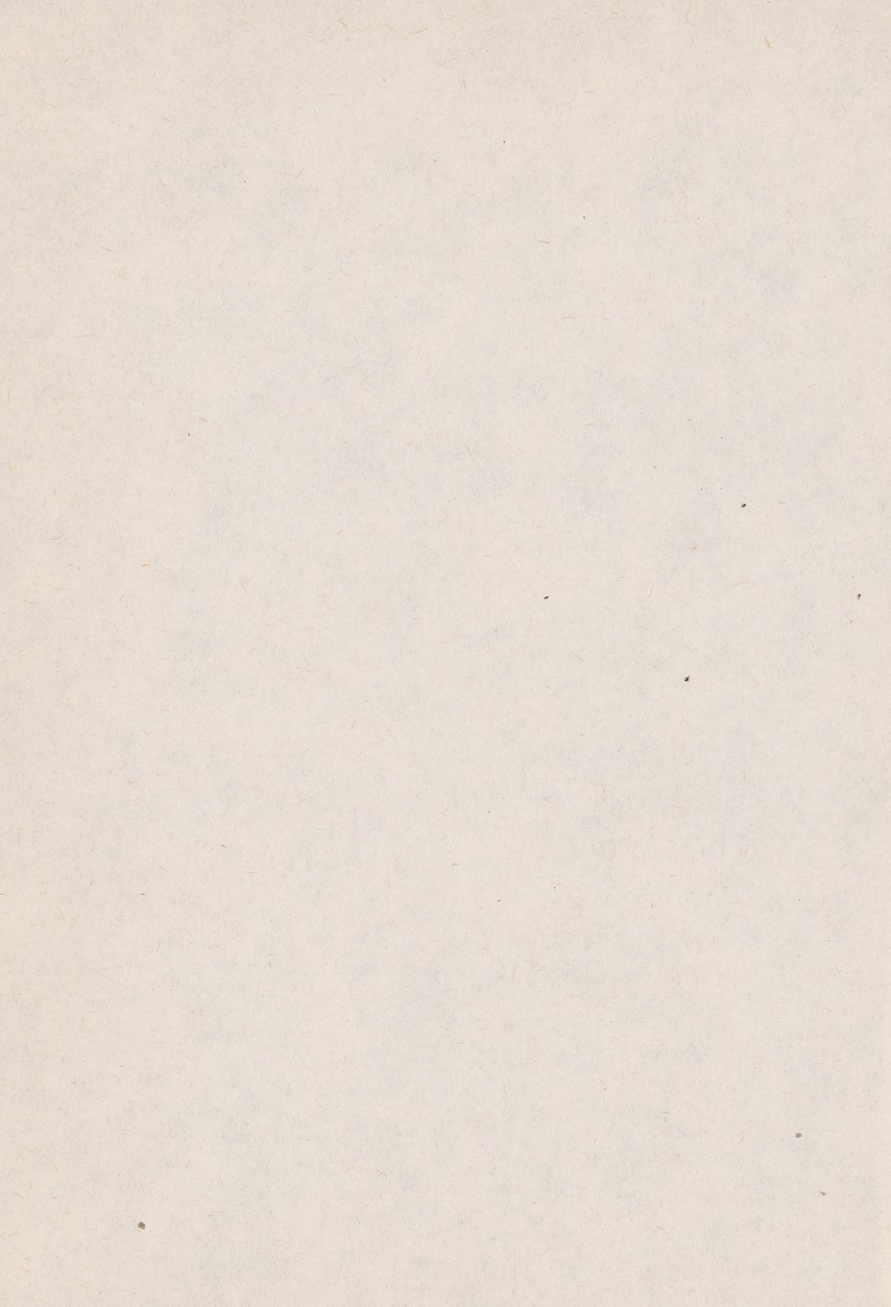


A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT





808.1
D27 A
v.1
ع

الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية

١- في المدينة

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

أستاذ الأدب العربي المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

Cat. Feb. 1950

69026

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تقديم

الطبعة الأولى

(حقوق الطبع محفوظة)

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من يقرأ في الشعر العربي وينظر في نصوصه ونماذجه الكثيرة يجد صورتين متقابلتين منذ العصر الجاهلي : صورة تقليدية تعتمد على رسوم وتقاليد كثيرة ، وصورة غنائية تعتمد على العزف والضرب على الآلات الموسيقية .

وتمخالف الصورتان في كثير من الجوانب ، فالصورة الأولى صورة معقدة ، ولعل خير ما يمثلها مطولات الشعر العربي في المديح والهجاء وما يتصل بهما ، حيث نجد الشعراء يبالغون في صنع نماذجهم مبالغاً أفضت بزهر في الجاهلية إلى أن يصنع المطولة من مطولاته في حـول كامل ، كما يقول الرواة ، ومن أجل ذلك كانت تسمى مطولاته باسم الحوليات .

وقد اتخذت هذه المطولات على مر العصور صورة موروثة ، لاذ نجد الشعراء يبدأون فيها بوصف الأطلال وبكاء الدّمن ، ثم ينتقلون إلى وصف رحلاتهم في الصحراء ، وحينئذ يصفون إبلهم التي

كانوا يجدون فيها جمالا ، حين يريحون وحين يسرحون ، وراهم أثناء ذلك يصفون مشاهد الصحراء وحيوانها . وما يزالون في هذه المقدمات حتى يخرجوا إلى الموضوع الذي ألفوا من أجله مطولاتهم من مديح أو هجاء أو غيرهما . وقد حافظ العرب دائما على هذه الصورة في شعرهم التقليدي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث .

وكان يقابل هذه الصورة من الشعر العربي صورة أخرى لم تكن مطولات ، إنما كانت في أكثرها مقطوعات ، ولم تكن تدور حول المديح والهجاء ، وإنما كانت تدور غالبا حول الحب ووقائعه ، ولم تكن تقال لتشد ، وإنما كانت تقال لتغنى وتصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية . ولعل خير اسم يمكن أن نطلقه على هذه الصورة هو اسم الشعر الغنائي .

وقد يحدث هذا الاصطلاح اضطرابا ، فإن بعض نقادنا المحدثين نقلوا إلينا تقسيم الغربيين لشعرهم إلى قصصي وغنائي وتمثيلي ، ووضعوا الشعر العربي كله في حيز الشعر الغنائي . ونحن لا ننكر هذا الصنيع من حيث هو ، فالشعر العربي تسكون في ظروف غنائية ، وهو يصور شخصية صاحبه تمثيلا قويا ، ولهذا لا بأس من أن ندخله في دوائر الشعر الغنائي الغربي .

غير أن من يعنى بدرس الشعر العربي يلاحظ أنه أخذت تستقل منه صورة منذ العصر الجاهلي وتتطور تطورا منفصلا بعيدا عن الغناء إلا قليلا . لم تكن هذه الصورة تعتمد على الغناء ، وأيضا فإنها لم تكن

تصور شخصيات أصحابها تصويرا دقيقا ، ولذلك كان يحسن أن نميزها باسم خاص ، ولا بأس من أن نصطلح على تسميتها باسم الشعر التقليدي ، بينما نبقى اصطلاح الشعر الغنائى دالا على الشعر الذى كان يُغنىّ فعلا من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث .

وهاتان الصورتان للشعر العربى استمرتتا تتقابلان فى عصوره المختلفة ، وكانت الصورة الغنائية أكثر من أختها التقليدية قابلية للتطور والتحول ، بحكم اتصالها بالغناء والموسيقى ولغة الناس الشعبية ، مما أحدث أخيرا فى أقصى الغرب الموشحات والأزجال على ما هو معروف . وقبل هذه الأزجال والموشحات كانت تحدث تطورات واسعة فى هذه الصورة الغنائية للشعر العربى ، لا منذ العصر العباسى بل منذ العصر الأموى ، إذ نهض الحجاز بالغناء نهضة كبيرة أثرت تأثيرا عنيقا فى الشعر الغنائى هناك . وهو تأثير امتد إلى كل شىء فيه ، امتد إلى لغته ، إذ نرى الشعراء يتخذونها غالبا من لغة الناس المألوفة لأنهم يريدون أن يكونوا قريبين منهم ، وامتد إلى موسيقاه ، إذ نرى الشعراء يكثرّون فيها من الزخافات والعلل ، حتى يلائموا بين شعرهم وتقصيرات المغنين والمغنيات وتمديداتهم . وأيضا فإنهم أخذوا يجزّئون ويعدّلون فى صورة أوزانهم ، حتى تحمل كل ما يريد المغنون من أصوات وغناء .

وعلى هذا النحو أخذت الصورة الغنائية للشعر العربى تختلف من الصورة التقليدية التى كان أصحابها يعنون بالجزالة فى لغتها والإغراب

أحيانا ، وأيضا فإنهم كانوا يختارون لها الأوزان الطويلة المعقدة ولم يخرجوا إلى الأوزان الخفيفة السهلة إلا في القليل النادر .

وقد أخذت تتسع مع مر الزمن الفروق بين الصورتين الغنائية والتقليدية ، سواء في اللغة أو في الموسيقى ، بحيث لا نفصل إلى العصر العباسي حتى نجد تحريف الشعراء الغنائيين لموسيقى الشعر القديمة ينتهي بهم إلى أن يستحدثوا أوزانا جديدة من مثل المقتضب و المضارع و المتدارك . ولم يحرف العباسون فقط في الشعر الغنائي وأوزانه ، بل حرفوا ، إلى حد ما ، في لغته إذ كانوا — مثل الحجازيين — يميلون إلى استخدام اللغة المألوفة .

وقد تكاملت هذه التغيرات والتطورات في الصورة الغنائية للشعر العربي أخيرا في أقصى الغرب ، في الأندلس ، سواء من حيث اللغة ، أو من حيث الموسيقى ، مما انتهى بها إلى الموشحات والأزجال هناك على ما هو شائع مشهور .

ولعل لا أغلو إذا قلت إننا في حاجة إلى من يدرس الصورة الغنائية للشعر العربي من العصر الأموي إلى العصر الأندلسي ، فإن الباحثين لم يلبوا بها إلا قليلا .

وقد فكرت طويلا في المنهج الذي أدرس به هذه الصورة ، وخاصة أنها مرت بأحقاب متطاولة ، ورسمت خطوطها وألوانها أقاليم مختلفة . ولم ألبث أن رأيت من الواجب أن أخضع للتسلسل الزمني ، فأدرس أولا إقليم الحجاز الذي عني أثناء العصر الأموي بهذه الصورة

الغنائية عناية واسعة . ونظرت ، فإذا بلدتان هناك تتنافسان تنافسا شديدا في إحداث هذه الصورة والتطور بها تحت تأثير الغناء . وقد أخذت أتتبع أولا فن الغناء الذي كان له فضل التطور بالصورة الغنائية للشعر حينئذ ، فإذا المدينة هي التي برزت فيه ، وإذا هي التي وضعت نظرية الغناء العربي التي نقرأ مصطلحاتها في كتاب الأغاني ، حينئذ رأيت أن أؤخر مكة حتى أتعرف على المدينة وعلى ما كان بها من نشاط في الغناء والشعر الغنائي .

وإني لأعترف بأن نصوصا كثيرة صادفتني وفسرت لي كل ما كنت أنشده في هذه الدراسة . والله أسأل أن يرزقني السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

توفي ضيف

القاهرة في أول مارس سنة ١٩٤٩

الفصل الأول

المدينة

١

موقع المدينة

١ تقع المدينة في إقليم الحجاز الذي يمتد بين أَيْسَلَة (العقبة) واليمن ، ويفصل بين مباسط تهامة ومشارف نجد **ج** ويتميز الحجاز بكثرة ما يتخلله من جبال ومرتفعات ، ووديان ومنخفضات **و** وإن من يرجع إلى مُخَطَّط المدينة يجد في شمالها جبل أَحَدُوجيل ثَوْر ، وفي جنوبها جبل عَـيْر ، بينما يحفها من الشرق والغرب مرتفعان **م** يتألفان من سحابة سود نخرة ، وهما حرّتا واقِم والوَبْرَة .

و داخل هذا السياج من الجبال والحرّات تقوم المدينة اليوم ، فهي في منخفض **ج** ، تكتنفه مرتفعات ، يعلو بعضها بعضاً . وفي هذا المنخفض تكثر الوديان ، وتكثر الآبار والعيون ، لوفرة ما يهطل فيه من أمطار أثناء الشتاء والربيع . وأهم الوديان هناك بُطْحان ورانوء ومهزور ومُذَيْنبل في الجنوب بين المدينة وعَـيْر ، وقناة في الشمال بين المدينة وأحد ، والعقيق في الغرب وراء حرّة الوبرة **و** تكتظ هذه الوديان

باليون والآبار ، وأشهرها عين الأزرق وبئر أريس في وادي رانواناء
وبئر عرونة وبئر رؤمة في وادي العقيق (١).

وتنبت حول هذه العيون والآبار ، جنات النخيل والأشجار ، فتملاً
البصر بهجة ورواء ، بهذه المشاهد الأنيقة وسط بحار الرمل ، التي توج بها
صحراء العرب . ومن ثم كانت المدينة تبدو داخل الجزيرة العربية ، كأنها
واحة بديعة ، أو قل إنها ابتسامة الطبيعة ، تبدو على محيّا عابس ، هو
حيا الصحراء الهامدة .

وقد جعلت هذه المياه والخضرة ، أو قل هذه العيون والجنات
جوّ المدينة محتملاً ، فهي على الرغم من وقوعها على خط العرض ٢٥ ،
وهو نفس الخط الذي يمر بمدينة الأقصر ، طيبة مصر الفرعونية ،
تمتاز بجو ملطّف ، وهو جو يزخر بظلال النخيل والأشجار . وربما
كان من أهم أسباب اعتدال جوها في الجملة أنها تعلو سطح البحر بنحو
ستمائة متر . وهذا كله يجعل جوها مقبولا ، وخاصة في فصلي الشتاء
والربيع ، إذ تسقط الأمطار ، أما في فصل الصيف فإن الحرارة تشتد
اشتداداً قد يعرّض المدينة لنموّ بعض الحميات ، وقد مرض بها جماعة
من المهاجرين أول هجرتهم إليها ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق (٢).

(١) انظر في وديان المدينة وآبارها وعيونها كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ،
سلامهودي ، طبع مطبعة المؤبد ١١٩/٢ وما بعدها ، وكذلك ١٨٦/٢ وما بعدها ، وانظر
فتوح البلدان للبلاذري طبع ليدن ص ١٤ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام طبع الحلبي ٢٣٨/٢ .

وأجمل بقاع المدينة وادى العقيق ، وقد كان متنزه أهل المدينة في العصور الإسلامية ، وخاصة حين تنزل السيول والأمطار ، وتتجمع فيه على شكل بركة كبيرة (١) . وقد اشتهر العقيق بجماواته الثلاث : جماء تضارع ، وجماء أم خالد ، وجماء عاقل . والجماء مرتفع صخري بارز ، تسيل منه مياه الأمطار في منظر بهيج . وفي شمالي العقيق نجد العرصة الكبرى والعرصة الصغرى ، وهما من أفضل بقاعه ، وأكرم أصقاعه (٢) .

وكلمة المدينة في العربية معناها البلدة ، وقد اختصت يثرب بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، ولذلك تضاف إليه ، فيقال مدينة الرسول . ويميز اللغويون في النسبة بينها وبين المدن الأخرى فيقال في النسبة إليها «مدنى» وإلى غيرها «مدني» . وقد سميت أسماء مختلفة حتى قيل إن لها عشرة ، أسماء (٣) ، وأوصل السهمودي أسماءها إلى نحو تسعين إسما (٤) . وربما جاءت كثرة هذه الأسماء من أنها كانت مقسمة في العصر الجاهلي بين عشائر من اليهود والأوس والخزرج ، فكانت بعض هذه العشائر تختار لموضعها إسما ، ثم جاء علماء المسلمين في العصور المتأخرة ، فجمعوا بين كل هذه الأسماء ، وأضافوا إليها كل الأوصاف التي وصفها بها

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣٢/٢ . وفي الأجزاء التسعة الأولى تراجع دائما طبعة دار الكتب ، وفي الأجزاء الأخرى تراجع طبعة بولاق .

(٢) انظر كلة عرصة في معجم البلدان لياقوت .

(٣) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه طبع ليدن ص ٢٣ .

(٤) وفاء الوفا للسميعة دي ٧/١ وما بعدها .

النبي صلى الله عليه وسلم . واسمها الذي عرفت به في العصر الجاهلي
يثرب وقد جاء ذكره في القرآن الكريم^(١) وفي السيرة النبوية في شعر
حسان بن ثابت^(٢) وكعب بن مالك^(٣) .

والمدينة — كما رأينا — بلد زروع ونخيل ، ومن هنا كان سكانها
من أهل المدَنَ لا من أهل الوَبَر ، فهم لا يعتمدون في حياتهم مثل البدو
على رعى الأغنام ، وإنما يعتمدون على زرع الأرض ، وهم لا يتخذون
بيوتهم من الأصواف والأوبار ، وإنما يتخذونها من الآطام والحصون ،
التي أقاموها على المرتفعات ، لتحميهم هجمات البدو وغزواتهم . ولم تكن
المدينة في الجاهلية تحاط بسور ، وقصة حفر الخندق حولها ، حين
تجمعت قريش والعرب لقتال النبي ، معروفة .

٢

المدينة في العصر الجاهلي

تاريخ المدينة في العصر الجاهلي يحوطه كثير من الغموض ، وهو
في أكثره يعتمد على الأسطورة ، وخاصة ما تعمق منه في القدم ،
وحتى اليهود حيائهم في المدينة لا نكاد نعرف عنها شيئاً واضحاً ، إلا
ظنوناً . وتزعم المصادر العربية أن أول من سكن المدينة العباقة ،

(١) انظر سورة الأحزاب آية ١٣ .

(٢) ابن هشام ٢٨١/٣ .

(٣) ابن هشام ١٥١/٣ .

وكانوا أهل عزٍّ وبغىٍ شديد ، وهم أول من اتخذ فيها النخيل والزروع ^(١) وما زالوا بها حتى وفد عليهم اليهود في القرن الأول الميلاد ، أو بعده بقليل ، على أراضطهاد الرومان لدولتهم في فلسطين ^(٢) ، فزحوا حينئذ ، وكان على رأسهم بنو قُرَيْظَةَ وبنو النَّضِير وبنو بَهْدَل . ويعين صاحب الأغاني الأماكن التي نزلوا فيها ، فيقول إن بني قريظة وبني بهدل نزلوا على وادي مهزور ، بينما نزل بنو النضير على وادي بُطْحَان ^(٣) ، أو بعبارة أدق على وادي مذيذب المتفرع من وادي بطحان . وقد ساق أبو الفرج ثبوتا طريفاً بأسماء القبائل اليهودية في المدينة ، وذكر منها بجانب القبائل السابقة بني قَيْسُقَاع ^(٤) ، وكانوا ينزلون في الشمال الغربي من المدينة ، بجوار سوق يسمى باسمهم ^(٥) .

والمعروف أن هذه القبائل كانت يهودية خالصة ، وإن كنا نجد بين مؤرخي العرب من ينكر يهوديتها ، فاليعقوبي يزعم أن بني النضير نحد من جذام ، وكذلك يزعم في بني قُرَيْظَةَ ^(٦) . ويظهر أن هذا زعم باطل ، فالقرآن الكريم يؤكد أنهم يهود ، ويخاطبهم في مواطن

(١) أغاني طبع بولاق ٩٦/١٩ والسهمودي ١١٠/١ .

(٢) انظر هنا تاريخ اليهود في بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون ص ٩ ، وكذلك : Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam (London 1924) pp. 50 — 51

(٣) أغاني ٩٥/١٩ .

(٤) نفس المصدر ٩٥/١٩ ، وانظر طبعة دار الكتب ١١٦/٣ .

(٥) انظر الأغاني ١٩/٣ .

(٦) تاريخ اليعقوبي طبع ليدن ٤٩/٢ .

متفرقة ببنى إسرائيل . هم يهود إذن لـكـهـم يهود تعربوا ، فقد توزعوا
 — على عادة العرب — قبائل ، وتسموا بأسماء العرب ، وشاركوا في الحياة
 العربية بجميع تقاليدها . ومن الغريب أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ،
 فكأنهم نزعوا تماماً عن حياتهم المتحضرة القديمة في فلسطين ، وتشبهوا
 بالعرب حتى في إهمالهم للكتابة وعدم العناية بها . ومن مظاهر تعربهم
 الواضحة اتخاذهم العربية لساناً لهم ، وقد نظموا بها شعراً ، عبروا به عن
 عواطفهم ، فكان من شعرائهم في الجاهلية الربيع بن أبي الحقيق ، وهو من
 بنى قريظة ، وقد عقد له أبو الفرج فصلاً في أغانيه ، وروى عن النابغة
 أنه قال له أنت أشعر الناس (١) . وأكبر الظن أنه كان بالمدينة شعراء
 آخرون من اليهود ، ولكن علماء المسلمين المتأخرين لم يعنوا بهم (٢) ،
 وربما كان ذلك يرجع إلى أسباب دينية . وقد كان من شعرائهم في عهد
 النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن الأشرف (٣) وأوس بن دنى (٤)
 كان اليهود على دين آبائهم ، ويظهر أنهم كانوا يحتفظون بالعربية
 في طقوسهم ومراسيمهم الدينية ، ولعل مما يؤكد ذلك ما يرويه البلاذرى
 من أن النبي أمر زيد بن ثابت بتعلم العبرية منهم (٥) ، وهناك رواية
 يذهب إلى أنه أمره بتعلم السريانية عليهم . وقد يكون في الروايتين ما يدل
 على أنهم كانوا يحسنون اللغتين جميعاً ، أو قل كانوا يعرفونهما جميعاً ،

(١) أغاني ٩١/٢١ .

(٢) انظر في شعراء اليهود كتاب مارجوليوث السابق ص ٧٤ .

(٣) أغاني ١٠٦/١٩ .

(٤) نفس المصدر ٩٧/١٩ . (٥) البلاذرى ص ٤٧٤ .

وكانوا يعيشون على الزرع والحراث^(١) واحترفت طائفة منهم صناعة الأسلحة^(٢)، كما احترف بعض نسائهم نسيج الأقمشة^(٣). وتتحد المصادر العربية في القول بأن اليهود ظلوا مسيطرين على المدينة، حتى نزحت إليهم من اليمن بعد سبيل العَرِمِ قبائل الأوس والخزرج، وكان ذلك في القرن الخامس للميلاد^(٤). وعاشت هذه القبائل بجانب اليهود، وكانوا أول حياتهم معهم في ضنك وضيق، إذ لم يكونوا أصحاب إبل وشاء، لأن المدينة ليست بلاد أنعام، ولم يكونوا أصحاب نخيل وزروع، لأنها كانت في أيدي اليهود^(٥). وهناك بيت يرويه ابن خردادبة، وهو يدل على أنهم كانوا يؤدون لليهود نوعا من الضرائب، إذ جاء على لسان بعض شعرائهم:

نُودِيَ الخَرْجُ بعد خراج كسرى وخُرج بني قُرَيْظَةَ والنضير^(٦)
ويدل البيت - إن صح - على أنهم كانوا يؤدون للفرس نوعا آخر من الضرائب. وتستمر المصادر العربية، فتزعم أن الأوس والخزرج استمروا في هذا الضيق، حتى استعانوا على اليهود بأبي جبيلة ملك الغساسنة^(٧). وفي رواية ثانية أنهم استعانوا بأبي كرب تبع بن حسان

(١) السهوى ١١٣/١ وما بعدها . (٢) المغازي للواقدي ص ٢٧٢ .

(٣) البلاذري ص ٦٠ .

(٤) Nicholson, A Lit. Hist. of Arabs, p. 16.

(٥) أغاني ٩٦/١٩ .

(٦) المسالك والممالك لابن خردادبة طبع ليدن ص ١٢٨ .

(٧) أغاني ٩٦/١٩ .

ملك النين (١) . ونجد في الأغاني شعراً يؤكد الرواية الأولى (٢) وشعراً آخر يؤكد الرواية الثانية (٣) . على كل حال استعان الأوس والخزرج على اليهود بجيش يمني ، إما من يمن الجنوب ، وإما من يمن الشمال ، من الغساسنة . وغزا هذا الجيش يهود يثرب ، وأزال منهم للأوس والخزرج ، فأصبحوا هم السادة ، وأصبحوا أصحاب الشأن الأول في المدينة .

وقد عين السهمودي الأماكن التي نزلت فيها الأوس والخزرج ، أما الخزرج وخاصة بني النجار فكانوا ينزلون داخل المدينة ، وقد انتشرت جماعات منهم في الشرق والشمال الشرقي منها ، أما الأوس فكانوا ينزلون في الجنوب والجنوب الشرقي من المدينة (٤) ، فكانوا أكثر قرباً واختلاطاً ببني قريظة والنضير ، بينما كان الخزرج أكثر قرباً واختلاطاً ببني قَيْنِئَقَاع الذين كانوا ينزلون في المدينة نفسها .

وكان الخزرج والأوس جميعاً وثنيين ، وكانوا يعبدون اللات ومناة ، ولسنا نعرف شيئاً واضحاً بعد ذلك عن عبادتهم ، وإن كنا نجد بعض شعرائهم يذكرون الله في شعرهم (٥) . ويبدو أن النصرانية كانت معروفة في يثرب ، ففي السيرة أن شخصاً يسمى عبد عمرو بن صَيْئَفٍ خرج على النبي صلى الله عليه وسلم وحارب في صفوف قريش ، وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس المسوح (٦) .

(١) أغاني ١١٩/١٣ وما بعدها . (٢) أغاني ٩٦/١٩ .

(٣) أغاني ١٢١/١٣ . (٤) السهمودي ١٣٤/١ وما بعدها .

(٥) كما في شعر أبي قيس بن الأسلت انظر أغاني طبع دار الكتب ١٤/٣ وشعر

قيس ابن الخطيم ، انظر نفس المصدر ٢٣/٣ . (٦) ابن هشام ٢٣٤/٢ .

ويظهر أن عدوى الحرب بين القبائل العربية المتبدية انتقلت إلى المدينة أواخر العصر الجاهلي ، وليكن لا بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية ، وإنما بين الأوس والخزرج أنفسهما ، وأكبر الظن أن اليهود لما شعروا ألا قبل لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين ، أشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما ، وقد كانوا يمدونهما بالأسلحة التي يستخدمانها في حروبهما إذ كانت تحترق منهم طائفة صنع الأسلحة كما مر آنفاً .

وهكذا دارت رحى الحرب في المدينة أواخر العصر الجاهلي بين الأوس والخزرج ، وأخذت هذه الرحى تعركهم بشِفْها لها عَرَكا عنيفاً ، بحيث يظن الإنسان أنه لم يعد من الممكن أن يعم السلم في المدينة ، فدأماً حرب ، ودأماً رماح مشروعة ، وسيوف مسلولة ، ودماء مسفوحة .

وعلى هذا النحو كان الأوس والخزرج أواخر العصر الجاهلي ، لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة ، حتى يغمسوها في دماء حرب جديدة ، وكانما تعاهدوا على الفناء ، وأن تلتهمهم نيران الحروب التهاماً .

٣

المدينة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

رأينا أهل المدينة من الأوس والخزرج في العصر الجاهلي غارقين في الدماء ، كما رأيناهم غارقين في ظلمات الوثنية ، غير أنهم لم يلبثوا أن

غسلوا أنفسهم من كل ذلك بأضواء الدين الجديد ، دين الإسلام الذي استلّه أحقادهم وسخائمهم ، وجعلهم بنعمة الله إخوانا .

وقد حمل إليهم مشاعل هذا الدين الجديد أول الأمر نفرٌ منهم لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا (١) . وفي العام القابل أتاه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه ببيعة العقبة الأولى (٢) . وبعث النبي مع هذا الوفد مُصْعَب بن عَمَيْير يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين (٣) . وسرعان ما أخذت أضواء الإسلام تنتشر من دار إلى دار ، بين الأوس والخزرج ، حتى إذا استدار العام وفدّ على النبي سبعون رجلا وامرأتان ، فسأله الخروج إليهم وبايعوه ببيعة العقبة الكبرى (٤) . وقد جعل منهم النبي اثني عشر نقيبا كُفلاء عليهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (٥) .

وكانت هذه البيعة صريحة في أن النبي سيمترك دار الأرقم محل دعوته في مكة ، ويتخذ من المدينة كلها دارا لدعوته بين ظهرائي الانصار فقد وجدهم أكثر قبولا لرسالته .

وأخذت يثرب تستعد لاستقبال النبي وأصحابه من المسلمين ، وقد رأى أن يهاجر أصحابه أولا ، فأمرهم بالهجرة ، فهاجروا أرسالا ، ولم تمض بضعة أشهر حتى كانوا قد هاجروا إليها جميعا ، إلا من استبقاهم

(٢) ابن هشام ٧٥/٢ .

(١) ابن هشام ٧٠/٢ .

(٣) ابن هشام ٧٦/٢ .

(٤) ابن هشام ٨٤/٢ وكذلك ٩٧/٢ وانظر اليعقوبي ٣٨/٢ .

(٥) ابن هشام ٨٥/٢ .

النبي معه . وأخيراً خرج من داره مهاجراً ، ومعه أبو بكر الصديق ، ودليهما عبدالله بن أريقط . ودقت البشائر في المدينة بهجرته ، فكانوا يتسَمَّعون أخبار رحلته ، ويخرجون لاستقباله ، حتى وافتهم طلعتة السنية ، وأقبل رجال الأوس والخزرج يتزاحمون حول راحلته بالمناكب ، فكلُّ يود لو ينزل في داره ، واختار النبي دار أبي أيوب الأنصاري أقام عنده ، حتى بنى له داراً ، وبنى بجوار الدار مسجداً ^(١) .

وكان أول عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب أن آخى بين المسلمين ^(٢) فكلُّ يتخذ له أخاً في الله ، وبذلك آخى بين المهاجرين والأنصار من جهة ، كما آخى بين الأوس والخزرج من جهة أخرى ، وكأنه أراد أن يزيل كل ما كان بين الفئتين من إحسان في الجاهلية ، حتى تتم وحدة المسلمين ، وتماسك عُرَاهم فلا يتخاذلوا بعدها أبداً . ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقد أراد ليثرب أن يعمها السلام ، فسعى إلى تأليف اليهود ، وعقد بينه وبينهم معاهدة جاء فيها « أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » فلا ينبغي بعضهم على بعض ، كما جاء فيها أن بين الفئتين من اليهود والمسلمين « النصر على من دهم يثرب » ^(٣) . وكان ذلك كفيلاً أن يعيش النبي والمسلمون من حوله في يثرب آمنين مطمئنين . ولكن اليهود أخذوا يشنون حرباً شعواء من الأسئلة والجدل في أمر النبي وصحة رسالته ، فكان يستقبلهم باللين ، ولا يكتنهم

(٢) ابن هشام ١٥٠/٢ .

(١) ابن هشام ١٤١/٢ .

(٣) ابن هشام ١٤٧/٢ .

كانوا يوغلون في حربهم^(١) ولم يقف هذه الحرب أن أسلمت جماعة منهم^(٢)، فإن الكثرة وقفت معارضة، بل وقفت معادية تحاد الله ورسوله.

ولما انتصر النبي صلى الله عليه وسلم على قريش في بدر أثناء السنة الثانية للهجرة أخذ بنو قينقاع يتحرشون بالمسلمين فجمعهم النبي بالسوق التي تنسب لهم، ودعاهم إلى الإسلام، فبادروا إليه قائلين: «لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبحت منهم فرصة» وأعلنوا حربهم للنبي، فحاصروهم وما زال هذا الحصار، حتى رضوا أن يحلوا عن المدينة، فخرجوا إلى أذرعات بالشام^(٣).

ولما كانت موقعة أحد حاول النبي أن يستعين ببني النضير في دية بعض القتلى، فهموا أن يقتلوه^(٤)، حينئذ أعلن الحرب عليهم وحاصروهم، فلما رأوا ألا قوة لهم على حربهم، طلبوا الصلح، فصالحهم على أن يخرجوا من المدينة ولهم ما حملت الإبل من خُرثي متاعهم، لا يخرجون معهم بذهب ولا فضة ولا سلاح، فتحمّلوا^(٥) سنة أربع من الهجرة^(٦)، وعلى رأسهم حُيَّي بن أخطب، ونزلوا في خَيْبَرَ وأذرعات ولما كانت موقعة الخندق المعروفة اتصل بعض اليهود من بني النضير ببني قريظة، فدوا أيديهم إلى أعداء النبي وكادت أن تقع الكارثة

(١) ابن هشام ١٦٠/٢ وما بعدها.

(٢) ابن هشام ١٦٣/٢ وكذلك ١٧٤/٢.

(٣) ابن هشام ٥٠/٣ وما بعدها. (٤) ابن هشام ١٩٩/٣.

(٥) البغوي ٥٠/٢. (٦) ابن هشام ١٩٩/٣.

بدخول هذه الجيوش المحاصرة ليثرب من ديارهم ، فلما أنقذ الله يثرب توجه النبي إليهم مع المهاجرين والأنصار ، فأذنهم بحرب جزاء وفاقا لنسكشهم أيمانهم . واشتبك الطرفان ، وأسرع بنو قريظة إلى حصونهم ، فحاصرهم رسول الله ، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وارتضوا ما يحكم به ، فحكم أن يقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبي الذراري والنساء (١) .

وينبغي أن نعرف أن ما حاق ببني قريظة لم يكن يراد به إكراههم على الإسلام (٢) ، فالنظرية العامة في الإسلام ألا إكراه في الدين ، وإنما كان يراد به عقابهم على وقوفهم في صفوف الجيش المغير ونقضهم للعهود مع النبي وأصحابه .

ولما استدار العام ذهب النبي إلى مكة فهادن أهلها (٣) . ثم عاد إلى المدينة يستجمل متابعي اليهود في خيبر وغيرها من حصونهم شمالي المدينة . وفي هذه السنة السادسة بعث برسله إلى عطاء الملوك في عصره يدعوهم إلى الإسلام (٤) . ولا ريب في أنه كان مدفوعا في ذلك برسائله وأنها عامة ، إذ أرسل إلى الناس كافة ، أما من ينكرون ذلك (٥) فليس في أيديهم دليل على ما يزعمون ، وإن نصوص القرآن الكريم لتشهد

(١) ابن هشام ٢٥١/٣

(٢) انظر هنا : Muir, Life of Mohammad (Edinburgh, 1912) p. 322.

(٣) ابن هشام ٣٢١/٣ واليعقوبي ٥٤/٢

(٤) ابن هشام ٢٥٤/٤ واليعقوبي ٨٣/٢ .

(٥) انظر هنا : Muir, The Caliphate (London 1891) pp. 43 — 44

بما نقول من مثل قوله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقوله عز وجل : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وفي العام القابل ، وهو العام السابع للهجرة ، تابع النبي اليهود في خيبر فخاربهم وحاصرهم ، وسلبوا له على أن يعطوه نصف ثمار بلادهم^(١) ، وكذلك صنع يهود فدك^(٢) ، ويهود تيماء ، ووادي القُرَى^(٣) . وأتم الله نعمته على نبيه ففتح مكة في العام الثامن للهجرة^(٤) ، ثم تركها إلى وقعة حُنين والطائف . وكان لهذه الانتصارات أثر عظيم في استعلاء الاسلام نهائياً على الوثنية ، فإن العرب لما سمعوا بها أخذوا يدخلون في دين الله أفواجا^(٥) . ولم يأت العام التاسع للهجرة ، حتى كانت المدينة تسكتظ بوفود القبائل التي جاءت تعلن الإسلام^(٦) . وتمت المعجزة الكبرى فقد انضوت القبائل العربية كلها ، أو كادت ، لأول مرة في تاريخها تحت لواء واحد هو لواء الاسلام . وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتم رسالته ، وأن ينفخ بها في آذان الأمم الأجنبية ، فأرسل جيشاً لغزو الروم ، وكانت وقعة مؤتة^(٧) .

(١) ابن هشام ٣/٣٥٢ وانظر البلاذري ص ٢٣ .

(٢) ابن هشام ٣/٣٦٨ وانظر البلاذري ص ٢٩ .

(٣) البلاذري ص ٣٣ وما بعدها . (٤) ابن هشام ٤/٣١ .

(٥) انظر : ٢ . — Muir, Life of Mohammad, pp. 431 .

(٦) ابن هشام ٤/٢٠٥ وما بعدها (٧) المصدر السابق ٤/١٥ .

ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، دون أن يترك وصية ، بمن يلي شئون المسلمين ، ولم يكن العرب يعرفون النظام الملكي وما يقوم عليه من وراثة ، كذلك لم يكونوا يعرفون ما اعتنقته الشيعة فيما بعد من أن أسرة الرسول لها حق مقدس ، ومن هنا كان اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وقد أرادوا أن يكون لهم الأمر بعد الرسول أو يكونوا شركاء فيه ، وذهب إليهم المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر ، وعمر ، وأقنعوهم بأن العرب لا تخضع إلا للشخص من قریش ، وبويع أبو بكر بالخلافة ^(١) للرسول الله والقيام على ما شرع من الدين ، وكان لعمر الفضل الأول في مبايعته .

واضطلع أبو بكر بالخلافة ، وكان رجلاً مالفاً لقومه محبباً سهلاً ، ^(٢) وطالما كان الرسول يشيد بذكره ، وقد أنفق بعد إسلامه أكثر ماله في شراء الموالى الذين كانت تعذبهم قریش ^(٣) . ولما ولي الخلافة صعد المنبر ، فجلس دون مجلس رسول الله بمرقاة ، ثم حمد الله ، وأثنى عليه وقال : « إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن استقمتم فاتبعوني ، وإن زغت فقوّموني . . . وأثنى على الأنصار خيراً » ^(٤) .

وبدأ فأمر أسامة بن زيد أن ينفذ في جيشه الذي أعده النبي صلى الله عليه وسلم للإغارة به على الشام وشيخه قائلاً : « لا أمرك بشيء إلا بما أمرك به النبي وأماض حيث ولاك » ، ومكث أسامة في هذه الغزوة ستين يوماً ^(٥) .

(١) انظر الطبري في سنة ١١ هـ . واليعقوبي ١٣٧/٢

(٢) ابن هشام ٢٦٧/١ (٣) ابن هشام ٣٣٩/١ وما بعدها

(٤) اليعقوبي ١٤١/٢ (٥) اليعقوبي ١٤٢/٢

وتنبأت جماعة في مطلع خلافة أبي بكر وعلى رأسها مسيلمة
الكذاب ^(١)، وارتد كثير من العرب عن الإسلام، وامتنع كثيرون
عن دفع الزكاة ^(٢). وهنا نرى أبا بكر يقوم بعمل جليل فقد عبأ
الجيوش لإنقاذ الإسلام، وأرسلها في طلب مسيلمة وغيره ممن ارتدوا
أو منعوا الزكاة. وما زالت هذه الجيوش تعمل، حتى أذغت بلاد العرب
للإسلام ثانية ^(٣). ولما استحر القتل في هذه الحروب بالصحابة وبمن
معه من القراء أشار عمر على أبي بكر أن يجمع القرآن في مصحف
خشية ضياعه، وكان مفرقا في اللخاف وغيرها، فأجلس أبو بكر
خمسة وعشرين رجلا من قریش وخمسين رجلا من الأنصار، وقال:
«اكتبوا القرآن واعرضوا على سعيد بن العاص، فإنه رجل فصيح» ^(٤)،
ولم يكتف أبو بكر بجمع العرب على كلمة الإسلام فقد أراد أن
يجمع الناس عليها متأثرا بما قدمناه من تعاليم الدين الإسلامي التي تذهب
إلى أن النبي أرسل الناس إلى كافة، فأرسل الجيوش إلى الشام وفارس
تفتح فيها، وقد استمرت موجة الفتح من بعده في ارتفاعها واشتدادها.
ولم يلبث أبو بكر أن لبى نداء ربه في السنة الثالثة من خلافته،
فذهب راضيا مرضيا، وأوصى بالخلافة من بعده لعمر، وهو المثل
الأعلى للخليفة عند المسلمين في خلقه ودينه وسياسته، وهو أول من

(١) يظن مرجوليوت أن مسيامة كان يتأثر ببعض تعاليم المسيحية، انظر في ذلك:

Nicholson A Lit. Hist. of Arabs, p. 183.

(٢) اليعقوبى ١٤٤/٢ (٣) البلاذرى ص ٩٤ وما بعدها

(٤) اليعقوبى ١٥٢/٢

تلقب أمير المؤمنين^(١)، ولما ولي الأمر صعد المنبر بفلس دون مجلس
أبي بكر بمزقة، وخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي،
وذكرا بأبي بكر وفَضْلَهُ، وترحم عليه، ثم قال: «ما أنا إلا رجل منكم،
ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم». ^(٢)

وكان أول عمل بدأ به في خلافته أن رد سبائا أهل الردة إلى
عشائهم، وقال: «إني كرهت أن يصير السبي سنة على العرب» ^(٣). واستمر
على سياسة أبي بكر في إمداد الجيوش وفتح البلدان، بحيث لم يمر أكثر
من اثنتي عشرة سنة من خلافته وخلافة أبي بكر حتى كانت الإمبراطورية
الفارسية قد أصبحت ولاية تابعة للديانة، وكذلك أصبحت سوريا ومصر.

ومن المحقق أن عمر لم يُكره أتباع زرادشت في فارس ولا أتباع
عيسى في مصر والشام على الإسلام، ومع ذلك فقد دخله كثير منهم
حرا مختارا، وظل قوم على دينهم نظير دفع الجزية. وأغلب الظن أنها
لم تكن عقابا لمن امتنعوا عن الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى،
إنما كانت نوعا من الضرائب يدفع لحمايتهم، فقد جاء في نصوص
بعض المعاهدات التي عقدها خالد بن الوليد في العراق «فإن منعناكم فلنا
الجزية وإلا فلا» ^(٤).

وأظهر عمر تسامحا منقطع النظير مع هؤلاء الذين ضربت عليهم

(١) التاج للجاحظ طبعة أحمد زكي باشا ص ٨٨.

(٢) البيهقي ١٠٥٧/٢.

(٣) البيهقي ١٠٥٨/٢.

(٤) الطبري طبع أوروبا: القسم الأول ص ٢٠٥٠.

الجزية . وبينما كان عمر يأخذ أهل الديانات الأخرى بالتسامح ، كان يأخذ عماله بالشدّة . وكما كان شديداً على عماله كان شديداً على نفسه ^(١) .

وأخيراً قتل عمر سنة ٢٣ هـ . قتله يد أجنبية آثمة هي يد أبي لؤلؤة فيروز الجوسى ، مولى المغيرة بن شعبه ، وكان قائماً يصلى ^(٢) . وقد جعل الأمر من بعده شورى لستة نفر من أصحاب رسول الله هم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فانتخبوا عثمان ، وبايعوه بالخلافة ، وبايعه الناس ، وكان رجلاً ضعيفاً عانياً فى السن ، فأسلم أموره إلى ذويه من بنى أمية ، ولم يلتزم طريقة أبى بكر وعمر فى التقشف ، فقد بنى داراً كبيرة ^(٣) . وكان ذلك كله سبباً لثورة الجيش وثورة المسلمين عليه ، فقتلوه سنة ٣٥ هـ ^(٤) . وبويع على بالخلافة ، بايعه أهل المدينة ^(٥) . وقد سارع فعزل ولاية عثمان ، وكان من بينهم معاوية فى الشام ، فلم يستجب لهذا العزل ، بل رفع راية العصيان عليه ، وطالبه بشار عثمان ، إذ كان مثله من بيت بنى أمية .

وذهب على إلى العراق ليعد جيشاً يحارب به معاوية ، وذهب إليه معاوية على رأس جيش من الشام ، ولم تلبث الأمور أن تطورت ، فقتل

(١) انظر الطبرى : القسم الأول ص ٢٧٤١ .

(٢) البلاذرى ص ٣٤ . (٣) اليعقوبى ٢ / ٢٠٢ .

(٤) الطبرى : القسم الأول ص ١٩٨٠ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى ٢ / ٢٠٦ .

على سنة ٤٥ هـ ، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ ، وبذلك عادت الخلافة إلى بيت بني أمية ثانية ، واستمرت فيه نحو قرن من الزمان .

٤

المدينة في العصر الأموي

لعل أهم ظاهرة تميز المدينة في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ) أنها فقدت زعامتها السياسية ، التي تمتعت بها طوال حكم الخلفاء الراشدين ، فقد كانت عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ، تتبعها الولايات وتصرف شؤونها ، أما في هذا العصر فقد أصبحت تابعة لدمشق العاصمة ، وأصبح الولاة يختارون لها فيها ، بعد أن كانت هي التي تختارهم لها ، وتقيمهم عليها ، وعلى غيرها من بلدان العالم الإسلامي ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد أخذت تدفع إلى دمشق خراجها بما كان يسمى الصوائف من الحنطة والتمر .^(١)

وقد ولى عليها معاوية (٤١ - ٦٠ هـ) مروان^(٢) بن الحكم كاتب عثمان بن عفان ومشيره ، ثم أقاله ، وولى عليها سعيد بن العاص ، ثم عزله وولى مروان ثانية . ويستطيع من ينظر في محتتم السنين في الطبري أن يجد أسماء الولاة الذين توالوا عليها طوال العصر الأموي ، وأكثرهم من بيت بني أمية ، ولم يؤلَّ عليها من الأنصار سوى ابن حزم في عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

وكانت المدينة طوال العصر الأموي تقف موقف المعارضة من بني

أمية . ومن المعروف أنه لما استولى بنو أمية على الخلافة قامت معارضة واسعة ضدهم ، إذ كانوا من سلالة أشراف مكة في الجاهلية ، ولم يكن لهم سابقة في الإسلام ، بل على العكس من ذلك كانوا يناهضون النبي في دعوته إلا قليلا منهم ، ولم يسلم أكثرهم إلا بعد فتح مكة ، فكان كثير من المسلمين يرون أنهم غاصبون للخلافة ^(١) .

وانتشرت هذه الفكرة في إقليمين كبيرين ، هما إقليم العراق والحجاز ، أما العراق فقد كان فيه الخوارج وكان فيه الشيعة ، وكان فيه أيضا الموالي . يقول اليعقوبي : « في عصر معاوية خرجت عصاة من الموالي أميرهم أبو علي من أهل السكوفة ، وهو مولى لبني حارث بن كعب ، وكانت أول خروجه خرجت فيها الموالي ، ^(٢) وحاربهم المغيرة ابن شعبه وانتصر عليهم أحد قواده .

وهذه الطوائف الثلاث كان مركزها العراق ، وقد كان يقابلها في الحجاز طوائف أخرى من قريش والأنصار ، وكانت المدينة مركز هذه الطوائف ، فقد كان بها بيت الزبير بن العوام ، ومنه خرج عبد الله ابنه ، ودعا لنفسه بالخلافة ، ودوَّخ جيوش بني أمية ورجالهم حينما وكان بها بيت علي بن أبي طالب ، فإن الحسن بعد بيعته لمعاوية ذهب إلى المدينة ^(٣) ، وكذلك صنع أخوه الحسين ^(٤) ، ولم يلبث الحسين بعد وفاة معاوية أن خرج على يزيد ، وذهب إلى مكة ثم العراق حيث قتل ، وبعد مقتله أرسل يزيد أهله إلى المدينة ^(٥) ، فكان أولاده وأولاد أخيه

(٢) نفس المصدر ٢٦٢/٢ .

(١) اليعقوبي ٢٧٦/٢ .

(٣) الطبري : القسم الثاني ص ٦ . (٤) نفس المصدر : القسم الثاني ص ٩ .

(٥) نفس المصدر : القسم الثاني ص ٢٨٣ .

الحسن يعيشون فيها ، وكذلك كان يعيش فيها ابن الحنفية ^(١) وغيره من بني هاشم الذين كانوا يرون جميعاً أنهم أحق بالخلافة من بني أمية . وليست هاتان الأسرتان ، أسرة الزبيريين والهاشميين ، هما اللتان كانتا تشعران باغتصاب بني أمية للخلافة ، فقد كان يشعر شعورهما أسرة المخزوميين ، فكان كثير منها زبيرى الهوى ^(٢) . وأكبر الظن أن كثيراً من الأسر الأخرى كأسرة أبي بكر وعمر بن الخطاب كانت مغاضبة للأمويين أيضاً

كان إذن كثير من القرشيين الذين يعيشون في المدينة مغاضبين لبني أمية ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه جماعة الأنصار ، ولما غاضبتهم تاريخ قديم ، فإن الأنصار خذلوا عثمان ^(٣) ، وبايعوا علياً بعد قتله مباشرة ^(٤) . ولما ذهب إلى العراق ذهب معه كثير منهم وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى ^(٥) . وقد شهد صفين مع عليٍّ من أهل بدر سبعة وثمانون رجلاً ، منهم سبعون من الأنصار ، وشهدا معه بمن بايع تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان ، تسعةائة ^(٦) .

ولما دار الزمان دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعتبر أهل المدينة قتلة عثمان وأعداءه ^(٧) ، ويقال إنه أرسل إليهم بسر بن

(١) الأخبار الطوال للدينورى طبع ليدن س ٣٠٨ .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ٣١٦/٣ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ٢٨٤/٤ وما بعدها .

(٤) اليعقوبى ٢٠٦/٢ . (٥) المسعودى ٣١٠/٤ .

(٦) المسعودى ٢٩٥/٤ . (٧) الطبرى : القسم الثانى ص ٩٢ .

أرطاة ، فأقام عندهم شهراً ، يستعرضهم ، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله (١) .

لم تكن المدينة ولم يكن الأنصار من هوى معاوية ، وقد أغمدوا سيوفهم بعد قتل على وانتقال الخلافة إلى معاوية ، ولكن يظهر أنهم لم يغمدوا ألسنتهم ، فقد هجأ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت معاوية حين استلحق زياداً هجاءاً قبيحاً (٢) ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن ابن الحكم في المدينة فتهاجيا وتفاحشا (٣) . ولم يستطع ابن الحكم أن ينتصر منه على ما يظهر . وهنا نجد يزيد بن معاوية يرسل إلى كعب بن جعيل كي يهجو له الأنصار ، فقال له : أرادى أنت إلى الاشرار بعد الإيمان ؟ لا أهجو قوما نصر وارسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أدلك على غلام منا نصراني ، فدلّه على الأخطل ، فأرسل إليه ، فهاجى الأنصار وعبد الرحمن بن حسان بقصيدة طويلة قال فيها :

ذهبت قریشٌ بالمسكارم كلها واللؤمُ تحت عمام الأنصار (٤)
وبينما نرى يزيد يصنع ذلك إذا بنا نجد معاوية يرسل إلى مروان ابن الحكم واليه على المدينة أن يجلد أخاه عبد الرحمن كما يجلد عبد الرحمن بن حسان مائة سوط ، حتى تنطفئ هذه النار التي يؤججها في

(١) الطبري : القسم الثاني ص ٢٢ ، وانظر المسعودي ٤٦/٥ واليعقوبي ٢/٢٦٥ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٩٨ .

(٣) أغاني طبع بولاق ١٣/١٥٠ .

(٤) انظر ابن عبد ربه ٣/١٤٠ ، والأغاني ١٤/١٢٢ حيث يرجع أبو الفرج

المسألة إلى سبب شخصي !

المدينة . ولبي مروان أمر معاوية فضرب ابن حسان مائة ، وضرب أخاه
خمسین ، وبعث إلى ابن حسان بحلة ، وسأله أن يعفو عن الخمسين
الأخرى ، فرضى عبد الرحمن بن حسان وقال ، وشاع قوله في المدينة :
ضربني حدّ الحر وضربه حد العبد^(١) .

كانت المدينة موالية لمعاوية إذن عن قهر وموجدة ، فلما توفي
معاوية وانتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد أخذت تتحين الفرص للخروج
عليه ، وحدث أن أرسل إليها بعثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وهو فتى
غرّ لم تحسكه التجارب . حينئذ نجد المدينة تنهز الفرصة فتثور على يزيد ،
وتخرج عامله عثمان هو وبني أمية جميعا من المدينة إلى الشام ، وتبجحهم
ترميمهم بالحجارة^(٢) . وقد رجعت فبايعت عبيد الله ابن حنظلة
الغسيل^(٣) . ولما علم يزيد ، أرسل إليها مسلم بن عقبة في خمسة آلاف ،
فأوقع بأهلها وقعة الحرّة المشهورة^(٤) ، وقد قتل فيها خلق كثير^(٥) ،
ودخل مسلم المدينة وأباحها جيشه ثلاثة أيام^(٦) ، فنهبت الأموال
وهتكت الأعراض ، وفي أثناء ذلك أخذت البيعة ليزيد من الناس على
أنهم عبيد له^(٧) . وبعث مسلم برؤوس أهل المدينة إلى سيده ، فلما

(١) أغاني ١٤/١٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر اليعقوبي ٢/٢٩٨ وأغاني طبع دار الكتب ١/٢٣ .

(٣) الطبري : القسم الثاني ص ٤٠٣ وابن سعد ٥/٤٧ .

(٤) انظر في وقعة الحرّة الطبري : القسم الثاني ص ٤٠٥ وما بعدها .

(٥) انظر كلمة حرّة في معجم البلدان لياقوت إذ يزعم أنه قتل من الأنصار ١٧٠٠

ومن المهاجرين ١٣٠٠ غير من قتل من الموالى وكانوا خمسة آلاف .

(٦) الطبري : القسم الثاني ص ٤١٨ . (٧) اليعقوبي ٢/٢٩٨ .

ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبيري يوم أحد :

ليت أشياخي بيدر شهدوا جَزَعَ الخُزْرج من وقع الأسَل
لأهائِوا واسـتملوا فرحا ولقالوا ليزيد لافشِل (١)

ولم يلبث يزيد أن توفي ، فدخلت المدينة في طاعة ابن الزبير ،
واستمرت موالية له حتى قتل ، فاضطرت راغمة أن تدعن للأمويين
من بيت مروان بن الحُكم . وقد زارها عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ ،
فأعاظ لأهلها في القول ، وقام خطباؤه فصنعوا مثل صنيعه (٢) ، ورمأها
بهشام بن إسماعيل الخزومي سنة ٨٢ هـ ، فأساء السيرة ، وجار في
الاحكام ، وتحامل على آل رسول الله (٣) ، وتعرض لسعيد بن المسيب
فقيه المدينة ، وكان يبعص خلفاء بني أمية ، فضر به ستين سوطا ظالما
وعدوانا ، وطاف به (٤)

وحج الوليد سنة ٩١ هـ ، فر بالمدينة ، لينظر إلى مسجد الرسول صلى
الله عليه وسلم ، وما أصلح منه ، ولقيه أشرافها لقاء حسنا ، وقسم فيهم
عطاءه ، ومع ذلك خطبهم فتوعدهم قائلا لهم : إنكم أهل الخلاف
والمعصية ، فقام اليه قوم فكلموه ، فقال ما نجعل ما تقولون ، ولسكن
في النفوس ما فيها (٥) . وقد ولى عليها أول الأمر عمر بن العزيز ثم
عزله ، وولى عثمان بن حيان المري ، وكانت فيه شدة ، فطلب اليه أن يفرق
من فيها من أهل الأهواء (٦) .

(٢) اليعقوبي ٣٢٧/٢ .

(١) ابن عبد ربه ٣١١/٢ .

(٤) الطبري : القسم الثاني ص ١١٦٩ .

(٣) نفس المصدر ٣٣٩/٢ .

(٦) الطبري : القسم الثاني ص ١٢٦٠ .

(٥) اليعقوبي ٣٤٠/٢ .

ونرى من كل ما سبق أن المدينة كانت موطناً من مواطن معارضة
 الأمويين ، وقد قسوا على أهلها كثيراً في معاملتهم تارة بتوجيه الجيوش
 إليهم ، وتارة بإقامة ولاية يبطشون بهم . واستمرت المدينة مغاضبة لهم
 طوال خلافتهم ، لا تنسى خصومتهم ، وما أذاقوها من سوء العذاب .

٥

الثراء والحضارة في المدينة

رأينا المدينة في عصر الخلفاء الراشدين تصبح عاصمة الإمبراطورية
 الإسلامية فقد اجتاحت العرب بلاد الفرس كما اجتاحت بلاد الشام
 ومصر ، وقد أخذت الأموال تسيل إلى المدينة منذ ولي الأمر أبو بكر
 حتى من داخل الجزيرة نفسها ، فقد كان أول مال قسمه أبو بكر في
 الناس ما وجه به العلاء الحضرمي من فتح بعض نواحي البحرين ، وقد
 فرقه في الناس جميعاً أحراراً وعبيداً ديناراً لكل إنسان ^(١) . وأخذت
 أموال الفيء تهال على المدينة بعد ذلك من فارس والشام ، فكان أبو بكر
 يقسم بين الناس بالسوية ولا يفضل أحداً على أحد ^(٢) .

ولما جاء عمر جاءته كنوز الأرض مما كان يفتحه العرب ، فكان
 يوزع هذه الكنوز على المسلمين . روى الرواة أن أبا هريرة وفد عليه
 من البحرين في أول خلافته فقال له : ما جئت به ؟ قال جئت بخمسمائة
 ألف ، قال : هل تدري ما تقول ؟ قال : مائة ألف ومائة ألف وعد خمسمائة

(٢) يعقوبي ١٥٤/٢ .

(١) يعقوبي ١٥١/٢ .

خطب عمر في الناس : إنه قدم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعدده لكم
عدا ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلا ^(١) . وبلاد البحرين ليست أهم
بلاد الامبراطورية الإسلامية حينئذ ، وما جاء منها لا يعدل شيئاً مما
أخذه المسلمون في حروبهم من بلاد الفرس ، وما أفاء الله عليهم من
الغنائم في الشام ومصر . وقد رُوِيَ أن الأسلاب قسمت بعد موقعة
القادسية التي قتل فيها رستم فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً ، وسهم
الراجل سبعة آلاف ومائة ^(٢) . ويقال إن خراج سواد الكوفة وحدها
من بلاد العراق بلغ في خلافة عمر ثمانين ألف ألف درهم في أحد
الاعوام ، وفي العام الذي يليه بلغ عشرين ومائة ألف ألف درهم ،
وكان صاحب الكوفة يحمل إلى المدينة من هذا الخراج نحو عشرين
أو ثلاثين ألف ألف ^(٣) . ويقول ابن الطقطقي : « لما كانت سنة خمس
عشرة من الهجرة في خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالى ، وأن كنوز
الأكاسرة قد ملكت ، وأن الجمول من الذهب والفضة والجواهر
النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابع ، فرأى التوسيع على المسلمين
وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع ، وكيف يضبط
ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرابة الفرس ، فلما رأى حيرة عمر قال له :
يا أمير المؤمنين ! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديوانا ، جميع دخلهم
وخرجهم مضبوط فيه ، لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه
مراتب ، لا يتطرق عليها خلل ، فتنبّه عمر وقال : صفه لي ، فوصفه

(٢) اليعقوبي ١٦٥/٢ .

(١) البلاذري ص ٤٥٣ .

(٣) نفس المصدر ١٧٤/٢ .

المرزبان ، ففطن عمر لذلك ، ودون الدواوين ، وفرض العطاء ، فجعل لكل واحد من المسلمين نوأاً مقررأ ، وفرض لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ولسراريه وأقاربه^(١) . وقد بدأ عمر فى الديوان بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وبقية بنى هاشم ، ثم الأقرب فالأقرب إلى النبى ، وفرض للناس بحسب السابقة فى الإسلام ، وفرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديدية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديدية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، فى ذلك من شهد الفتح وقاتل ... ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة ... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ... وأعطى نساء النبى عشرة آلاف عشرة آلاف ، إلا من جرى عليها الملك ... وجعل نساء أهل بدر فى خمسمائة خمسمائة ، ونساء من بعدهم إلى الحديدية فى أربعمائة أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك إلى القادسية فى ثلاثمائة ثلاثمائة ، ونساء أهل القادسية فى مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء فى مائة مائة^(٢) .

وإنما سقنا ذلك لندل على مدى ما كان يصيبه أهل المدينة من أموال فى عصر الخلفاء الراشدين . وهذا غير ما كان يجلبه الذين اشتركوا

(١) الفخرى طبع أوروبا ص ١٠١ .

(٢) الطبرى: القسم الأول ص ٢٤١٢ وما بعدها .

منهم في الحرب والفتوح . وقد استمرت موجة هذه الفتوح والحروب في ارتفاعها طوال حكم عمر ، حتى إذا كان عصر عثمان أخذت تتوقف ، ومع ذلك فالبلاذري يروى أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح صالح بطريق إفريقية بعد فتحها في عهد عثمان على ثلاثمائة قنطار من الذهب ، وقدر ذلك بعض المؤرخين بمليونين ونصف من الدنانير ^(١) . ويقال إن عثمان أمر لمروان بن الحكم بخمس هذا المال ^(٢) .

ولم تدخل هذه الأموال في المدينة وحدها منفصلة عن كل ما كان يتصل بها في البلاد الأجنبية ، بل لقد دخلت ومعها الرقيق الذي كان يُسبى في الحروب من رجال ونساء . وأول رقيق دخل المدينة كان في عهد عمر ، إذ أرسل إليه معاوية بأربعة آلاف من سبي قيسارية ^(٣) ، ودخل المدينة بعد ذلك رقيق آخر كثير . وما من ريب في أن هذا الرقيق كان يفهم من الحضارة ألوانا لا يفهمها أهل المدينة القدماء ، وقد كان منه فرس وشاميون وأفريقيون فأخذوا يؤثرون في حياة أهل المدينة تأثيراً عميقاً وهو تأثير بدأ طفيفاً أول الأمر ، وخاصة في عصر عمر ، إذ كان يدعو إلى الارتباط بالحياة القديمة وعدم الانفصال عنها ^(٤) .

ونحن لا نترك عمر إلى عثمان حتى نحس أن أهل المدينة تغيروا تغيراً كثيراً عما كنا نعهدهم عليه من تقشف . ويكفي في تصوير ذلك

(١) البلاذري ص ٢٢٧ . (٢) اليعقوبي ١٩١/٢ . (٣) البلاذري ص ١٤٢ .

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ١٨/١ وانظر الوزراء والكتاب للجهشيارى طبعة

الحلي ص ١٩ وكذلك الطبري : القسم الأول ص ٢٧٤٧ .

ما تركه كبار الصحابة من ثروات ، فقد روى الرواة أن طلحة بن عبيد الله خلف ثلاثمائة بهار من ذهب وفضة ، والبهار مزود من جلد عجل^(١) ، ويقول المسعودي : إن الزبير خلف خمسين ألف دينار ، بينما خلف زيد بن ثابت مائة ألف دينار ، ومات يعلى بن مُسَيِّبة عن خمسمائة ألف دينار ، وديون وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار ، وبلغ الربع في تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار . أما عثمان فقد خلف خمسين ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وعقارات قيمتها مائة ألف دينار . وقد عقب المسعودي بعد ذكره لهذه التركات بقوله : وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه ، فيما تملك من الأموال في أيام عثمان ، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب وحج عمر فأنفق في ذهابه وجميته إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله : قد أسرفنا !^(٢) . وهذا في الواقع إنما هو نمو طبيعي للأموال التي انهارت على المدينة في عصر عمر ، وما جناه قواد الحرب من غنائم في أثناء الفتوحات . على كل حال اتسع ثراء المدينة منذ عثمان ، واتسعت معه الرفاهية ، أو قل أخذت تظهر الرفاهية ، ولم تكن معروفة في عصر عمر كما يلاحظ ذلك المسعودي . وكان من مظاهر هذه الرفاهية الواضحة اتخاذ القصور وبناءها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج ، وقد بدأ ذلك عثمان الخليفة نفسه^(٣) ، وتبعه أعيان أهل المدينة من مثل سعد

(١) ابن عبد ربه ٢/٢٧٩ . (٢) انظر مروج الذهب ٤/٢٥٣ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٤/٢٥٣ .

ابن أبي وقاص ، وطلحة ، والمقداد ، وعبد الرحمن بن عوف . أما سعد فابنتي له دارا بالعقيق ، رفع سمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات ، وأما طلحة فابنتي له دارا بالحص والاجر والساج ، وأما المقداد فكانت داره بالموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل على أعلاها شرفات ، وصيرها بمحصة الظاهر والباطن ، وكذلك بنى عبد الرحمن بن عوف له داراً كبيرة (١) .

ونحن لا نمضي في العصر الأموي حتى نجد أولاد الصحابة يخلقونهم على هذا الثراء وهذه الأموال والقصور ، وقد دون عمروان العطاء وأصبح لكل شخص في المدينة عطاء يميز به . وقد انتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ومع ذلك ظلت المدينة لا تحرم من فيء الفتوح ، فقد روى عن الوليد بن عبد الملك الذي فتح في عهده الأندلس ، كما فتح شطر كبير من الهند ، أنه زار المدينة ، وقسم فيها رقيقا كثيرا بين الناس ، كما قسم آنية من الذهب والفضة ، وأيضاً فإنه قسم أموالاً (٢) . ومعروف أن معاوية وضع نصب عينيه استرضاء خصومه بالمال ، فكان يكثر من عطاياه على كل من يفد عليه من المدينة . وتبع معاوية غيره من خلفاء بني أمية في هذا التقليد ، فكانوا يجيزون من يفد عليهم جوائز سنوية ، يريدون بذلك أن يصطنعواهم لأنفسهم ، وأن يتقوا موجدتهم وغضبهم . وكان بيت بني هاشم على رأس البيوت التي تستقبل استقبالاً كريماً في دمشق ، فكان

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢٥٤/٤ وما بعدها ، وانظر الطبري : القسم الأول ص ٢٨٦٠ حيث يذكر أن بناء الدور في هذا العهد بلغ سلعا .
(٢) الطبري : القسم الثاني ص ١٢٢٣ .

معاوية إذا وفد عليه أحد منهم وصله بالجوائز^(١) ، ويروى أن الحسن وفد عليه فأجازه بمائة ألف^(٢) ، وقبل ذلك حين صالحه جعل له ما في بيت ماله وخراج دارا مجرد ، فأخذ ما في بيت ماله في الكوفة ، وكان فيه خمسة آلاف ألف^(٣) .

وذهب معاوية ، وجاء يزيد ، فاستن سنة أبيه في اصطناع الناس بالمال ، وقد أعطى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أربعة آلاف ألف^(٤) ، وبعث إليه عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامله على المدينة وفدا منها ، فأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، وأعطى كلا منهم مائة ألف درهم^(٥) ، ووفد عليه عبد الله بن حنظلة زعيم الأنصار في المدينة ومعه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وما حملهم عليه^(٦) .

ولما تبعت المدينة عبد الله بن الزبير كان شحيحا ، ولكن أخاه مصعبا كان جوادا كريما ، فلما ولاه أخوه على العراق كان يصل أهل المدينة ، وقد أعطى عاصم بن عمر ستة عشر ألف دينار ، وأعطى عبد الله ابن جعفر ضعف ذلك^(٧) . ويروى أنه أهدى صديقا له في المدينة وهو عبد الله بن أبي فروة كنزا وجده عامله في خراسان ، وهو نخلة كانت

(١) الفخرى ص ١٢٧ . (٢) ابن عبدربه ١/١٤٥ .

(٣) الطبرى : القسم الثانى ص ٤ . (٤) ابن عبدربه ١/١٤٥ .

(٥) الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٢ . (٦) نفس المصدر : القسم الثانى ص ٤٢٢ .

(٧) الوزراء والكتاب للجيشيارى ص ٤٦ .

الكسرى مصنوعة من الذهب عشا كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت
أحمر وأخضر ، وقد قومها المقومون لمصعب بألف دينار ! فكان
ابن أبي فروة أيسر أهل المدينة ^(١) .

ولما استقامت الخلافة لبني مروان أخذوا يقطعون السنة الناس
وعلى رأسهم أهل المدينة بالمال ، وكان خلفاؤهم يذهبون أحيانا إليها
ويقسمون فيها قسما كثيرة على نحو ما صنع الوليد كما مر آنفا ، وقد
زارها سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ فقسم فيها أموالا وفرض
لقریش خاصة أربعة آلاف فريضة ^(٢) .

ومهما يكن فإن كثيرا من أهل المدينة اتسع بهم الثراء في العصر
الأموي اتساعا شديدا ، إما بفضل ما جاءت به الفتوح آباءهم قديما ،
ونموه حديثا ، وإما بفضل ما كان يُصَبّ في حجورهم من خزائن
دمشق ، وقد كان ديوان العطاء مددًا مستمرًا لا ينفد ، ولم يُرو أنه
انقطع عنهم ما يأتهم منه ، إلا سنة واحدة في عصر هشام بن عبد الملك ،
فإنه منعهم عطاءهم حين خرج عليه زيد بن علي ، ولما كنهه لم يلبث أن
توفي فأعاده عليهم الوليد بن يزيد ^(٣) .

كان أهل المدينة في يسار ونعمة طوال هذا العصر الأموي
بل كان كثير منهم ثريا واسع الثراء ، وكان يقترن بهذا الثراء ضروب
واسعة من الحضارة لم تعرفها المدينة قبل هذا العصر . وفرق كبير بين

(١) الجشيارى ص ٤٤ .

(٢) يعقوبى ٣٥٨/٢ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٢٢/٧ .

حضارة سكان المدينة في هذا العصر ، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أن يسموهم بالتابعين ، وسكانها في عصر الخلفاء الراشدين ، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أيضاً أن يسموهم بالصحابة . وحقاً إن الصحابة اطلعوا على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم ، ولما سكن اقتباسهم كان محدوداً جداً ، وخاصة قبل عصر عثمان . وقد بدأ هذا الاقتباس يتسع في عصر عثمان ، فبنى بعض الصحابة الدور والقصور ، ولكنه كان على كل حال اقتباساً في حدود ضيقة ، أما في هذا العصر الأموي فقد نشأ جيل آخر لم تكن له صلة بالجاهلية ولا بالحياة القديمة إلا ما يروى من أخبارها ، أما صلته كلها بالحضارة الأجنبية التي دخلت كل شيء في حياته ، وهو جيل التابعين ، وقد كان خليطاً من العرب والموالي (١) ، وهم جماعة من الأجانب الذين سبوا في الفتوح هم وأبناءؤهم ، وكانوا كثيرين في المدينة منذ كانت الفتوح في عهد أبي بكر وعمر ، وقد ترك الزبير بن العوام وحده منهم ألف عبد وألف أمة (٢) ، وكان غيره من الصحابة تسكتظ بيوتهم بهم .

وكان هؤلاء الموالي يشتركون في حياة المدينة ، سلمها وحربها ، ففيوقعة الحرة قتل منهم خمسة آلاف ، وفي السلم كانوا ينهضون بإعداد الحياة لهؤلاء الأنصار والمهاجرين ، إذ كانوا يقومون على خدمتهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ،

(١) انظر ابن سعد الجزء الخامس حيث يترجم أولاً للتابعين من قريش والأنصار في المدينة ثم يترجم للموالي .

(٢) المسعودي ٤/٢٥٤ .

ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم لهم المرقق ، فكانوا يحسبونه رقاعا ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى ، فاستعملوه في عجينهم ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهمهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقوامة عليه أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترفع في الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخير شي .. فأتوا من ذلك وراء الغاية ، (١) .

وقد حجز ابن الخطاب أهل المدينة دون هذه الحضارة التي جلبوها من الخارج (٢) ؛ إذ كان يكره للعرب من سكان المدينة وغيرهم أن يأخذوا بأسباب الحضارة الأجنبية ، وأن ينعموا بملذاتها في المطعم والمشرب والمسكن ، ولكن لا يذهب عمر ، حتى نجدهم يقبلون على هذه الحضارة وما تستتبعه من رفاهية ، وقد بدأوا ذلك منذ عثمان ، فاتخذوا الدور والقصور على ما مر في غير هذا الموضع ، وكلما تقدم بهم الزمن ازدادوا في الأخذ من هذه الحضارة والرفاهية .

ونحن لا نصل إلى العصر الأموي حتى نجد أهل المدينة تغيروا تغيرا تاما ، فقد أخذوا يضربون في الحضارة الأجنبية بحظ بل

(١) مقدمة ابن خلدون طبع بولاق ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن عبد ربه ٧/١ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد طبع القاهرة ١٠١/٣ م .

بخطوط ، فعرفوا كثرة الألوان في الأطعمة (١) ، وأكلوا في أواني الذهب والفضة (٢) .

وكما عرف أهل المدينة التنعم في المطاعم عرفوا التنعم في الملابس ، فاتخذوا الخبز والديباج والإستبرق . ومن طريف ما يروى عن السيدة عائشة أنها سئلت عن ثوبها في زمن الرسول ، فقالت : أما والله ما كان خزا ولا قزا ولا ديباجا ولا قطنا ولا كتانا . . . إنما كان سداه من شعر ، ولحمته من أوبار الإبل (٣) .

تغيرت ثياب نساء المدينة فكن يلبسن الديباج والحرير ، (٤) والقطن والكتان ، وكن يلبسن الثياب المعصفرة ، والثياب الرقيقة الشفافة . ولم يقف الأمر في ذلك عند النساء فقد أخذ الرجال يلبسون المضرجات والممصّرات والملونات (٥) ، ويروى أن أول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم (٦) ، وكان فتية بنى مروان يرفلون في القوهى والوشى كأنهم الدنانير الهرقلية (٧) ، واشتهر عبد الله ابن جعفر بلبس الخنز (٨) ، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قصص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء عذنى

(١) المستطرف للابشيهى طبع المطبعة العثمانية بمصر ١٦٢/١ .

(٢) ابن عبد زبه ١١١/١ وانظر ابن سعد ١٢٦/٤ .

(٣) ابن عبد زبه ٣٩٤/١ . (٤) ابن سعد ٣٥٢/٨ .

(٥) أغانى طبع دار الكتب ١٣/٦ وانظر طبعة بولاق ٢٠٤/١٨ .

(٦) المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ٢٧٤ .

(٧) أغانى طبع دار الكتب ٣١٠/١ (٨) أغانى طبع بولاق ٧٦/١١ .

بألفي درهم^(١)، وكان عمر بن عبد العزيز، وهو وال على المدينة، يلبس الثوب بأربعائة، فيقول ما أخشنه وأغلظه^(٢).

وقد كانوا يتخذون الطيب ويكثرون منه، وما يدل على مدى اتخاذهم له ما يروى عن هارون بن صالح عن أبيه أنه قال: «كنا نعطي الغسَّال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابنا في أثر ثياب عمر بن عبد العزيز من كثرة الطيب فيها يعنى المسك^(٣)». وكان ذلك في ولايته على المدينة وقبل أن يتزهد، وعمر إنما كان يجارى شباب المدينة في طيبه ومسكه.

وعلى نحو ما بالغ أهل المدينة في ملابسهم وطيبهم بالغوا في حلهم وجواهرهم فكان النساء يتحلين باللؤلؤ والياقوت^(٤)، واشتهرت عائشة بنت سعد بن أبي وقاص بنينتها من قلائد الذهب^(٥)، كما اشتهرت سكيمة بنت الحسين بأنها كانت تثقل ابنها بالحلى والآلى^(٦). وقلد الرجال النساء، فكانوا يتخذون مثلهن الحلى والجواهر^(٧).

ولاشك أن هذا كله إنما تم تحت تأثير الحضارة الجديدة التي دخلت المدينة، والتي أخذ أهلها يغرقون فيها إلى آذانهم، فهم يرصّعون حياتهم ويحيلونها حلية وزينة خالصة.

(٢) ابن سعد ٢٤٦/٥.

(١) أغاني ١٧/٨٩.

(٤) أغاني ٨/٢٧٣.

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٩/٢٦٢.

(٦) أغاني طبع بولاق ١٤/١٦٨.

(٥) ابن سعد ٨/٣٤٣.

(٧) أغاني طبع دار الكتب ٨/٢٧٨.

ترف أهل المدينة

تحضر أهل المدينة كما رأينا ، وأدى بهم هذا التحضر إلى ترف واسع في العصر الأموي ، وماذا ينقصهم ليكونوا مترفين ؟ إن المال تحت أيديهم ، فهم يصيبون منه ما يريدون ، وهم يتنعمون به ما شاءوا من ألوان النعيم .

ونحن لا نستطيع الآن أن ندرك إدراكا دقيقا ما كان عليه القوم من ترف ، لأن النصوص التي تمثل ذلك في الأغاني والطبى وغيرهما قليلة ، وإن أملت بشخص تركت أشخاصا ، وإن أملت ببیت تركت بيوتا . وما من ريب في أن بيوت بنى هاشم وبنى أمية والزبيرين والمخزوميين كانت مترفة غاية الترف ، فبين أيديها المال الكثير الذى يهيم لها كل ما تريد . ولعل مما يصور ذلك ما يروى عن حمزة بن عبد الله بن الزبير من أن ابن قيس الرقيات وفد عليه فأعطاه أربعة آلاف دينار (١) ، واقترض منه ابن قطن مولى معبد ألف دينار ثم جاء يردّها إليه فأبى أن يأخذها (٢) ، وكان معبد منقطعا إليه يغنيه فيما يمدحه به الشعراء (٣) .

وأمثال حمزة من الأثرياء المترفين فى المدينة كثير ، ولعل خير من يمثلهم فى هذا العصر عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان جوادا سمحا ، فكان يعطى الشعراء عطايا كثيرة . ويقول صاحب الأغاني إن أهل المدينة

(١) أغاني طبع دار الكتب ٩٣/٥ . (٢) نفس المصدر ٣/٣٦٤ .

(٣) نفس المصدر ٥/١٠٣ .

كان يقترض بعضهم من بعض إلى أن يأتي عطاؤه ^(١) ، ويقول الرواة إن الحجاج تزوج ابنته فأمرها تسعين ألف دينار ^(٢) ، أي نحو خمسين ألف جنيه ، وهو مهر لا تستطيع بنات أصحاب الملايين أن تشرنوب أعناقهن إليه في هذا العصر .

وقد كان عبد الله على ما يظهر مترفا ترفا شديدا ، حَدَّثَ صاحب الأغاني أن عبد الملك بن مروان منع ابن قيس الرقيات عطاءه من بيت المال ، وطلبه ليقتله ، فاستجار بعبد الله بن جعفر ، وقصده فألفاه نائماً ، ولما كان صديقا لسائب خاثر (المغني مولى ابن جعفر) ، وطلب الإذن على ابن جعفر فتمعذر ، جاء سائب خاثر ليستأذن له عليه ، قال سائب : فجئت من قبل رجل عبد الله بن جعفر فنبحت نباح الجرو الصغير ، فانتبه ، ولم يفتح عينيه ، وركني برجله ، فدرت عند رأسه ونبحت نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، فرآني ، فقال : مالك ويحك؟! فقلت : ابن قيس الرقيات بالباب ، فقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل إليه ، فرحب ابن جعفر به وقربه ، فعرفه ابن قيس خبره ، فدعا بظبية فيها دنانير وقال : عدّ له منها ، فجعلت أعد وأترنم ، وأحسن صوتي بجمدي ، حتى عددت ثلاثمائة دينار فسكت ، فقال لي عبد الله مالك ويلك سكت؟! ما هذا وقت قطع الصوت الحسن ، فجعلت أعد ، حتى نفد ما كان في الظبية ، وفيها ثمانمائة دينار ، فدفعتها إليه ، ^(٣) .

(١) أغاني طبع بولاق ٦٩/١١ . (٢) بن عبد ربه ٢٩٢/٣ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٨١/٥ .

أرأيت إلى هذه الحادثة الطريفة ؟ إنها تصور لنا ترف العصر
تصويراً بالغاً ، فهذا ابن قيس الرقيات لا يستطيع أن يدخل بيت ابن
جعفر إلا بعد استئذان ، وهو يستأذن عليه فيتعذر لقاءه له ، فيأتي مولى
له يألفه ، كي يدخله عليه . ويقبل سائب خاثر فيجد ابن جعفر نائماً ،
فيصطنع معه أسلوباً يدل على ما كان به من ترف . إن ابن قيس الرقيات
بالباب ، وسائب خاثر يخشى أن يعلم به والى المدينة ، فيأخذه إلى عبد
المملك ، كي يقضى فيه ما هو قاض ، ليس أمامه إلا أن يوقظ ابن جعفر
ولكن كيف يوقظه ؟ لقد أتاه من قبل رجله فنبح نباح الجرو الصغير ،
فانتبه ابن جعفر ولم يفتح عينيه ، وركله برجله ، فأتاه من قبل رأسه ،
ونبح نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، حينئذ حدثه بخبر ابن قيس .
وما أرتاب في أننا لو سمعنا هذا الخبر في عصرنا يحكى عن فتاة
مترفة لعجبنا عجباً شديداً ولذهبنا نتخيل صوراً كثيرة عن دلالها وترفها ،
وأجار عبد الله بن جعفر صاحبه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يهدى
من روعه بالذهب يلقيه في حجره بملك الصورة الأنيقة من عدد سائب
خاثر وغنائه على عده . وأكبر الظن أن ابن جعفر لم يكن بدعاً في
عصره ، بل كان يستن بترف قومه .

وكما كان الرجال مترفين كان النساء أيضاً مترفات ، ولعل ترفهن
كان أوسع من ترف الرجال بعامل مافي طبع المرأة من ميل إلى التأنق
والزينة . وخير من يمثل نساء المدينة المترفات في هذا العصر سيدتان

من أنبل السيدات ، هما : عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، ثم سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب .

وقد كانت عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم توفي ، فتزوجها مصعب بن الزبير ، وأمرها ألف ألف درهم^(١) ، وتوفي عنها ، فتزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، ومات عنها ولم تتزوج بعده^(٢) ، وهي بنت أخت السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق^(٣) ، وكانت لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب زوجها في ذلك ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال ، أحببت أن يراه الناس . ويعرفوا فضلي عابهم ، فما كنت لأستره ، فوالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد^(٤) . وكانت تعني بزيتها وعطرها عناية بالغة ، وفيها يقول ابن قيس الرقيات :

جَنِّيَّةٌ بَرَزَتْ لَتَقْتَلَنِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمَسْكِ
عَجَبًا لِمِثْلِكَ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمَنْبَرِ الْمَلِكِ^(٥)

وكانت إذا حجت ذهبت ومعها ستون بغلا عليها الهواذج والرحائل ، وتعرض لها عروة بن الزبير فقال :

عائش يا ذات البغال الستين أكلّ عام هكذا تحجّين

فأرسلت إليه نعم يا عروية^(٦) . ويروى أن عائكة بنت يزيد بن معاوية امتأذنت عبد الملك في الحج فقال لها : دارفعي حوائجك واستظھري ،

(١) أغاني طبع بولاق ٥٨/١٠ . (٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٨٠/٢ .

(٣) أغاني ٥٦/١٠ . (٤) نفس المصدر ٥٤/١٠ .

(٥) أغاني ٥٤/١٠ . (٦) أغاني ٦٠/١٠ .

فإن عائشة بنت طلحة تحج ، ففعلت ، فجاءت بهيئة جهدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها ، وفرق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة الى سننها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهوارج ، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى ، ^(١)

وإذا كانت بنت الخليفة يزيد حفيدة معاوية لا تبلغ مبلغ عائشة في زينتها وهيئتها ، فماذا كانت هذه الهيئة والزينة ؟ إننا لو سمعنا في هذا العصر أن ملكة تحج على هذا النحو لهبَّ المصورون من آفاق العالم يأخذون صورها ويذيعونها على الصحف . وقد قالوا إن مصعبا أهداها ثمانى حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، فلما دخل عليها ليقدّم هديته وجدها نائمة ، فأيقظها . فلما رأت الهدية لم تعن بها ، وقالت : كان النوم أحب إلي ^(٢) . وقد روى أنها لما تأيّمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، وتخرج الى مال لها بالطائف عظيم وقصر لها ، فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات ، فتناضل بين الرماة ، ثم يفد عليها الشعراء فيجيزهم ^(٣) .

وهذه صورة بالغة من الترف والنعيم ، وكانت تشرّكها في كثير من

(١) أغاني ٦٠/١٠ .

(٢) نفس المصدر ٥٧/١٠ .

(٣) أغاني ٦١/١٠ .

جوانب هذه الصورة السيدة سكينة بنت الحسين ، وكانت جميلة ، وتزوجت غير واحد ، تزوجت عبد الله بن الحسن بن علي ، وهو أول أزواجها ^(١) ، ولما قتل مع أبيها تزوجت بعده مصعب بن الزبير ، فأمرها ألف ألف درهم ^(٢) ، ولما قتل تزوجت عبد الله بن عثمان الخزامي ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان ^(٣) . وكانت سكينة مثل عائشة تعتز بجالها ، ولا تستر وجهها ، ويقول صاحب الأغاني : « كانت سكينة عفيفة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء ^(٤) » . ويقول أيضا : « إنها كانت أحسن الناس شعرا » ، وكانت تُصَفِّفُ جُمَّتَها تصفيفا لم يُرَ أحسن منه ، حتى عرف ذلك ، وكانت تلك الجملة تسمى السكينية ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه ^(٥) .

ويظهر أن سكينة كانت أكثر دلالة من عائشة ، وهي تمثل القتيات المترفات اللاتي يضرجن من كل شيء ، واللاتي يُحسِنُ الإِدلال والعجب بأنفسهن . روى صاحب الأغاني أنها شكت زوجها الرابع زيد بن عمرو ابن عثمان إلى ابن حزم ، لخروجه إلى ماليله ، مغاضبا لها ، وقد أقام فيه سبعة أشهر مع ولادته ، فلما تكلم معها ابن حزم ، أسرعت إلى شتمه ،

(١) أغاني ١٦٨/١٤ .

(٢) نفس المصدر ١٦٨/١٤ والمعارف لابن قتيبة ص ١٢٠ .

(٣) انظر في أزواجها الأغاني ١٦٨/١٤ وما بعدها .

(٤) أغاني ١٦٥/١٤ .

(٥) أغاني ١٦٥/١٤ .

ثم قالت لزوجها: يا أبا عثمان تزود منى بنظرة ، فلن ترانى والله بعد
الليلة أبداً (١).

وكانت تشتط على أزواجها ألا يمنعوها رغبة أو مخرجا تريده ،
فهي مدللة مبالغه في دلالها . ولما تزوجها الأصمغ بن عبد العزيز بن
مروان أصدقها صداقا كثيرا ، ويروى أنه أمرها عشرين ألف دينار
وقد اشترط عليه — كعادتها — أن لا يمنعها شيئا تريده ، فكانت
تقول له : اخرج بنا إلى مكة ، فإذا خرج بها فسافرت يوما أو يومين
قالت : ارجع بنا إلى المدينة ، فإذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا
إلى مكة (٢).

وهي مع هذا الدلال كان لها ذوق جيد في الشعر ، فكانت تنقد
الشعراء وتفاضل بينهم (٣) ، وكانت ظريفة مزاحه (٤) . ومما يروى عنها
في هذا الباب أنها بعثت الى صاحب الشرطة تقول : « إنه دخل شامى
علينا ، فابعث إلينا بالشرطة ، فركب معها ، فلما أتى الباب أمرت ، ففتح
له ، وأمرت جارية من جواريتها ، فأخرجت إليه بـ غوثا ، وقالت هذا
الشامى الذى شكواه » (٥) ، وانصرف القوم يضحكون . وكان أشعب
مضحك أهل المدينة يختلف إليها كثيرا لإضحاكها وجلب السرور إليها ،
ويقال إنها غضبت عليه مرة فأمرته أن يحتضن بيضا حتى يفقس ،
ففعل ، وكانت تنسب إليه الفراريج وتقول بنات أشعب (٦) .

(١) أغاني ١٧١/١٤ . (٢) أغاني ١٧٠/١٤ . (٣) أغاني ١٧٣/١٤ .

(٤) أغاني ١٦٥/١٤ . (٥) أغاني ١٦٦/١٤ . (٦) أغاني ١٦٨/١٤ .

ظرف ودلال ، هذان هما سكينه ، الزهرة العاطرة في بيئتها ،
وهي زهرة تدل على أخواتها ، فقد كان الجو كله مشبعاً بالعطر
والظرف والدلال ، وكان جواً مترفاً غاية الترف . ولعل من خير
ما يصور هذا الترف ما يروى عن سكينه أنها حجت ، ورمت الجمار ،
فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فرمت بخاتمها^(١) . ويروى أنها استبدلت
مالها بالزوراء بقصر في العقيق يسمى البريدى ، فلما سال العقيق خرجت
ومعها جواربها تمشي حتى جاءت السيل ، فجلست على جرفه ، ومالت
رجليها في السيل ، ثم قالت : والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من
الزوراء^(٢) . وبروى الرواة أنها توفيت فلم تدفن في نفس اليوم فاشترى
لها عوداً من الطبيب بأربعمائة دينار ظل مشتعلاً بجواربها طوال الليل^(٣)
حتى يعبق الجو من حولها بالأريج العطر .

وأكبر الظن أن ما يروى عن السيدة سكينه إنما هو رمز لترف
البيئة ، فقد كانت المدينة رجالها ونساؤها في العصر الأموي غارقين
في ألوان الترف وأصباغ النعيم .

٧

الدهر والملاهي في المدينة

وهذه الحياة المترفة لأهل المدينة في العصر الأموي اقترن بها فراغ
واسع ، إذ كانت الدولة منصرفه عنهم ، فقلما استخدمتهم في شئونها ،

(١) أغاني ١٧٢/١٤ . (٢) أغاني ١٧٢/١٤ .

(٣) نفس المصدر ١٧٨/١٤ .

لما عرفت فيهم من معارضتهم لها . وهذا الفراغ ، أو قل هذا التعطل كان لا بد لهم أن يملئوه ، وقد ملأته كثرتهم باللهو والملاهي المختلفة ، وكان الغناء على رأس هذه الملاهي ، فان أهل المدينة فتنوا به في هذا العصر فتنة شديدة ، وقد نَمَّاه لهم مواليمهم الذين كانت تستكث بهم بيوتهم ، وسرعان ما نجد في المدينة دورا خاصة بالغناء يقصد إليها الناس لسماعه . ولم يكن الغناء كل ملاهيمهم ، فقد لهوا بطيران الحمام وبالرمي على الجلاهاقات وهي قوس البندق ^(١) كما لهوا بالنرد ^(٢) والشطرنج ^(٣) . وطبيعي أن يشيع اللهو وتشيع معه الملاهي في المدينة بعامل ما كان هناك من فراغ وثراء وتحضر وترف . وقد شاع بجانب ذلك لهو من نوع آخر ، وهو نوع لا يشيع إلا بعد أن تتحضر الأمة أو المدينة من المدن ، وتترف ، فيوجد من أبنائها من يتخذون أناسا يضحكونهم ويملاً من جوهم بالسرور . وكان أشعب مضحك المدينة في هذا العصر ، وقد بدأ حياته في بيت عائشة بنت عثمان ، ويقال إنها دفعته إلى البرازين فمكث عندهم حولا ، فسألته بعد الحول عما تعلمه ، فقال لها تعلمت نصف العمل وبقي نصفه ، قالت : وما تعلمت ؟ فقال : تعلمت النشر وبقي الطي ^(٤) . وكان يعجب بأشعب أشراف المدينة وشريفاتها فكان يجلس إليهم جميعا ، ويقيم عندهم في دورهم أياما ، وله مع السيدة سكرينة نواذر كثيرة . يُروى أنها غضبت منه يوما فخلفت ليحلقة لحيته ودعت بالحجام

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي طبع المطبعة الميمنية ص ٦٤ .

(٢) أغاني طبع بولاق ١٠٢/١٧ (٣) أغاني طبع دار الكتب ٥٢/٤ .

(٤) أغاني ٨٥/١٧

فقالت له : احلق لحيتك . فقال له الحجام : انفخ شديقك حتى أتمكن منك ، فقال له : أأمرتك أن تحلق لحيتي أو تعلني الزمر ^(١) . وكان زوج سكيئة زيد بن عمرو بن عثمان بخيلا ، فكان إذا وضع الأكل وأقبل عليه بعض الناس رفعه ، وقال على بالترياق والماء الحار ، وتصادف أن صنع ذلك أياما متتالية ، ثم انصرف الضيوف يوما ، فأحضر الأكل ، وكان دجاجا ، فقال يا أشعب هل إلى إسخان هذا الدجاج سبيل ؟ فقال له أخبرني عن دجاجك هذا هل هو من آل فرعون ؟ فهو يعرض على النار غدوا وعشيا ^(٢) .

ومما يروى من فكاهاته أن امرأة قالت له : هب لي خاتمك أذكرك به ، قال : اذكريني أن منعتك إياه فهو أحب إلى ^(٣) . ويروى أيضا أن امرأة كان يتودد إليها ويدخل منزلها سألته أن يهديها شيئا فقهر فرعا ومكث شهرين لا يقرب منزلها ، ثم جاءها ذات يوم ، فأرسلت إليه قدحا مלא ماء ، وقالت : اشرب هذا من الفزع ، فقال اشربيه أنت من الطمع ^(٤) .

وهكذا كان أهل المدينة يتناقلون فكاهات أشعب ، كما كانوا يتناقلون فكاهات مضحك آخر يسمى الناضري ^(٥) . ولا شك أنهما كانا يشيعان في المدينة جوا مرحا ، كله الضحك والهزل . وكان كثير من أهل المدينة أنفسهم ومن أشرافها يصنع صنيعهما لا من إضحاك الناس ، ولكن

(٢) نفس المصدر ١٧٢/١٤

(٤) أغاني ٩١/١٧

(١) أغاني ١٠١/١٧

(٣) أغاني ٩١/١٧

(٥) أغاني ٩٤/١٧

من العناية بالفكاهة ، وماذا نريد إلى قوم فارغين حجورهم مملوءة بالمال ،
وكل ما يطلبونه مهياً لهم . روى صاحب الأغاني أن الحسن بن الحسن
ابن علي كان يعبت بأشعب أشد عبث ، وربما أراه في عبثه أنه قد ثمل
وأنه يعربد عليه ، ثم يخرج إليه بسيف مسلول ، ويريه أنه يريد قتله ،
فيجري بيدهما في ذلك كل مستمتع^(١) . ولم يكن الحسن وحده الذي
يذهب هذا المذهب من الهزل ، فقد كان أبان بن عثمان والى المدينة
لعبد الملك من أهزل الناس وأعبثهم ، وبلغ من عبثه أنه كان يحجى
بالليل ، وهو وال على المدينة ، إلى منزل رجل في أعلى المدينة له لقب
يغضب منه ، فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بلقبه ، فيشتمه
أقبح شتم ، وأبان يضحك^(٢) .

وهذا اللهو البريء وجد بجانبه لهُو ماجن ، وتلك عادة الترف
وأصحابه ، فإنهم يعمدون كثيراً إلى ألوان ماجنة من اللهُو والملاهى
ولعل أول صورة تبدو واضحة من هذا اللهُو الماجن لهُكل من يدرس
المدينة في العصر الأموي أن بعض أصحابها كانوا يشربون الخمر .
وكانوا ، على ما يظهر ، يحلون منها نوعاً خاصاً هو نبيذ التمر والفضيخ من
الزهر والرطب ، فقد روى عن حسان أنه قال في مجلس من مجالس عزة
الميلاء المغنية : « أنتم اليوم مسلون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ
من الزهر والرطب »^(٣) ويريد حسان أنهم لا يحلون إلا هذين الصنفين ،

أما خمر العنب فقد كانوا يحرمونها . وقد اعترض معاوية على مران ابن الحكم حين ضرب ابن أرتاة الشاعر في نبيذ أهل المدينة ، وقال إنه ليس بحرام ^(١) . ويظهر أن ابن أرتاة وغيره تجاوزوا النوع الذي أحلّوه إلى النوع الذي حرّموه ، فقد تلوّم ابن أرتاة أخاه لشرب النبيذ وعدم شرب الخمر ، فقال :

دع ابن سريع شرب مامات مزّة وخذها سُلَافاً حيةً مزّة الطعم
تدعك على ملك ابن سامان قادراً إذا حرّمت قراؤنا حاب الكرم
فشتان بين الحى والميت فاعتزم على مُزّة صفراء ووقهاهمى ^(٢)
وداء الخمر داء قديم ، حرّمها الإسلام ، ولكن نفرأ من المسلمين

ولم يستجيبوا إلى تحريم الإسلام لها ، فهم يروون عن شخص يسمى نعيمان ، وهو ممن شهد بدراً ، أنه شربها بعد تحريمها ، ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم جلده أربع مرات ^(٣) . وقد عثر عمر في إحدى الليالى ، وهو خليفة ، على جماعة يشربون فى المدينة ^(٤) . وحدّ فى الخمر كثيرين ، حدّ قدامة بن مظعون من أصحاب رسول الله وابنيه عبيد الله وعبد الرحمن ^(٥) . ونجد ، فى عهد عثمان ، الوليد بن عقبة واليه على الكوفة يصلى بالناس وهو سكران ^(٦) .

(١) أغانى طبع دار الكتّاب ٢٥١/٢ وانظر ٢٤٦/٢ .

(٢) نفس المصدر ١٥٦/٢ . (٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٦٨ .

(٤) الطبرى : القسم الأول ص ٢٧٤٢ وما بعدها .

(٥) ابن عبد ربه ٤٠٧/٣ .

(٦) أغانى ٢٠/١ وانظر ابن عبد ربه ٤٠٦/٣ .

ولكن هذه كلها حوادث فردية ، فقد كان الناس في صدر الإسلام يحافظون على وصايا الدين وتعاليمه ، غير أننا لا نمضي بعد ذلك حتى نجدهم ينفكون قليلا قليلا من هذه الوصايا والتعاليم ، ولعل من أهم الأسباب في ذلك أن المدينة كانت خليطا من الناس عربا وموالي ، فكان الآخرون يقبلون على الخمر حزنا على حياتهم القديمة ، والاولون يقبلون عليها فرحا بحياتهم الجديدة .

ويعجب الإنسان إذ يرى للمدينة في عصر معاوية شاعرا يعنى بوصف الخمر ، وهو ابن أرمطة الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وقد عقد له صاحب الأغاني ترجمة ذكر فيها مجونه وعشه وطلبه للخمر ، كما ذكر ندماءه من قریش وعلى رأسهم عبد الرحمن بن الحكم^(١) ، والوليد بن عثمان ، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان^(٢) ، ويقول أبو الفرج : « كان كل من قدم من ولادة بني أمية وأحداثهم ممن يصيب الشراب يدعو ويناديه »^(٣) .

وهذا تطور واسع فولادة المدينة من أمثال الوليد بن عتبة ، والي معاوية ويزيد ، يشربون الخمر ، ومن لم يشرب الخمر المحرمة شرب النبيذ ، وكان عبدالله بن جعفر سيد بني هاشم يشربه^(٤) . ونجد في الأغاني جماعة من بني هاشم يدعون ابن عائشة المغنى إلى نزهة ، وزاهم يأكلون ويشربون^(٥) . وكان إبراهيم بن هشام المخزومي والي المدينة لهشام بن

(١) أغاني ٢٥١/٢ (٢) نفس المصدر ٢٤٥/٢ (٣) نفس المصدر ٢٤٧/٢

(٤) نفس المصدر ٢١٢/٤ (٥) أغاني ٢٢٩/١

عبد الملك ينادم ابن عائشة ويشرب هو ورققاؤه معه^(١) . واشتهر الحسين بن الحسن بن عليّ بالشراب^(٢) ، ونجد ابن هرمة يكتب إليه في طلب النبيذ^(٣) . وابن هرمة أصله من المدينة ، وقد أدرك الدولة العباسية ، وكان مستهترا بالنبيذ ، ومن شعره فيه :

لا نبغى ابن البعير وعندنا ماء الزيب وناطف المعصار^(٤)
وله عبث كثير في هذا الجانب يرويه صاحب الأغاني في ترجمته الخاصة به . وكأن شعر الخمر أو الخريات التي نسبها الناس إلى العصر العباسي ، وجعلوها إحدى مميزاته ، ليست مقصورة عليه ، فقد عرفت الخريات قبله ، لا عند شعراء الجاهلية من أمثال الأعشى ، ولا عند شعراء العصر الأموي المسيحيين من أمثال الأخطل ، بل عند شعراء المدينة المسلمين في العصر الأموي من أمثال ابن أرتاة وابن هرمة ، ومن شعر الأخير فيها :

أسأل الله سكرة قبل موتي وصياح الصبيان ياسكران^(٥)
ونجد بجانب ابن أرتاة وابن هرمة شاعراً من الأنصار يسمى السريّ بن عبد الرحمن كان يدمن على الشراب ، وقد ذكر ندماءه في شعره وهم عمير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف ، وجبير بن أيمن وخالد بن أبي أيوب الأنصاري ، فقال وغنى في قوله :
إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرا ونازعت الزجاجة خالدا

(٢) أغاني ٩٨/٦ .

(١) أغاني ٢٣٦/٢ .

(٣) نفس المصدر والصفحة . (٤) نفس المصدر ٣٧٢/٤ .

(٥) نفس المصدر ٣٩٧/٣ .

أمنت بإذن الله أن تقرَّع العصا وأن يُسبَّهوا من نومة السكر راقداً^(١) ،
ويذكر صاحب الأغاني من نيازي المدينة نباذا يسمى جوناك ،
كان يعيش بها في أواخر هذا العصر^(٢) . وأكبر الظن أنه كان يقدم
النبيذ والخمر في دور الغناء على نحو ما هو معروف اليوم . وقد كان مما
يساعد على انتشار ذلك في المدينة أن كثيراً من خلفاء بني أمية كانوا
يشربون^(٣) ، ولما أقاموا الحد في الخمر . ويروى الرواة أن عمر بن
العزير أقامه على الواصي ، وهو الصلت بن العاص بن وابصة بن خالد بن
المغيرة المخزومي ، فأخذته العزة بالإثم وتنصر ولحق ببلاد الروم^(٤) .
كان في المدينة أثناء العصر الأموي خمر ومجون ، وأكبر الظن أنه
كان للجوارى اللاتي امتلأت بهن المدينة أثر في ذلك ، فقد كثرن في
بيوت الأشراف والنبلاء ، وكان كثير منهن أجمل من المرأة العربية ،
كما كان كثير منهن ميالا إلى التهنك والخلاعة ، وماذا يهمهن وقد
أصبحن رقيقا في بلد أجنبي ؟ إنهن يرتكبن كل ما تسوله لهن نفوسهن .
ونجد إثم الترف يتبع ذلك كله . ويخيل إلى الإنسان أنه لم تبق آفة من
آفات الترف وما يجر إليه من الإثم إلا وعرفت في المدينة ، فقد غرق
بعض أهلها في الخمر ، كما غرق آخرون في ضروب مختلفة من الفساد
والفسق^(٥) .

(١) أغاني طبع بولاق ١٨/٦٥—٦٧ (٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٧٣/٤

(٣) التاج للجاحظ ص ١٥١ . (٤) أغاني طبع دار الكتب ١١٦/٦ .

(٥) انظر أغاني طبع بولاق ١٣/١٥٠ ، والتاج للجاحظ ص ١٣١ والأغاني

٣٤١/٧ ، ٢٤٤/٤ وكذلك انظر ٢٧٠/٤—٢٧٣ ، ١١٩/١٧

الفصل الثاني

الغناء في المدينة

١

الغناء في المدينة قديم

عرف العرب قديماً بمحبتهم للغناء ، وهناك نصوص كثيرة متفرقة في كتب التاريخ والأدب تشهد بأنهم كانوا يغنون من المهد إلى اللحد ، إذ كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء^(١) ، كما كانوا ييكون موتاهم بالنواح^(٢) ، وهو ضرب حزين من الغناء . وقد اشتهروا بحمدائهم للإبل في مسيرهم وترحالهم ، كما اشتهروا بأغانهم في الحروب وأشعارهم الحماسية^(٣) ويظهر أنهم كانوا يستخدمون الغناء في عباداتهم ، ففي القرآن الكريم : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، والمكاء الصغير والتصدية التصفيق . ونفس الحج في الإسلام نجد فيه التلبية والتهليل . وأكبر الظن أن يهود المدينة استخدموا الغناء في عباداتهم ، كما استخدموه عند سقي الزروع وفي الحصاد^(٤) . ويقول ابن عبد ربه : « إنما كان أصل

(١) المسعودي ٩٥/٨ .

(٢) أغاني ٨٩/١٩ ونواح الخنساء على أخيها وأبيها معروف ، وكذلك نواح هند بنت عتبة على أبيها وأخيها وعمها ، انظر أغاني ٢١٠/٤ .

(٣) الطبري : القسم الأول ص ١١١٦ .

(٤) Farmer, A History of Arabian Music (London 1929) p. 17 .

الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ^(١) . ومعنى ذلك أن المدينة كانت إحدى مواطن الغناء المهمة في العصر الجاهلي ، ومن هنا لا يكون غريباً أن نسمع بعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً استقبله أهلها من الأنصار استقبالا حافلا ، وقد ألّف نساؤهم في أثناء ذلك ما يشبه الجوقات إذ كن يغنين جماعات بالدف والألحان ^(٢) . وفي طبقات ابن سعد أن الصحابة كانوا يتغنون ببعض الرجز في أثناء حفرهم للخنندق في وقعة الخندق المعروفة ، وأن النبي نفسه كان يرفع صوته ببعض الشعر ^(٣) . ويروى صاحب الأغاني أن بني النضير لما أجلاهم النبي عن المدينة ، فخرجوا يريدون خيبر ، كانوا يضربون بالدفوف وي زمرون بالمزامير ^(٤) .

وهذه كلها نصوص تؤكد أن الغناء كان شائعاً في المدينة ، وأن نساء العرب كن يشتركن فيه على نحو ما صنع نساء الأنصار في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم . ونجد بجانب هذه النصوص نصوصاً أخرى تدل على أن القيان عُرفن في المدينة أثناء العصر الجاهلي . ومعروف أن القيان كن أجنبيات ، وأنهن استخدمن في الغناء أثناء العصر الجاهلي

(١) ابن عبد ربه ٣/ ٢٤١ . (٢) إحياء العلوم للغزالي طبع بولاق ٢٥٤/٢

(٣) طبقات ابن سعد ، الجزء الثاني ، القسم الأول ص ٥٠ .

(٤) أغاني ٣/ ٣٨ .

في مدن الجزيرة العربية ، وفي بعض القبائل (١) . ويرى ليال أنهم
 كن من الفرس أو من اليونان من سوريا ، ويقول إنهم كن يغنين
 بالعربية ، وربما كن يغنين بلهجة أجنبية ، ويذهب ثون كريم الى رأى
 أبعد من ذلك ، فيقول إنهم كن يغنين بلسانهم اليوناني أو الفارسي
 لا باللسان العربي (٢) . وليس بين أيدينا ما يؤيد قول ليال من أنهم
 كن يغنين بلهجة أجنبية ، فضلا عما يقوله ثون كريم من أنهم كن
 يغنين بلسانهم الأجنبي ، بل على العكس تؤكد جميع النصوص التي
 رويت في الأغاني وغيره أنهم كن يغنين باللسان العربي ، ففي أخبار
 النابغة أن أهل المدينة أمروا إحدى القيان أن تغنيه بشعر له ، كان فيه
 إقواء ، فعرف موضع خطئه ولم بعد إليه (٣) . وطبيعي أن تكون هذه
 القيمة قد تعلمت العربية وأحسنتم لهجتها حتى استطاع النابغة أن يظن
 إلى موضع خطئه . وفي أخبار عمرو بن الإطنابة الخزرجي أنه دعا
 بشرابه وقيانه فتغنين له بقوله :

عللاني وعللا صاحبيًا واسقياني من المروقي ربيًا

إن فينا القيان يعزفن بالد فلفتياننا وعيشا رخيًا (٤)

ويقال إنه كان في المدينة دار للبغاء اتخذها عبد الله بن أبي
 وجلب إليها ستاً من الإماء ، وفيهن وفيه نزل قوله تعالى «ولا تنكرهاوا

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي المطبعة الثانية ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب فارمر السابق ص ١٢ وما بعدها .

(٣) أغاني طبع بولاق ١٦٤/٩ . (٤) نفس المصدر ١٢١/١١ .

فتياتكم على البغاء،^(١) وأكبر الظن أنهم كن يغنين، ويحترفن الغناء .
وينبغي أن نعرف أنه لم تكن هناك قواعد مرسومة للغناء في العصر
الجاهلي ، فهو لاء المغنون من قيان أو غير قيان لم يكونوا يتبعون نظاماً
خاصاً في غنائهم ، بل كان كل يغني حسب شعوره وعواطفه وما يريد
من تأثير على سامعيه ، إذ كان العرب لا يزالون أميل إلى الفطرة في
حياتهم وفنونهم .

ونحن نرى من كل ما سبق أن الغناء كان شائعاً في المدينة منذ العصر
الجاهلي ، وأغلب الظن أنه كانت هناك دور خاصة به ، فقد كان القوم يشغفون
بالغناء ، وكان يوجد في حياتهم العامة ، كما كان يوجد في حياتهم الخاصة .

٢

الغناء في المدينة أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لم تنقطع المدينة عن الغناء في عصر الرسول والخلفاء الراشدين
وإن كانت لم تسرف فيه ، إلا أنها على كل حال كانت تأخذ منه بنصيب ،
وهناك أحاديث كثيرة تؤكد أن النبي لم يكن يحرم الغناء ، بل على
العكس لعله كان يبيحه ، فقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت ، وقال أيضاً : « الله أشد أذناً للرجل
الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته ، وقال في معرض

(١) انظر تفسير الزمخشري (الكشاف) في سورة النور آية ٢٣ .

المدح لداود عليه السلام: «إنه كان حسن الصوت في النياحة وفي تلاوة الزبور»^(١)، «وما أثر عنه أيضاً أنه قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وقد استمع إلى أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن فأعجب به، وقال: لقد «أوتى مزماراً من مزامير آل داود»^(٢).

لم يكره النبي أن يؤدّي أبو موسى الأشعري وغيره القرآن بتطريب في أصواتهم. وهو كذلك لم يكره هذا التطريب في الأذان، بل لقد كان يدعو إليه، ولسكن في صورة بسيطة بحيث لا يخرج إلى التلحين الموسيقي وما يقترن به من معازف، فإن النبي كان يكره أن يتصل القرآن بمظهر من مظاهر الوثنية، ومن هنا فصلوا بين الترنم بالشعر فسموه غناء، والترنم بالقرآن فسموه تغبيراً^(٣).

على أنه ليس معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم الغناء بالشعر، فقد روى أنه سأل عائشة في زواج بعض الأنصار: «هل أهديتم الفتاة إلى بعلمها؟ قالت نعم، قال فبعثتم معها من يغني؟ قالت لا، قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل؟!»^(٤)، وروى أيضاً أنه دخل بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين فسمع إحداهن تغني بما معناه: «وفينا نبي يعلم ما في غد»، فقال صلى الله عليه وسلم: «دعي هذا وقولي ما كنت تقولين»^(٥). وروى ابن عبد ربه أنه مر بجارية وهي تغني:

(١) الغزالي ٢/٢٤٩. (٢) نفس المصدر ٢/٢٧٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٦. (٤) ابن عبد ربه ٣/٢٣١.

(٥) زالي ٢/٢٧٧.

هل على ويحكم إن لهوت من حرج

فقال صلى الله عليه وسلم لا حرج إن شاء الله ^(١) . وهناك حديثان يرويان عن عائشة ، وهما يدلان على عدم كراهية النبي للغناء ، أما الحديث الأول ففيه أن أبا بكر دخل عليها في أيام منى ، وعندها جاريتان تدفغان ، وتضربان ، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بشوبه ، فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعمهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد ^(٢) . وأما الحديث الثانى فتروى فيه عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان بغناء بُعات ، فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، فدخل أبو بكر ، فانتهرهما ، وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : دعمهما ^(٣) .

وهذه كلها أحاديث تؤيد أن النبي لم يكن يحرم الغناء ، أما ما روى من أنه أمر بقتل قينتين يوم فتح مكة ، وهما قينتا ابن خطل ، فإن ذلك يرجع إلى أنهما كانتا تغنيان بهجائه ، وقد فرت إحداهما ، وقتلت الأخرى ^(٤) . لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما إذن لأنهما مغنيتان ، وإنما أمر بقتلهما لأنهما كانتا تغنيان بشعر فيه هجاء له وللإسلام . ولعل مما يدل على عدم نهيه عن الغناء ، وأنه لم يكن يدعو ضده ، أننا نجد الأعشى حينما يفد عليه ليدحه يرصدهر جال قریش حتى إذا مر بهم تعرّضوا

(١) ابن عبد ربّه ٢٣١/٣ . (٢) غزالي ٢٥٤/٢ .

(٣) غزالي ٢٥٥/٢ . (٤) ابن هشام ٥٢/٤ .

له قائلين أين أردت يا أبا بصير؟ قال : أردت صاحبكم لأسلم ، فقالوا إنه ينهاك عن خلal ، ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ، ولك موافق ، فلما سأله عن هذه الخلال ، ما هن ؟ قال أبو سفيان بن حرب ، الزنا والقمار والربا والخمر ^(١) ، ولم يذكر الغناء بين هذه الخلال ، ولو كان النبي حرمه لذكره حتى يردّ الأعشى ، إذ كان مغنيا يغني أشعاره على الصنج ولذلك سمي صناجة العرب ^(٢) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء ، ولا كان يدعو إلى نبذه . أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فانما جاء متأخراً أو متأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمر وابن مسعود ^(٣) . وهكذا أخذ الناس مع مر الزمن يختلفون في الغناء وفي إباحته وتحريمه . ويقول ابن عبد ربه : « اختلف الناس في الغناء فأجازته عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق » ^(٤) . وقد أخذ رأى أهل العراق يسود في العصور المتأخرة وخاصة عند المتشددین ، وقد عقد الغزالي فصلاً طويلاً في الإحياء دلل فيه من وجوه كثيرة على إباحته ، وأنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس ^(٥) .

(١) أغاني طبع دار الكتب ١٢٥/٩ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ١٠٩/٩ وانظر Nicholson : A Literary History of Arabs, p. 133.

(٣) غزالي ٢٦٣/٢ وانظر ابن عبد ربه ٢٣١/٣ حيث تجد سعد بن أبي وقاص

يتغنى وهو محرم . (٤) ابن عبد ربه ٢٣٠/٣ (٥) غزالي ٢٤٨/٢

على كل حال لم يكن الغناء محرماً في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ،
 وإذا تركنا عصره إلى عصر أبي بكر وعمر وجدنا المدينة مشغولة بالحروب
 والفتوح ، وقد تم لها الغلب على الإمبراطورية الفارسية وعلى كثير
 من أطراف الإمبراطورية الرومانية ، ولا نكاد نسمع في عصر أبي بكر
 شيئاً عن الغناء والمغنيين سوى ما ذكره الطبري والبلاذري من أن
 المهاجر لما أخضع اليمن قطع أيدي الثبجساء الحضرمية وهند بنت يامين
 اليهودية ، ونزع أسنانهما ، حتى لا تغنيا ، ولم يصنع ذلك لأنهما كانتا
 تغنيان فقط ، وإنما لأنهما كانتا تغنيان أغاني ، فيها هجاء للمسلمين وذم
 للإسلام (١) .

وقد مر بنا في حديثي عائشة أن أبا بكر كان ينكر الغناء عندها ،
 ويظهر أنه كان يكرهه ، وكذلك كان يكرهه عمر ، وربما كان ذلك
 أحد الأسباب التي جعلت الغناء لا يشيع في عصرهما . روى ابن الفقيه
 أن عمر خرج يوماً فإذا جوار يضربن بالدف ، ويغنين ، ويقولن :

تغنين تغنين فلهو خلقتن

فجعل عمر يضرب رءوسهن بالدرة ويقول : كذبتن ، كذبتن ، فأخزي
 الله شيطاناً رمى هذا إليكم (٢) . على أن عمر ربما لم يضربهن للغناء من
 حيث هو ، وإنما ضربهن لدعوتهن إلى الله ووقوهن «للهو خلقتن» . وقد
 روى أنه استمع إلى ابنه عاصم وآخر ، وهما يغنيان غناء النصب ،
 فقال : أعيدا علي ، فأعادا عليه ، فقال لهما : أتتما كحماري العبادي قيل
 له : أي حماريك شر ؟ قال ذا ثم ذا (٣) .

(١) الطبري : القسم الأول ص ٢٠١٤ والبلاذري ص ١٠٢ .

(٢) ابن الفقيه ص ٤٣ . (٣) ابن عبد ربه ٣/٢٣١ .

ومهما يكن فإن عمر كان متشدداً كسلفه ، فلم يتسع الغناء في عصره ولا في عصر أبي بكر ، إنما اتسع ، أو قل أخذ يتسع ، في عصر عثمان فقد اكتظت المدينة بجماهير الأسرى التي أخذت تتعرب ، كما اكتظت بالكنوز والأموال العظيمة ولم تظهر نتائج ذلك في عصر عمر ، وإنما ظهرت في عصر عثمان ، إذ هدأت الفتوح ، وأخذ العرب يستجمعون منها ، وقد حاولوا أن يهينوا لأنفسهم شيئاً من الحضارة التي رأوها في البلاد الأجنبية . تحولت معيشة العرب إذن ، فقد أصبحت المعيشة الفخمة مألوفاً لا في العراق وسوريا ، بل في المدينة نفسها ، إذ أخذت تتحضر بألوان الحضارة التي رآها العرب في الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية ، فقد جاءوا بها إليها ، كما جاء بها الأسرى من فرس ومصريين وشاميين . وقد بنى أشرف المدينة القصور على ما قدمنا ، وأخذت هذه القصور ، منذ عثمان ، تكتظ بالمغنين الذين جلبهم أهل المدينة من قرش والأنصار إليها ، فكل شخص كان يأتي لنفسه بمغن أو مغنية ، وأحياناً يأتي بجوقة من المغنين أو المغنيات . روى صاحب الأغاني أن عبد الله ابن عامر والى عثمان على البصرة اشترى إماء صناعات وأتى بهن المدينة فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن وأخذوا عنهن ^(١) . ومن عرف بالغناء من الأجانب في عصر عثمان طوَّيس المغنى ^(٢) . وهُوَ أول من غنى بالعربية في المدينة من الموالي وألقى الخنث بها ^(٣) .

(٢) ابن عبد ربه ٢٤١/٣ .

(١) أغاني ٣٢١/٨ .

(٣) أغاني ٢٧/٣ .

ومن معنى هذا العصر قند ، وهو مولى لسعد بن أبي وقاص ، ويُروى أنه ضربه فخلعت عائشة أم المؤمنين لا تكلمه ، حتى يرضى عنه قند ، فاسترضاه (١) .

وهكذا أخذت المدينة تستعد - بفضل هؤلاء الموالى الأجانب - لأن تصبح أهم مركز للغناء في العصر الأموي . وتوقفت هذه الحركة قليلاً في عصر علي لانشغال أهل المدينة بالحرب بين علي ومعاوية . ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت ، فأقبلت المدينة على الغناء ، تسترد منه ما فاتها ، وقد حاولت حينئذ أن تشرب ما في السكاس حتى الثمالة .

٣

المدينة أهم مراكز الغناء في العصر الأموي

من المعروف أن الحجاز غنى بالغناء في العصر الأموي عناية بالغة فقد طلبه أشرافه منذ عصر عثمان واهتموا به اهتماماً شديداً ، حتى أصبح إقليمهم أشهر الأقاليم العربية به . وفي الأغاني نصوص كثيرة تدل على أن أهل العراق لم يكونوا يعجبون بالغناء (٢) ، مع أن أحد وعاظهم ، وهو الحسن البصري ، أثر أنه قال : نعم العون الغناء على طاعة الله ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسي صديقه (٣) . أما الشام فإنها

(١) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

(٢) انظر الأغاني ٧١/١ وكذلك ٣٣٩/٦ .

(٣) ابن عبد ربه ٢٣٢/٣ ولم يعرف للعراق مغن مشهور في هذا العصر سوى

حنين ، انظر أغاني ٣٤١/٢ وما بعدها .

أيضاً لم تعن بالغناء في أوائل هذا العصر ، إذ كان معاوية لا يعجب به على ما يظهر . وقد اضطر عبد الله بن جعفر أن يقدم له مغنياً على أنه شاعر^(١) . وأول من اتخذ الغناء وأوى المغنين من بني أمية يزيد بن معاوية ، فقد طلبهم من المدينة ، وذهب إليه سائب خاثر^(٢) مولى عبد الله بن جعفر .

لم تعن الشام بالغناء في أول الأمر ، واستمرت العراق لا تعنى به طوال هذا العصر إلا قليلاً . وأما الحجاز فقد غرقت فيه إلى ذنبا ، وكانت المدينة أسبق مدن الحجاز إلى العناية بالغناء ، فقد رأينا أنها أخذت تعنى به منذ عصر عثمان ، إذ ظهر طويس وقند وغيرهما . أما ما يزعمه المسعودي من أن الغناء لم ينم في المدينة ومثلها مكة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية^(٣) فغير صحيح ، لأن النصوص التي تحت أيدينا تنسكه بالنسبة للمدينة على الأقل .

ونحن لا نسمع عن مغن أجنبي في مكة في أثناء عصر الخلفاء الراشدين ، ولعل في هذا ما يؤكد أن المدينة سبقت إلى العناية بالغناء ، وهذا طبيعي ، لأنها هي التي سبقت إلى الثراء من الفتوح ، وهي أيضاً التي سبقت إلى اتخاذ الرقيق ، وقد كانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ، فأسرعت إليها هذه الموجة من موجات الترف .

(١) أغاني ٣٢٣/٨ ، ولا نعرف للشام مغنيا مشهوراً قبل أبي كامل الغزيلي

مغني الوليد بن يزيد بن عبد الملك انظر أغاني طبع دار الكتب ٩١/٧ .

(٣) المسعودي ١٥٧/٥ .

(٢) أغاني ٣٢٤/٨ .

ومع ذلك فإن مكة لم تلبث أن عنيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه ، فظهر عندها ابن مسجح^(١) وتلاميذه . والسكن ينبغي أن يعرف أن المدينة ظلت هي المركز الأول في الحجاز للغناء والمغنين وتخرجهم . ولعل مما يدل على ذلك دلالة واضحة أن نجد خلفاء دمشق يطلبون مغنيهم غالبا من المدينة ، بل إننا نجد مكة نفسها تطلب مغنيها من المدينة^(٢) .

ومن المؤكد أن المدينة امتازت في الغناء هذا الامتياز بسبب كثرة الموالى فيها منذ عصر الخلفاء الراشدين ، وساعد على ذلك أن أشرفها ونبلاءها كانوا يطلبونه ، بل نرى منهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين ، على نحو ما هو معروف عن عبد الله بن جعفر سيد بني هاشم ، فقد كان الناس يؤمون داره لسماع من بها من المغنيات والمغنين^(٣) .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وكان يعجب بالغناء ، حتى ليقول صاحب الأغاني إن الغناء في المدينة لا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم^(٤) . وقد استمرت المدينة مشهورة بذلك حتى العصر العباسي إذ نرى أبا يوسف يقول لبعض أهلها : « ما أعجب

(١) انظر أغاني ٢٧٦/٣ وما بعدها .

(٢) فابن سريج أهم مغنيها بعد ابن مسجح أصله من المدينة . انظر ابن عبد ربه

٢٤٢/٣ حيث يجعله تلميذ الطويس وانظر أغاني ٢٤٩/١ وكذلك ٢٥١/١

حيث يجعله مولى لعبد الله بن جعفر . وكذلك كانت مكة تطلب بعض المغنيات من

المدينة ، انظر أغاني ٣٢٥/٨ .

(٤) أغاني ٢٢٤/٨ .

(٣) المسعودي ٣٨٥/٥ .

أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني ! ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها ^(١) . ويروى أبو الفرج أن العقيق كان إذا سال ، وأخذ المغنون يلقون فيه أغانيهم ، لم تبق في المدينة مخبأة ، ولا شابة ، ولا شاب ، ولا كهل ، إلا خرج يبصره ^(٢) .

وقد أخذ المغنون يؤلفون طبقة مميزة في هذا العصر ، ولا نعرف أكانت لهم نقابة أو لا ، سكن على كل حال كانت لهم جماعة مميزة بسبب رقي فنههم ، لا بسبب احتقار العرب لصنعتهم ، فإننا نجد كثيراً من العرب يطلبون الغناء ، وقد برع فيه أثناء هذا العصر مغن عربي معروف هو مالك بن أبي السمح الطائي . وقد حدث حسين بن دحمان الأشقر قال : كنت بالمدينة ، فخلا لي الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى :

ما بال أهلِكَ ياربابُ خُزُرًا كأنهم غضابُ

قال : فإذا خوخة قد فتحت ، وإذا وجه قد بدا ، تتبعه لحمة حمراء ، فقال : يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ، ثم اندفع يغنيه ، فظننت أن طويسا قد نشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله من أين لك هذا الغناء ؟ فقال : نشأت ، وأنا غلام حدث ، أتبع المغنين وأخذ عنهم ، فقالت لي أمي : يا بني إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء ، واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء . . فقلت له : فأعد جعلت

غداءك فقال : لا ، ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ، وإذا هو مالك بن أنس ، ولم أعلم^(١) . وحدث غير ابن دحمان أنه رأى مالكا يغنى في عُرْس ابن حنظلة الغسيل^(٢) .

وهذا دليل واضح على أن العرب كانوا يجلسون الغناء في هذا العصر ، ويجلسونه . وقد أخذ يظهر فيه بوضوح عنصر الرجال من الموالى الأجانب ، ولم يكن هذا العنصر معروفا في العصر الجاهلي ، إنما كان المعروف عنصر القيان ، أما في هذا العصر فكان القيان ، وكان بجانبهم الرجال من الموالى . وقد تميزوا أول الأمر بأنهم كانوا من المخنثين^(٣) ، وهى جماعة من الرجال كانت تذهب مذهب النساء ، فتلبس ملابسها ، وتقلدها في عاداتها . وأول محترف للموسيقى والغناء فى المدينة كان من هذه الجماعة ، وهو طوييس^(٤)

على أن موجة الغناء لم تلبث أن اتسعت ، فشملت جماعات أخرى من الموالى غير المخنثين ، كما شملت جماعات من العرب أنفسهم ، بحيث نرى عمر بن عبد العزيز ، وهو وال على المدينة ، يصنع مجموعة من الأصوات يسجلها له صاحب الأغاني^(٥) . وهكذا مع مضى الزمن أصبح الغناء فى المدينة عملا شريفا بحيث نجد كثيراً من العرب والموالى الممتهزين

(١) أغاني ٢٢٢/٤ . (٢) ابن عبد ربه ٢٣٣/٣ وانظر أغاني ٢٣٨/٢ .

(٣) نفس المصدر ٢٧٣/٤ . (٤) أغاني ٢٧/٣ . (٥) أغاني ٢٥٠/٩ .

يقبلون عليه، فكان مالك بن أبي السمح الطائي يحترف الغناء، وكان البُرْدان، وهو مولى كان يتولى السوق في المدينة ويحكم بين الناس، يحترف الغناء كذلك، وكان معدلاً مقبول الشهادة^(١). وكان دحمان صالحاً كثير الصلاة، وهو من مغني المدينة، ويُروى أنه شهد، عند عبد العزيز ابن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي وهو يلي القضاء، لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة، فأجازها وعدله، فقال له العراقي: إنه دحمان! قال: أعرفه، ولو لم أعرفه لسألت عنه، قال: إنه يغني ويعلم الجوارى الغناء! قال: غفر الله لنا ولك، وأئنا لَا يَتَغَنَّى،^(٢).

وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس يتغنى، وكان قاضي المدينة ابن حنطبة يتغنى، وكان والي المدينة عمر بن عبد العزيز يتغنى. ويظن الإنسان أنه لم يبق في المدينة أحد إلا وكان يتغنى، فإن لم يتغنَّ كان يستمع إلى الغناء، ويعجب به.

اندفع الموالي وغير الموالي في المدينة من رجال ونساء يتغنون، واشتهر من الرجال كثيرون. وقد عقد لهم صاحب الأغاني فصولاً طويلة في كتابه، واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم وأصواتهم، وعلى رأسهم طُورَيْسُ وسائب خاثر والدلال ومعبود وابن عائشة ومالك ابن أبي السمح الطائي ويونس الكاتب ودحمان وعطرد، وغيرهم كثير.

أما النساء فكان علي رأسهن عَزَّة المَيْلَاء ، وكان لها دار يقصدها
 أهل المدينة لسماع الغناء . وبلى عزة جميلة ، وكان لها الدار الكبرى
 للغناء في المدينة . ويروى صاحب الأغاني أنها خرجت تحج ، ويصف
 موكب حجها . ويدل وصفه دلالة واضحة على مدى ما بلغته المدينة في
 هذا العصر من ازدهار فن الغناء بها ، فقد خرجت جميلة في مهرجان
 كبير يضم مجموعة من شعراء المدينة على رأسها الأحوص ، كما يضم
 مجموعة من المغنين والمغنيات ، أما المغنون فكان علي رأسهم هيت والدلال
 وطويس وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، وفند ، ورحمة ، وهبة الله ، ومعبد
 ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير ،
 وأما المغنيات فكان علي رأسهن الفرهة وعزة الميلاء وحبابة
 وسلامة وخليفة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبل ولذة العيش
 وسعيدة والزرقاء . وقد كان في ركبها لأهل المدينة من القيان زهاء
 خمسين قينة . ولما دنا هذا الركب من مكة استقبله مغنوها وعلي رأسهم
 ابن مسجج وابن سريج والغريض وابن مُحَرِّز ، كما استقبله
 شعراؤها ، وعلي رأسهم عمر بن أبي ربيعة .

ويتهم أبو الفرج هذا الخبر ^(١) ، ومع ذلك فهو يرويه عن يونس
 الكاتب ، وهو أول من ألف في الغناء ، وقد كان أحد شهود هذا
 المهرجان ، فلا مفر إذن من قبوله . ولا ريب في أنه يصور مبلغ

ها وصلت إليه المدينة من أهمية هذا العصر في فن الغناء ، فإن أصحابه يعدون فيها بالعشرات رجالا ونساءً . وقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يغنون الناس في المدينة بدون ستارة تفصل بينهم ، فصاحب الأغاني يروى أن جميلة غنت عبد الله بن جعفر وجماعة كانوا معه بدون ستارة ، إذ ظهرت أمامهم هي وجوارها^(١) ، وكذلك يروى أن عزة الميلاء غنت في بيت سُكينة بنت الحسين أمام الجمهور بدون ستارة^(٢) ، ويظهر أن الستارة كانت توضع إذا اجتمع الرجال والنساء للسمع ، ففي أخبار عائشة بنت طلحة أنها أقامت حفلا دعت فيه نبيلات قريش ونبيلاءها ، وغنت في هذا الحفل عزة الميلاء ، وكانت هناك ستارة تفصلها هي والنساء عن الرجال^(٣) . وواضح أن الستارة اتخذت هنا من أجل النساء ، لا من أجل عزة .

٢

الغناء في المدينة بصبح فناء مصطلحاته وتقاليده

وهذه الجماعات السكثيرة التي احترفت الغناء لم تلبث أن حولته إلى فن له مصطلحاته وتقاليده . وكان أول من حاول السير في هذه الطريق طُوسَيْسُ شَيْخِ الْمَغْنِينِ فِي الْمَدِينَةِ ، فقد قال صاحب الأغاني : إنه أول من

(١) أغاني ١٩٧/٨ . (٢) أغاني طبع بولاق ١٣٢/١٥ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٥٧/١٠ .

غَنَّى الغناء المتقن، وقال أيضا : إنه أول من صنع الهَزَج والرمَل في الإسلام ^(١) . ولا ريب في أن هذا الغناء المتقن الجديد كان يخالف الغناء العربي القديم ، الذي كان يعتمد في أغلب الأمر على عروض الشعر وذوق المغنى ، وقبلما ذهب فيه المغنون إلى التلحين والتوقيع توقيعاً يقوم على مصطلحات خاصة . ويقول ابن السكبي إن غناء العرب قديماً كان على ثلاثة أوجه : النَّصَب والسَّناد والهَزَج ، فأما النصب فهو أغاني الركبان والقينات ، وأما السناد فهو أنغام ثقيلة ، وأما الهزج فهو غناء خفيف ^(٢) .

وواضح من كلام ابن السكبي أنه يريد بالسناد والهزج الغناء الإسلامي الحديث ، أو كما يسميه صاحب الأغاني الغناء المتقن ، فالسناد هو الغناء الثقيل ، والهزج ضرب من الغناء الخفيف . وقد رأينا أبا الفرج ينسب الهزج إلى طويس ، وقد نسب الغناء الثقيل إلى سائب خاثر ، فقال إنه أول من غنى بالعربية الغناء الثقيل ^(٣) ، وروى بجانب ذلك أن عزة الميلاء أول من غنت من النساء الغناء الموضع ^(٤) ، وهو يقصد هذا الغناء الجديد الذي يسميه تارة المتقن وتارة الموضع .

وقد أخذ هذا الغناء الموضع ينوع إلى ستة ضروب تجدها منتشرة في أخبار مغنى المدينة لهذا العصر ، وهى : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، ورمل ، وخفيف الرمل ، وهزج . وهى ضروب ترجع

(٢) المسعودى ٩٣/٨ .

(١) أغاني ٢١٩/٤ .

(٤) أغاني ١٣/١٦ .

(٣) أغاني ٣٢٢/٨ .

إلى نوع النقرات، فقد تكون ثقيلة ، والثقيلة على ألوان ، وقد تكون خفيفة ، والخفيفة على ألوان أيضا . وقد ميّزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع، فقالوا ثقیل أول بالوسطى ، وخفيف ثقیل بالسبابة ، وخفيف رمل بالنصر ، أو يقولون رمل بالسبابة في مجرى النصر ونحو ذلك مما نقرؤه في الأغاني منسوبا إلى معنى هذا العصر (١) .

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن هذه المصطلحات التي تمت لفن الغناء وأصبح بها فنا قائما له رسومه إنما تكونت تحت أيدي الموالى ، فهل معنى ذلك أن الغناء العربي تحول هذا التحول تحت تأثير نظريات جديدة أتته من الخارج ؟ .

هناك نصوص كثيرة في الأغاني تثبت صلة واضحة بين هذا الغناء العربي وبين الغناء الأجنبي ، فأبو الفرج يذكر أنه كان هناك إماء صَنَاجَات أحضرهن عبدالله بن عامر والى البصرة في عصر عثمان ، وكان لهن يوم في الأسبوع يغنين فيه الناس (٢) ، وربما تأثر بهن طويس ، وربما تأثر بمغنين من الفرس لم يذكرهم أبو الفرج . على أنه ذكر مغنيا فارسيا ، يسمى نشيطا ، اشتراه عبدالله (٣) بن جعفر ، وكان يغنى في المدينة الغناء الفارسي ، ويقول إن سائب خاثر أخذ عنه غناه .

(١) في مسالك الأبصار نص طريف نزلت فيه ألقاب الأنغام والأصوات التي في كتاب الأغاني على ألقاب المحدثين في عصر صاحب الكتاب وأنغامهم من أصبهان وزيلكفند وزنكلوراهوى وحسيني . انظر المسالك ، نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية ، الجزء الأول من المجلد السادس الورقة ٢ .

(٢) أغاني ٣٢١/٨ . (٣) نفس المصدر والصفحة وانظر نفس المصدر ٣٨/١ .

الفارسي ، كما أخذ هو عن سائب خاثر الغناء العربي ^(١) . وفي ترجمة عزة يقول أبو الفرج إن نشيطا وسائب خاثر قدما المدينة ، فغنيا أغاني بالفارسية ، وأخذت عزة عنهما أنغاما ، وألفت عليها ألحانا ^(٢) .

وقد احتذى مغنو مكة حذو مغني المدينة في التأثر بالغناء الفارسي ، فأبو الفرج يروي أن ابن مسجح أقدم المغنين هناك استمع إلى الفرس يغنون ، وهم يبنون المسجد الحرام في عصر ابن الزبير ، فنقل غناءهم من الفارسية إلى العربية ^(٣) . ويقول إن عود ابن سريج كان على صنعة عيدان الفرس ، وإنه أول من ضرب بالعود الفارسي في مكة على الغناء العربي ^(٤) . ويروي أبو الفرج أيضا أن ابن محرز شَخَصَ إلى فارس ، فتعلم ألحان الفرس ، وكذلك شَخَصَ إلى الشام فتعلم ألحان الروم وألف بين ذلك ، ونقله إلى الغناء العربي ^(٥) .

وإذن فهناك صلة مؤكدة بين الغناء العربي الذي شاع في المدينة بل في الحجاز كله ، وبين الغناء الأجنبي الفارسي والرومي . على أنه ينبغي ألا نبالغ في هذه الصلة فنزعم أن العرب نقلوا نظريتهم الغنائية في هذا العصر من لدن الأجانب . حقاهم تأثروا بهم ، ولكنهم لم يذوبوا في غناء غيرهم ، ولعل من طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أن المغنين مع أنهم كانوا من الأجانب لم يولدوا في بلادهم ، وإنما ولدوا في بلاد العرب ، أو على الأقل نشأوا فيها ، ما عدا مغنيا واحدا هو نشيط الفارسي .

(١) أغاني ٣٢١/٨ . (٢) أغاني ١٣/١٦ . (٣) أغاني ٢٧٧/٣ .

(٤) نفس المصدر ٢٥٠/١ . (٥) نفس المصدر ٣٧٨/١ .

وأيضاً فإن هؤلاء المغنين الأجانب ، الذين تتردد أسماءهم في الأغاني والذين تمت تحت أيديهم وألسنتهم نظرية الغناء العربية الجديدة ، كانوا يبدؤون دائماً بالغناء العربي ، ثم يتعلمون الغناء الأجنبي بعد ذلك كما تعلم ابن محرز في بلاد الفرس والشام . ونفس مصطلحات الغناء في هذا العصر التي تتردد في كتاب الأغاني كلها من الألفاظ العربية ، وإن في هذا كله ما يشير إلى أن التأثير الأجنبي لم يكن واسعاً . وأيضاً فإن الآلات الموسيقية التي تتردد مع المغنين الأمويين أكثرها قديم من مثل الصنج والمزهر والقضيب والدف والطبل والمزمار وحتى العود والطنبور يظن أنهما عرفا في العصر الجاهلي .

والحق أنه ينبغي أن لا نبالغ في التأثير الأجنبي ، وما أثر به الغناء الرومي والفارسي في الغناء العربي أثناء العصر الأموي ، فإن ذلك لم يتجاوز ، في الأعم الأغلب ، بعض ألحان رومية وفارسية انتقلت إلى الغناء العربي . ونحن لا نجد للروم مغنيا في الحجاز أثناء هذا العصر ! وربما كان التأثير الفارسي أهم ، وقد نقل العرب بعض ألحان من غناء عمالهم الذين استخدموا في بناء السكبة وبناء بعض القصور^(١) ، وكان منهم نشيط الفارسي المغني المشهور . ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول إن العرب استعاروا نظريتهم في الغناء من الفرس . أما ما يزعمه ابن خرداذبه من أن العرب نقلوا الإيقاع منهم^(٢) ، فليس عليه دليل ،

خاصة إذا عرفنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن في الشعر ، فإن هذه النظرية إنما انتقلت إليهم من العرب على نحو ما هو معروف في تاريخ اللغة الفارسية الحديثة . وربما كان من أوضح الأدلة على ما نزعناه أن الحيرة ، وهي أقرب إلى بلاد الفرس من المدينة ومكة ، لا نجد فيها تأخذ شيئاً واضحاً من الغناء الفارسي ! وقد كان المعقول أن تكون أسرع إلى التأثر بالغناء الفارسي ، ومع ذلك فإننا لا نجد فيها هذا العصر سوى النَّصَب الذي عرف عن العرب منذ العصر الجاهلي ، ولذلك لم يدون شيء من غناء أهلها لسقوطه ، وأنه ليس من أغاني الفحول ^(١) . ولعل في هذا كله ما يدل على أن العرب لم ينقلوا من الفرس ولا من الروم نظريتهم الغنائية ، إنما نقلوا بعض الألحان . وبعض الأناغم وبعض الأدوات الموسيقية وخاصة في العصر العباسي وقد عرض المسعودي لهذه الآلات في كتابه مروج الذهب بالتفصيل ^(٢) .

وإن من يقرأ أخبار جميلة في الأغاني يلاحظ أن الغناء تمَّ له في بيتها كل ما يتصوره الإنسان من رقي ، إذ كانت تغني بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيذان والأوتار ، حتى لتبلغ الجوقة أحياناً خمسين نفراً ، وكانت تضرب في أثناء غنائها ، وتضرب الجوقة على ضربها ^(٣) . وكما عرف بيت جميلة الغناء المصحوب بجوقة كبيرة ، عرف كذلك الغناء المصحوب

(٢) المسعودي ٩٠/٨ وما بعدها .

(١) أغاني ٣٥٢/٢ .

(٣) أغاني ٢١٨/٨ .

بالرقص . روى أبو الفرج أنها جلست يوما ولبست بُرْنَسا طويلا ،
وألْبست من كان عندها برانس دون ذلك . . . ثم قامت ، ورقصت
وضربت بالعود ، وعلى رأسها البرنس الطويل ، وعلى عاتقها بُرْدَة يمانية ،
وعلى القوم أمثالها ، وقام ابن سريج يرقص ومعبد والغريص وابن عائشة
ومالك ، وفي يد كل منهم عود ، يضرب به على ضرب جميلة ورقصها ،
فغنت وغنى القوم على غنائها ، ثم دعت بثياب مصبَّغة ، ودعت للقوم
بمثل ذلك فلبسوا ثم ضربت بالعود وتمشَّت ، وتمشى القوم خلفها ،
وغنت وغنوا بغنائها بصوت واحد (١) .

والحق أن المدينة لم تكن تبقي للعصور التالية شيئا جديدا تضيفه إلى
نظريتها الغنائية ، فإن الغناء بلغ فيها أثناء هذا العصر الاموى كل
ما كان يحلم به العربى . ولعلنا بعد ذلك لا نعجب حين نسمع عن تأثر
الناس بغناء مغنيها تأثرا يفوق الوصف ، إذ كان بعضهم يخر مغشيا
عليه (٢) ، وكان بعضهم يصفق ويرقص (٣) . وقد سمع ابن أبي ربيعة
صوتا من جميلة فبلغ به سحر الصوت أن شق جَيْبَ قميصه إلى أسفله
فصار قَبَاء ، وهو لا يدرى (٤) . وغير ابن أبي ربيعة كان إذا سمع جميلة
يجد شيئا يضغط قلبه ويحرقه فلا يملك عينه (٥) . ويُرْوَى أن مولى حبابة
إحدى تلميذات جميلة بعد أن باعها إلى يزيد بن عبد الملك سمعها عنده

(٢) ابن عبدربه ٢٥٧/٣ .

(١) أغاني ٢٢٧/٨ .

(٤) نفس المصدر ٢٠٦/٨ .

(٣) أغاني ٢٧٧/٤ .

(٥) نفس المصدر ٢٠٩/٨ وكذلك ٢٣٥/٨ .

وكان بجواره شمعة فعرّض لحيته لها، فاحترقت من شدة الطرب، وهو لا يدري^(١). ومن غريب ما يروى أن قاضي المدينة محمد بن عمران التَّيْمِي استمع يوما إلى جارية عنده، تغنى، فوثب إلى نعله، فعلقها في أذنه من شدة الطرب، وحبّسا على ركبتيه، وأخذ بطرف أذنه والنعل فيها، وجعل يقول: أهدوني أنا بدنة، أهدوني أنا بدنة! (٢). وإن في هذا ما يفسر تواله بعض العباد والنسك بهؤلاء المغنين والمغنيات، فقد حذقوا فهم حذقا شديدا، وقصة عبد الرحمن بن أبي عمار الجشَمِي، الذي كان يلقب بالقَسَّ لعبادته وفتنته بسلامة حتى سميت سلامة القس، شائعة معروفة (٣). ويروى صاحب الأغاني أنه كان بالمدينة ناسك من أهل العلم والفقه، وكان يغشى عبد الله بن جعفر، فسمع جارية مغنية لبعض النخاسين تغنى (بانت سعاد وأمسى حبلا انقطعا) فاستهتر بها، وهام، وترك ما كان عليه... وبلغ عبد الله بن جعفر خبره، فبعث إلى النخاس، فاعترض الجارية، وسمع غناءها بهذا الصوت، وقال من أخذته؟ قالت: من عزة الميلاء، فابتاعها بأربعين ألف درهم، ثم بعث إلى الرجل، فسأله عن خبره، فأعلمه إياه وصدقه عنه، فقال له: أتحب أن تسمع هذا الصوت من أخذته عنه تلك الجارية، قال نعم، فدعا بعزة، وقال لها: غنيه إياه، فغنته، فصعق الرجل وخرّ مغشيا عليه... وأهدى عبد الله بن جعفر الجارية إليه (٤).

(٢) نفس المصدر ٣٣٨/٦.

(١) أغاني ١/٣١٦.

(٣) نفس المصدر ٣٣٤/٨ وما بعدها. (٤) أغاني ١٦/١٩.

وهذا السحر إنما بلغته مغنيات المدينة بفضل إحسانهن للغناء حتى
 يقال إن دحمان اشترى جارية بمائتي دينار وعلّمها الغناء فباعها بعشرة
 آلاف دينار^(١). وقد اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة بعشرين
 ألف دينار^(٢)، واشترى حبابة بأربعة آلاف دينار^(٣). وإن من
 يرجع إلى أخبار المغنين في كتاب الأغاني يجد خلفاء الأمويين منذ
 الوليد بن عبد الملك يستقبلونهم استقبالا، لعله يتفوق على استقبالهم
 للشعراء، إذ كانوا يجيزونهم جوائز جزيلة. وما يروى في هذا
 الجانب أن يزيد بن عبد الملك وفد عليه معبد ومالك بن أبي السّمح
 وابن عائشة، فأمر لكل منهم بألف دينار^(٤) وقد توسع الوليد بن
 يزيد في جوائز المغنين، فيقال إنه أعطى معبدًا اثني عشر ألف دينار^(٥)،
 وقد استقدم جميع مغني الحجاز، وأجازهم جوائز كثيرة^(٦). وهكذا
 كانت الدولة تعترف بالغناء وأصحابه.

ولا ريب في أن هذا التقدير كله إنما يرجع إلى ما أحرزه المغنون
 والمغنيات في هذا العصر من مهارة وتفوق في فن الغناء. وقد توجّه هذه
 النهضة يونس الكاتب تلميذ معبد بكتاب في الأغاني التي كانت متداولة
 في عصره، وهو أول من دوّن الغناء، ويقول أبو الفرج: كتابه في

(١) أغاني ٢٥/٦ . نفس المصدر ٣٤٣/٨ .

(٣) أغاني ١٥٦/١٣ . (٤) أغاني ١٠٩/٥ .

(٥) أغاني ٥٥/١ . (٦) نفس المصدر ١١١/٥ .

الأغاني ونسبها إلى من غنى فيها هو الأصل الذي يستعمل عليه ويرجع إليه^(١)، وهكذا أتيح لهذه الحركة أن يسجلها أحد أصحابها في عصرها. ومن هنا كانت أخبار المغنين في هذا العصر الأموي وما غنوا فيه، كل ذلك لا يسبيل إلى تهمة، إلا إذا قامت قرائن واضحة، وسنعرض في إيجاز لأشهر مغني العصر في المدينة ومغنياته.

٥

أشهر المغنين في المدينة

كان المغنون في هذا العصر بالمدينة كثيرين كثرة مفرطة، وقد ترجم صاحب الأغاني لكثيرين منهم، ولكننا سنكتفي بالحديث عن مشهورهم، لأننا نعتقد أنهم أثروا في الشعر العربي أثراً كبيراً. ولعل أشهر المغنين حينئذ طويس وسائب خاثر ومعبود وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن أبي السمح الطائي.

طويس

من موالى بنى مخزوم، وطويس لقبه، واسمه عيسى بن عبد الله، وكنيته أبو عبد المنعم. وكان طويلاً أحول ويقول ابن بدرون:

إنه اشتهر في عصر عثمان ^(١) ، وكان لا يضرب بالعود ، وإنما ينقر بالدف ^(٢) ، وكان يضحك كل ثكلى حَرَّى . ويقول أبو الفرج إن أول غناء غناه ، وهزج به :

قد برانى الحبُّ حتى كدت من وجدى أذوب ^(٣)
وهو أول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الإيقاع ^(٤) ، وهو ما يسميه أبو الفرج الغناء المتقن ، وهو أيضا أول من صنع الهزج والرمل في الإسلام ^(٥) . ولما طلب مروان بن عبد الملك المخنثين وقال : من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير ، فرَّ إلى السويداء ، وهي على ليلتين من المدينة في طريق الشام ، فلم يزل بها عمره حتى مات في ولاية الوليد ابن عبد الملك ^(٦) . ويذكر ابن عبد ربه من تلاميذه في المدينة الدلال ونومة الضحى ، وفي مكة ابن سُرَّيج ^(٧) .

سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب بن يسار ، وهو مولى فارسي أصله من فني . كسرى ، واشترى عبد الملك بن جعفر ولأه من مواليه ، وأعتقه ، وكان يلزمه بعد عتقه لا يفارقه ^(٨) . ويقال إنه آلى أن لا يغنى أحدا سوى ابن جعفر مولاة إلا أن يكون خليفة أو ولي عهد ، أو ابن خليفة ^(٩) .

(١) انظر شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون طبع ليدن ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر ٢٨/٣ .

(٣) أغاني ٢٧/٣ .

(٤) نفس المصدر ٢٩/٣ .

(٥) نفس المصدر ٢٩/٣ .

(٦) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ .

(٧) أغاني ٣٢١/٨ .

(٨) نفس المصدر ٣٢٢/٨ .

(٩) نفس المصدر ٣٢٢/٨ .

ولما جاء نشيط المغنى الفارسى المدينة، وأعجب به عبد الله بن جعفر،
جاراه، ونقل ألحانه الى الغناء العربى، ليرضى سيده. ثم اشترى عبد الله
ابن جعفر نشيطا بعد ذلك، فأخذ عن سائب خائر الغناء العربى،
وأخذ عنه سائب الغناء الفارسى^(١).

وإذا كان طويس قد اشتهر بالألحان الخفيفة من الهزج والرملى،
فإن سائب خائر اشتهر بالغناء الثقيل، فكان أول من غنى به فى العربية.
وهكذا وضع هذان المغنيان طويس وسائب خائر أسس فن الغناء
فى عصرهم بنوعيه من النقرات الخفيفة والثقيلة. وقد قتل سائب فى
موقعة الحرة. ونجد بين تلاميذه معبدا^(٢)، وجميلة^(٣)، وعزة^(٤) الميلاء.

معبد

هو معبد بن وهب مولى ابن قطن، وقد أعتقه، وكان أبوه عبدا
حبشيا^(٥)، وقد كان يشتغل فى أول حياته بالتجارة، وربما رعى الغنم
لمواليه، ومع ذلك كان يختلف إلى نشيط الفارسى وسائب خائر حتى
اشتهر بالحلق وحسن الغناء وطيب الصوت^(٦). ويقال إنه قدم مكة
فى شبابه فوجد أحد نبلائها، ويسمى ابن صفوان، قد سبق بين المغنين
جائزة، فغناه صوتا فأعطاه الجائزة^(٧).

ويظهر أن صناعة الغناء فى المدينة انتهت عند معبد إلى كل ما كان

(١) أغانى ٣٢١/٨ وانظر طبعة بولاق ١٣/١٦.

(٢) نفس المصدر ٣٢٢/٨. (٣) نفس المصدر ١٧٧/٨.

(٤) أغانى ١٣/١٦. (٥) أغانى ٣٦/١.

(٦) أغانى ٣٩/١. (٧) نفس المصدر ٤٠/١.

يُنْتَظَرُ لها من حسن وإبداع حتى ليقول إسحق الموصلي : « هو فحل
 المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء »^(١) . ويقولون إنه لم يكن ، فيمن
 غنى ، أحد أعلم بالغناء منه ، وفيه يقول الشاعر :
 أجاد طويس^٢ والسرينجي^٣ بعده وما قصبات^٤ السبق إلا لمعبد
 وقد أثر عنه أنه قال : « والله لقد صنعت ألحانا لا يقدر شعبان
 متملىء ولا سقاء يحمل قربته على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحانا
 لا يقدر المتسكى أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى
 يقوم »^(٢) . وسمع به يزيد بن عبد الملك فاستقدمه ، كما استقدم ابن
 سريج مغنى مكة ، ورؤي أنه قال لمعبد : « إن الذى أجده فى غنائك
 لا أجده فى غناء ابن سريج ، أجده فى غنائك متانة . وفى غنائه انحناءا
 ولينا »^(٣) . وهذا صحيح ، لأن ابن سريج تلميذ طويس ، وهو كان يغنى
 الغناء الخفيف : الهزج والرمل . أما معبد فتلميذ سائب خاثر ، وهو كان
 يغنى الغناء الثقيل . ولما تولى الوليد بن يزيد بعث فى طلبه ، واستقبله
 استقبالا حافلا حين وفد عليه^(٤) .

وقد ترك معبد مجموعة كبيرة من الأصوات الملهنة رواها أبو
 الفرج ، ومن أهمها وأجملها خمسة تعرف بألقابها ، وهى الدوامة ، سماه
 بذلك معبد لكثرة ما فيه من الترجيع ، ثم المُنْمَنَم ، ثم معقصات
 القرون ، سماه بذلك لأنه يحرك خصل الشعر ، ثم المتببختر ، ثم مقطّع

(١) أغاني ٣٨/١ . (٢) نفس المصدر ٣٩/١ .

(٣) نفس المصدر ٦٨/١ . (٤) أغاني ٥٢/١ وما بعدها .

الأثفار (١) وبجانب هذه الأصوات الخمسة نجد له سبعة أصوات أخرى مشهورة وكانت تسمى مدن معبد أو حصون معبد ، وذلك أنه سمع رجلا يقول : إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك لم يوصل إليها قط ، فقال : والله لقد صنعت سبعة ألحان كل لحن منها أشد من فتح تلك الحصون ، فسئل عنها فذكرها ، وقد رواها أبو الفرج كلها (٢) .

كان معبد في عصره إمام المغنين في المدينة غير منازع ، وقد اختلف إليه كثيرون يتلقون عنه صنعة مثل حكيم الوادي (٣) وابن عائشة (٤) ، ومالك (٥) بن أبي السمح الطائي ، ويونس (٦) الكاتب ودحمان (٧) وحبابة (٨) وسلامة (٩) القس . وقد توفي في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده (١٠) ، وندبته تليذته سلامة (١١) .

ابن عائشة

هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يكن يعرف له أب فكان ينسب إلى أمه ، وكانت أمه مولاة لمكثير بن الصلت الكندي ، وقيل إنها مولاة لآل المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وقد روى عنه أنه قال : إن أمه كانت ماشطة (١٢) .

(١) أغاني طبع دار الكتب ١٠٥/٩ . (٢) نفس المصدر ١٣٧/٩ .

(٣) نفس المصدر ٤٥/١ . (٤) نفس المصدر ٢٠٣/٢ .

(٥) نفس المصدر ١٠١/٥ وما بعدها . (٦) نفس المصدر ٣٩٨/٤ .

(٧) أغاني ٢٢/٦ . (٨) أغاني ١٥٤/١٣ . (٩) أغاني ٣٣٤/٨ .

(١٠) نفس المصدر ٣٦/١ . (١١) أغاني ٣٧/١ .

(١٢) نفس المصدر ٢٠٣/٢ .

وكان ابن عائشة من أحسن الناس حلوفاً ، ضربه يوماً رجل فذهب إليه ابن أبي عتيق فضربه ، ثم خلاه ، وأقبل على من حضر ، وقال : هذا أراد أن يكسر من أمير داود^(١) . وقال إسحاق الموصلي عنه : « ابن عائشة أحسن الناس ابتداءً وتوسطاً وقطعاً بعد معبد^(٢) » . وقال يونس الكاتب : « كان ابن عائشة يضرب بالعود ، ولم يكن مجيداً في الضرب ، وكان غناؤه أحسن من ضربه ، فكان لا يكاد يمس العود إلا أن تجتمع جماعة من الضراب ، فيضربون عليه ، ويضرب هو ويغنى ، فناهيك به حسناً^(٣) » . وقد طلبه يزيد بن عبد الملك فغناه صوتاً فطرب حتى أُلحِد في طربه ، وقال فيما قال لسأقيه : استقنا بالسماء الرابعة^(٤) ، وطلبه ابنه الوليد فغناه نفس الصوت ، فقال له : أحسنت والله يا أميري . . . ثم نزع ثيابه فألقاها عليه ، وبقي مجرّداً إلى أن أتوه بمثلها ، ووهب له ألف دينار ، وحمله على بغلة ، وقال : اركبها بأبي أنت وانصرف ، فقد تركتني على مثل المِسْقَلِي من حرارة غنائك^(٥) . ويروى أنه غنى أهل المدينة يوماً في العقيق فارتفعت أصواتهم أحسنت أحسنت ! وانصرفوا حوله يرفونه إلى المدينة^(٦) . ويقال إنه غنى بموسم الحج فحبس الناس عن المسير ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكان أمير الموسم هشام ابن عبد الملك فأتوه به ، فكلّمه ، فوجده تياها ، فقال : ارفق بتيهك ،

(١) أغاني ٢/٢٠٤ . (٢) نفس المصدر والصفحة . (٣) نفس المصدر ٢/٢٠٥ .

(٤) المسعودي ٩/٦ . (٥) أغاني ٢/٢٢٦ وانظر المسعودي ٨/٦ .

(٦) أغاني ٢/٢٠٦ وانظر ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

فقال: حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياها ، فضحك منه وخلي سبيله ^(١) . وقد توفي ابن عائشة في خلافة الوليد بن يزيد ، ويقال إنه توفي مقتولا ^(٢) .

يونس الطائب

هو يونس بن سليمان بن كَرْد بن شهر يار من ولد هُرْمَز ، وهو من موالى عمرو بن الزبير ، وكان أبوه فقيها فأسلمه في ديوان المدينة فكان من كتابه ^(٣) ، ومن أجل ذلك سمي يونس الكاتب ، ولم يكن في أصحاب معبد أحذق ولا أقوم بما أخذ عنه منه ^(٤) . وإذا كان معبد قد اشتهر بخصونه أو مدنه السبع ، فإن يونس اشتهر أيضا بزيبياته السبع ، وهي كلها من شعر ابن رُهَيْمَة في زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، وقد رواها أبو الفرج كلها في أغانيه ^(٥) . وطلبه الوليد بن يزيد فذهب إليه ، وغناه ، وأعجب بغنائه وأجازه بثلاثة آلاف دينار ^(٦) .

وأهمية يونس لا تأتي من أنه كان مغنيا فحسب ، بل تأتي من أنه سجل لأول مرة الأغاني ونسبها إلى أصحابها ، فكان كتابه فيها الأصل الذي يعول عليه فيما بعد ^(٧) ، وقد اعتمد عليه إسحق الموصلي وابن المهدى

(١) أغاني ٢٠٨/٢ . (٢) انظر وفاته في الأغاني ٢٣٥/٢ وما بعدها .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٣٩٨/٤ . (٤) نفس المصدر ٣٩٨/٤ .

(٥) أغاني ٤٠٢/٤ وما بعدها . (٦) أغاني ٤٠٠/٤ .

(٧) نفس المصدر ٣٩٨/٤ .

في كتابيهما عن المغنين والغناء ، وكذلك اعتمد عليه أبو الفرج نفسه فهو كثير الرواية في أغانيه عنه . ويظهر أنه لم يؤلف في الأغاني والمغنين كتابا واحدا ، فصاحب الفهرست يذكر له ثلاثة كتب كتاب مجرد يونس ، وكتاب القيان ، وكتاب النغم^(١) . وقد أخذ الغناء عن يونس سباط ، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي^(٢) . وفي الفهرست أن إبراهيم تملذ ليونس مباشرة^(٣) ، وإن في ذلك ما يدل على أنه عاش الى أوائل العصر العباسي .

مالك الطائي

هو مالك بن أبي السَّمح الطائي ، فهو مغن عربي أصيل ، كان أبوه من طيء ، وكانت أمه ، ويقال أم أبيه ، من بني مخزوم ، فهو طائي الأب قرشي الأم أو الجدة^(٤) . وكان أبوه منقطعا إلى عبد الله بن جعفر ، فلما حضرته الوفاة أوصى به إليه ، فنشأ في داره بين المغنين والمغنيات ، الذين كان يرعاهم ابن جعفر . ويظهر أنه لم يكن يكتفي بمن يسمع من المغنين في دار ابن جعفر ، فقد لزم بيت جميلة^(٥) يستمع إلى من عندها من المغنيات والمغنين ، وكذلك لزم باب حمزة بن الزبير ، وكان معبد منقطعا إلى حمزة يغنيه في كل يوم ، فحمل عنه أصواته وغناؤه^(٦) ،

(١) الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة ص ٢٠٧ .

(٢) أغاني ١٥٢/٦ . (٣) الفهرست ص ٢٠٧ .

(٤) أغاني طبع دار الكتب ١٠١/٥ . (٥) نفس المصدر والصحيفة .

(٦) أغاني ١٠٢/٥ وما بعدها .

ولم يلبث أن أخذ ينفرد بطريقة خاصة به ، وعرف ذلك حمزة ، فقرر به منه وأمر معبدا أن يطارحه ^(١) ، وبذلك ذاع صيته في المدينة وخارج المدينة .

وكان مالك يحوّر في ألحان معبد ، يزيد فيها وينقص ، فيظهر من الإتقان والجودة ما يروع به سامعيه ، قال إسحق الموصلي : « كان مالك إذا غنى ألحان معبد الطوال خفّفها وحذف بعض نغمها وقال : أطاله معبد ومطّطه ، وحذفه أنا وحسنّته » ^(٢) وقال أبو الفرج إنه غنى حمزة يوما صوتا لمعبد بعد أن زاد فيه ونقص منه ، فألقى عليه حلة كانت عليه قيمتها مائتا دينار ^(٣) .

ولما طارت شهرة مالك استقدمه إليه يزيد بن عبد الملك ^(٤) ، وكذلك الوليد ابنه ، وكان يعجب به ، وقد استمر عنده حتى قتل ^(٥) ، وعمرّ مالك حتى أدرك دولة بني العباس وقدم على سليمان بن علي بالبصرة فمتّ إليه بخيولته في قريش وانقطاعه إلى ابن جعفر ، فوصله وأجزل جائزته ^(٦) . وقد عاد من فوره إلى المدينة ، ولا نسمع شيئا عنه بعد هذه الحادثة ، ويظهر أنه لم يعمرّ طويلا بعدها .

عطر و

مولي الأنصار « وكان جميل الوجه حسن الخناء طيب الصوت

(١) أغاني ١٠٤/٥ . (٢) أغاني ١١٢/٥ . (٣) أغاني ١٠٥/٥ .

(٤) أغاني ١٠٩/٥ . (٥) أغاني ١١١/٥ وما بعدها وكذلك ٧٩/٦ .

(٦) أغاني ١٠٢/٥ .

جيد الصنعة حسن الرأي والمروءة فقيها قارئاً للقرآن ، وكان يغنى مرتجلاً ، (١) وقد أدرك الدولة العباسية وانقطع إلى آل سليمان بن علي ، وعاش إلى عصر المهدي ، وربما لحق عصر هرون الرشيد (٢) . وقد استقدمه الوليد بن يزيد من المدينة ، ويروى أنه لما سمع منه أحد أصواته شقّ حلة وشى كانت عليه ورمى بنفسه في بركة خمر ، فما زال بها حتى أخرج كاليت سكرًا ، فلما أفاق قال له : كأني بك الآن قد أتيت المدينة فقممت بي في مجلسها ومحفلها وقعدت وقلت : دعاني أمير المؤمنين ، فدخلت إليه ، فاقترح عليّ فغنيته وأطربته ، فشق ثيابه وفعل ، والله لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرى فبلغني لأضربن عنقك ، ثم أعطاه ألف دينار ، فأخذها وانصرف إلى المدينة (٣) .

وكانت في عطر دعاية فإن واليا لبني العباس شدد في المغنين وأصحاب الملاحى ، وحبسهم ، وحبس عطر دمعهم ، فشفع له بعض أهل المدينة ، وقالوا : إنه من أهل المروءة والنعمة والدين ، فأطلقه واليا ، وخرج ، وسرعان ما عاد إليه ، حين رأى المغنين يعرضون عليه ، وسأله أعلى الغناء حبست هؤلاء ؟ قال نعم ، قال فلا تظلمهم فوالله ما أحسنوا منه شيئاً قط ، فضحك وخلي سييلهم (٤) فانصرفوا يضحكون من عطر دوفكا هته . ويبدو من روايات الأغاني لأصواته أنه كان يغنى دائماً بالغناء الثقيل فهو من هذه الناحية تلميذ مخلص لفن أستاذه معبد الذي كان

(١) أغاني ٣/٣٠٣ . (٢) أغاني ٣/٣٠٦ وراجع ٣/٣٠٣ .

(٣) أغاني ٣/٣٠٧ وما بعدها . (٤) أغاني ٣/٣٠٧ .

يعنى بالأنعام الثقيلة (١) .

وهؤلاء هم أشهر المغنين في المدينة أثناء العصر الأموي ، ووراءهم كثيرون جداً كانوا متفوقين في غنائهم تفوقاً واسعاً . وقد عقد صاحب الأغاني لبعضهم تراجم ألم فيها بأخبارهم ، وترددت أسماء كثير منهم أثناء حديثنا عن الغناء . ومن لم نذكره سعد بن هارون (٢) ومنهم يزيد حوراء وقد لحق عصر المهدي (٣) ، ومنهم البيهقي الانصاري وقد طرب يزيد بغنائه وأجزل له العطاء (٤) ، ومنهم أبو سعيد مولى فائد وكان فاضلاً مقبول الشهادة معدلاً وعمّس إلى خلافة الرشيد ولقيته إبراهيم الموصلی وابنه إسحق وذووهما (٥) ، وغير أولئك كثير .

وينبغي أن نعرف أن هذه الطبقة الأخيرة من مغني المدينة هي التي نقلت الغناء إلى العراق ، أو قل هي التي نقل عنها الغناء إلى العراق أوائل العصر العباسي ، فإن كثيراً من أهل المدينة لم يذهب إلى العراق وكان يذهب إليهم المغنون للأخذ عنهم . وأول من اهتم بالغناء من الخلفاء العباسيين المهدي على ما هو معروف (٦) . ونحن لا نصل إليه حتى نجد يستقدم المغنين من الحجاز (٧) . وإن من يقرأ في كتاب الأغاني يجد أكثر أسانيده تنتهي إلى مغني الحجاز ومغني المدينة بنوع

(١) أغاني ٣/ ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ وكذلك أغاني ٨/ ١٨٥ ، ٢٠١ .

(٢) أغاني ١/ ٥٦ . (٣) أغاني ٣/ ٢٥١ . (٤) أغاني طبع بولاق ١٣/ ١٦٣ .

(٥) أغاني طبع دار الكتب ٤/ ٣٣٠ . (٦) البيان والتبيين ٣/ ٢٠٨ .

(٧) أغاني ٦/ ١٧٤ .

خاص ، مما يدل على أن المدينة أثر مغنوها وغناؤهم في العصر العباسي .
تأثيرا واسعا جدا .

٦

أشهر المغنيات

رأينا المدينة مكتظة بالمغنين وليس معنى ذلك أن المغنيات كن قليات ، فقد كن كثيرات أيضا كثرة مفرطة ، ولعل أشهرهن حينئذ عزة الميلاء وجميلة وسلامة القس وسلامة الزرقاء .

عزة الميلاء

مولاة للانصار ، وهي أقدم مغنيات المدينة ، وكانت تغنى أولا أغاني القيان من القدائم مثل سيرين وزرنب وخولة والرباب وسلي ورائقة ، وكانت أستاذتها ، فهي التي خرجتها . ولما قدم نشيط المدينة أخذت عنه ، وكذلك أخذت عن سائب خاثر ، فكانت أقدم من غنى الغناء الموقَّع بالحجاز من الجوارى ^(١) .

وكانت عزة من أجمل النساء ، يقول طويس هي أجمل سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع ^(٢) . وكان لها دار اتخذتها تغنى فيها

(١) أغاني طبع بولاق ١٣/١٦ وانظر أغاني طبع دار الكتب ٣٢١/٨

(٢) أغاني ١٤/١٦

الناس^(١). وقد سمعها حسان بن ثابت وأعجب بها^(٢)، ويقال إنها فتنت رجال المدينة ونساءها فتنة شديدة^(٣)، ومن افتمن بها ابن أبي عتيق^(٤)، وقد قصدها هو، وعبد الله بن جعفر، وعمر بن أبي ربيعة يوماً فغنتهم، وغنت عمر في شيء من شعره، فشق ثيابه، وصاح صيحة عظيمة، صعق معها من شدة الطرب^(٥).

وقد جمعت عزة بين الغناء القديم والحديث فكانت تضرب بالمرزهر والمعازف القديمة، كما كانت تضرب بسائر الآلات الحديثة^(٦). ويذكر صاحب الأغاني بين تلامذتها ابن سريج وابن محرز^(٧) في مكة والبردان^(٨) في المدينة. وعاشت حتى لحقت جميلة وغنت في دارها^(٩).

جميلة

مولاة بني بهز من بني سُلَيم وكان لها زوج من موالى بني الحارث ابن الخزرج، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولأول زوجها، فقيل إنها مولاة الأنصار^(١٠). وهي أصل من أصول الغناء في المدينة، وقد

(١) أغاني ١٤/١٦. (٢) نفس المصدر ١٤/١٦ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ١٩/١٦ وما بعدها وانظر ٥٥/١٠.

(٤) نفس المصدر ١٩/١٦ وانظر ٣٨/١١.

(٥) نفس المصدر ١٤/١٦.

(٦) نفس المصدر ١٤/١٦ وانظر أغاني ٢١٢/٤.

(٧) أغاني ١٤/١٦ وانظر أغاني ٣٧٨/١.

(٨) أغاني ٢٧٧/٨. (٩) أغاني ١٤/١٦. (١٠) أغاني ١٦٨/٨.

سألت أتي لك هذا الغناء ، فأجابت : « كان أبو جعفر سائب خاثر لنا جارا وكنت أسمعُه يغنى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النخات فبنيت عليها غنائى . . . وسمعتى موليأتى يوما وأنا أغنى سرا ، ففهمتنى ، ودخلن على ، وقلن : قد علمنا فما تسكتميننا ، فأقسمن على ، فرفعت صوتى وغنيتهن ، فحينئذ ظهر أمرى ، وشاع ذكرى ، فقصدنى الناس وجلست للتعليم ، فكان الجوارى يتكاسبننى (يتزاحمن حولى) فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئا . ولقد كسبت لموالى ما لم يخطر لهن ببال ، وأهل ذلك كانوا وكنت ، (١) .

وقد اتخذت جميلة لنفسها فى المدينة دارا كبيرة ، وكانت هذه الدار تمتلئ بالمغنين والجوارى ، وتقام فيها حفلات باذخة للغناء ، وكان يشترك فى هذه الحفلات بعض المغنين من مكة أحيانا مثل ابن مسحج وابن سريج والغريص وابن محرز (٢) . وكذلك كان يشترك فيها المغنون من المدينة من مثل معبد ومالك بن أبى السمع الطائى وابن عائشة ونافع ابن طنبورة وغيرهم كثير (٣) . وكما كانت تسكتظ دار جميلة بالمغنين كانت تسكتظ كذلك بالمغنيات من مثل سلامة القس وسلامة الزرقاء وحبابة وخليدة وربيعة وعقيلة الحقيقية وفرعة وبليلة ولذة العيش (٤) .

(١) أتي ١٨٧/٨ .

(٢) نفس المصدر ١٨٨/٨ وما بعدها . (٣) أغانى ١٨٨/٨ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ١٨٦/٨ ، وانظر ٢٠٩/٨ حيث تجد ثبوتا بأسماء من كان

عندها من المغنيات والمغنين .

وقد بلغ الغناء في دار جميلة كل ما كان ينتظره من رقى وازدهار
إذ عرف الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة^(١)، كما عرف الغناء
المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة^(٢).
وكثيرا ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير
يضم مشاهير المغنين والمغنيات، لافي المدينة فقط، بل مكة أيضا^(٣).
وكان جميلة أبت أن تترك بعدها للمغنين ما يحدثونه، ولعله من أجل
ذلك كان معبد يقول أصل الغناء جميلة وفرعه نحن، ولولا جميلة لم
نكن نحن مغنين^(٤). وقد عاشت حتى عصر يزيد^(٥) بن عبد الملك.

سلامة القس

مولدة من مولدات المدينة أخذت الغناء عن جميلة ومعبد وابن
عائشة، فمهرت^(٦). وإنما سميت سلامة القس لأن أحد قراء أهل مكة
وكان يسمى عبد الرحمن بن أبي عمار الجششمي، ويلقب بالقس لعبادته
سمعا، فشغف بها وشهر، وفيها وفي أختها ريبا يقول ابن قيس الرقيات:
لقد فتنت ريبا وسلامة القس فلم تتركها للقس عقلا ولا نفسا
فتاتان أمّا منهما فشبيهة الـ هلال وأخرى منهما تشبه الشمس^(٧)
وكانت سلامة جميلة وقد طارت شهرتها، فطلبها يزيد بن عبد الملك

(١) أغاني ٢١٨/٨ وكذلك ٢٢٧/٨. (٢) نفس المصدر ٢٢٦/٨.

(٣) انظر نفس المصدر ١٨٨/٨ وكذلك ٢١١/٨ — ٢١٢.

(٤) نفس المصدر ١٨٦/٨. (٥) أغاني ٦٧/٩.

(٦) نفس المصدر ٣٣٤/٨. (٧) أغاني ٣٣٧/٨.

واشترأها من مولايها بعشرين ألف دينار ، ويقال إن أهل المدينة
جاءوا يشيعونها ويودعونها حين أرادت الخروج ، فملأوا رحبة القصر
ووزاء ذلك ، فوقفت بينهم ، ومعها العود ، فغنتهم :

فارقوني وقد علمت يقيناً ما لمن ذاق مِيتَةً من إيابِ

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت والناس وراءها ينتحبون
ويبكون ^(١) وقد استمرت عند يزيد حتى توفي فرثته بشعر من تأليفها
وناحت به عليه ^(٢) . ويروى أبو الفرج أن الوليد بن يزيد طلب إليها
أن تغنيه شعرها في أبيه فغنته ، وهي تتغصص من ذلك وتدمع عيناها ^(٣) ،
وقد عاشت بعد الوليد ^(٤) ، ولكن يظهر أنها لم تعمّر طويلاً .

سورة الزرقاء

تلميذة جميلة ^(٥) ، وكان يقال إنه لم يرفى النساء بعد القيان الحجازيات
مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء ^(٦) ، ويظهر أنها كانت بارعة
الحسن ، وقد قضت أول حياتها في دار جميلة ^(٧) ، حيث كانت تعلم بعض
الجوارى الغناء ^(٨) . واشترأها ابن رامين أكبر تاجر للقيان في
الكوفة ، ففقت هناك كثيراً من الشباب والشعراء ، وعلى رأسهم محمد
ابن الأشعث وفيها يقول :

(١) أغاني ٣٤٣/٨ . (٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٣٣/٨ وكذلك ٣٤٦/٨ .

(٣) نفس المصدر ٣٤٨/٨ . (٤) نفس المصدر ٣٣٤/٨ .

(٥) نفس المصدر ٢٠٨/٨ وكذلك ٢٣٠/٨ .

(٦) أغاني ١٧٥/١٨ . (٧) أغاني ٢٣٠/٨ .

(٨) نفس المصدر ٢٥٥/٣ .

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدي صدغ مقيم طوال الدهر والأبد^(١)
 واشترى ابن رامين من مغنيات المدينة أيضا ربيحة وسعدة ،
 وكان أهل الكوفة يغشون منزله يستمعون إليهما . وحج ابن رامين
 وأخذ جواريه معه فقال إسماعيل بن عمار الأسدي واصفا كيف علت
 حينئذ الحشرات نفوس أهل الكوفة وأفقدتهم :

أَيَّةَ حَالٍ يَابَنَ رَامِينَ حَالِ الْمُحِبِّينَ الْمَسَاكِينَ
 تَرَكْتَهُمْ مَوْتَى وَلَمْ يَتَلَفُوا قَدْ جُرَّ عَوَامُنِكَ الْأَمْرَيْنِ
 وَسَرَّتْ فِي رَكْبٍ عَلَى طِيَّةٍ رَكِبَ تَهَايَمَ وَيَمَانِينَ
 يَارَاعَى الذَّوْدَ لِقَدَرَعَتِهِمْ وَيَلُكُ مِنْ رَوْعِ الْمُحِبِّينِ
 فَرَّقَتْ جَمْعاً لَا يَرَى مِثْلَهُمْ بَيْنَ دُرُوبِ الرُّومِ وَالصِّينِ^(٢)

وعادت الزرقاء إلى الكوفة مع صواحبها ، وعادت معها الفتنة
 والأغراء ، فكان يذهب إلى دار ابن رامين كثير من نبلاء القوم ، وعلى
 رأسهم معن بن زائدة ، وروح بن حاتم ، وابن المقفع . ويقال إنهم
 استمعوا إليها وإلى سعدة يوما ثم خرجوا فأرسل معن إليها بكرة
 وكذلك روح ، ولم يكن مع ابن المقفع مال فأرسل إليها بصك ضيعة
 له^(٣) . ويقال إن أحد الصيارفة سمعها فأدخل يده في ثوبه وأخرج
 لؤلؤتين قيمتهما أربعون ألف درهم وأعطاهما لها^(٤) . وأخيرا اشتراها
 جعفر بن سليمان وإلى المدينة بثمانين ألف درهم^(٥) .

(١) أغاني ١٠/١٣٥ . (٢) انظر أغاني ١٣/١٢٧ .

(٣) انظر أغاني ١٣/١٣٢ . (٤) انظر أغاني ١٣/١٣٢ .

(٥) نفس المصدر ١٣/١٣١ وانظر ١٠/١٣٦ .

وأظن أننا ليس في حاجة هنا إلى أن نعيد ما قلناه في خاتمة حديثنا عن المغنين من أن المدينة كان لها أكبر الفضل في الحركة الغنائية التي ظهرت في العراق أثناء العصر العباسي . وهذه سلامة الزرقاء ، وصاحبها ربيحة وسعدة يذهبن إلى السكوفة ، وقد أخذن معهن فن الغناء الذي كان قد استوى له في المدينة كل ما يمكن من رقى وازدهار . ولا ريب في أن هناك أخريات ذهبن إلى العراق وأثرن فيه مع هؤلاء الجوارى ، وقد استطعن هن وتلميذاتهن ، كما استطاع معهن من ذهب إلى العراق من المغنين وتلاميذهم هناك أن ينهضوا بالغناء هذا النهوض الذي يقصده صاحب الأغاني عن إبراهيم الموصلی ، وابنه إسحق ، وإسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء ، وزلزل ، وعلوية من المغنين وفريدة ، وبذل ، وذات الخال ، ومتميم ، وعريب ، ودنانير ، من المغنيات .

والحق أن المدينة هي التي هيأت لنمو الغناء عند العرب هذا النمو الذي جعله يتحول من صناعة بسيطة إلى صناعة معقدة لها تقاليدها ورسومها ، وهي صناعة بلغت مبلغا عظيما من السحر والفتنة على أيدي وألسنة كثير ممن برعوا في الغناء براعة هائلة .

الفصل الثالث

الشعر الغنائي في المدينة

١

الشعر في المدينة

من يرجع إلى المدينة منذ العصر الجاهلي يجد الشعر فيها كثيرا كثيرة مفرطة . روى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال : « قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا »^(١) . ولعل مما يؤكد كثرة الشعر والشعراء في المدينة حينئذ أن نجد ابن سلام يتحدث في طبقاته عن شعراء القرى العربية مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، فيقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة ، ويذكر أن شعراءها الفحول في الجاهلية خمسة ، ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، فأما شعراء الخزرج فهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وأما شاعرا الأوس فهما قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت^(٢) ، وقد عقد لهم أبو الفرج — عدا عبد الله بن رواحة — فصولا طويلة في

(١) ابن عبد ربه ١٢٣/٣ . (٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٢ .

كتابه الأغاني^(١). وبجانب هؤلاء الشعراء العرب من الأوس والخزرج كان هناك شعراء من اليهود عرضنا لهم في الفصل الأول من هذا البحث وكان على رأسهم الربيع بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف .

كان الشعر إذن أهم فنون الأدب في المرحلة الجاهلية بالمدينة ، وقد استمر له شيء غير قليل من أهميته في ابتداء المرحلة الثانية التي مرت بها ، مرحلة الرسول والخلفاء الراشدين ، فإن قريشا أخذت تهجو رسول الله وأصحابه بعد هجرتهم منها إلى المدينة ، فرأى أن يستعين عليها بشعراء الأنصار . روى أبو الفرج في أغانيه أنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش عبد الله بن الزبيري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ، فقال النبي للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم » فتصدى لهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة^(٢) . وقد كان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم : بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة^(٣) . وقد استمع النبي صلى الله عليه وسلم يوما إلى حسان وهو ينشد بعض أشعاره في هجاء قريش فقال « لهذا عليهم أشد من وقع النبل »^(٤) .

(١) أنظر أغاني ١/٣ وكذلك ١٣٤/٤ وانظر أغاني ١٥/٢٦ وأيضاً ١٦٠/١٦٠ .

(٢) أغاني ١٣٧/٤ . (٣) نفس المصدر ١٣٨/٤ . (٤) نفس المصدر ١٤٣/٤ .

واستمرت هذه النبال تصوب من المدينة إلى مكة طوال حربها مع النبي ، حتى إذا فتحت مكة وقفت هذه الحرب اللسانية وأخذ المسلمون وشعراؤهم يهدأون ، بل لقد هجر بعض الشعراء نظم الشعر ، هجره حسان بن ثابت ، أو كاد ، وهجره لييد وهجره غيرهما . وهذا طبيعي لأن وقود الشعر العربي في المرحلة الجاهلية كما قدمنا الثأر ، والاسلام ينهى عن الثأر ، وأيضا فإنه ينهى عن الثلب والهجاء ، ويدعو المسلمين إلى أن يكونوا إخوة متحابين . ومعنى ذلك أن دواعي الشعر أخذت تضعف ، وساعد على هذا الضعف أن العرب شغلوا بعد وفاة النبي بالفتوح وتمصير الأمصار ، وصرفهم ذلك عن الشعر إلا طائفة قليلة أخذت تقول الشعر كما كانت تقول في الجاهلية ، وكان على رأس هذه الطائفة الخطيئة .

وقصة الخطيئة مع الزبرقان ، واستعدائه عليه عمر لما كان من هجائه إياه مشهورة ، فقد حبسه عمر ، واستعطفه الخطيئة بشعر ، ذكر فيه أفراده بنى مرخ ، فعطف عليه عمر وأطلقه بعد أن أخذ عليه الموائيق ألا يعود إلى الهجاء ، ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بـعطاء^(١) . وفي الأغاني أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن^(٢) ، ويقال إنه انتهر حسان بن ثابت إذ سمعه ينشد بعض هذا الشعر^(٣) .

(٢) نفس المصدر ١٤٠/٤ .

(١) أغاني ١٨٩/٢ .

(٣) نفس المصدر ١٤٣/٤ .

وكما كره عمر للشعراء أن يتعرضوا للمسلمين وأعراضهم بالهجاء ،
 كذلك كره لهم أن يتعرضوا للنساء وبنااتهم بالتشبيب والغزل ، فتقدم
 لهم ألا يشيب أحد بامرأة إلا جلده ، مما اضطر حميد بن ثور أن يشيب
 بسرحة ، وأن يقول في تشبيهه :

فهل أنا إن عالتُ نفسي بسرحة

من السرح موجودٌ على طريق^(١)

ويذهب عمر ، ويأتى عثمان فيسير سيرة صاحبه من النهي عن
 التعرض للأعراض ، وقد حبس ضابي بن الحارث البرجمي لإقذاعه
 في الهجاء ، وبقي في سجنه حتى مات^(٢) .

وعلى هذا النحو أخذ فن الشعر يضعف بضعف دواعيه في
 عصر الخلفاء الراشدين إلا ما كان في حروب على ومعاوية ، فقد رجع
 الشعراء يعيدون السيرة القديمة من السب والتنازع بالألقاب^(٣) .
 لكن هذه الحركة لم تكن في المدينة نفسها ، إنما كانت في العراق
 مع الجيوش المقتتلة هناك .

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموي وجدنا الشعر ينهض في المدينة
 نهضة واسعة ، وكأن المدينة عادت في هذا العصر إلى حال تشبه
 حالها في الجاهلية ، إذ كان الشعر أهم فنون الأدب التي تمارسها ،

(١) أعاني ٣٥٦/٤ .

(٢) ابن سلام ص ٤٠ ، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة طبع ليدن ص ٢٠٢ .

وما بعدها (٣) المسعودي ٤٦/٥ .

وقد هجرته في عصر الخلفاء الراشدين أو كادت ، ولكنها سرعان
ما رجعت إليه وأوغلت فيه .

ونحن نعرف أن الإسلام نفى اليهود عن المدينة وكانوا عنصراً
مهماً في شعرها الجاهلي ، ولكنها استعاضت عنهم بعنصرين جسديين
لعل أصحابهما كانوا أكثر شاعرية ، فقد سكنتها جماعة كبيرة من
قريش هاجرت إليها قبل النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، كما نزحت
إليها جماعة كبيرة من الموالي الأجانب الذين استرقّهم أهلها في
فتوحهم وانتصاراتهم في بلاد الفرس والروم والشام ومصر .

وهذا الخليط من قريش والأنصار والموالي في المدينة كان له نشاط
واسع في الشعر أثناء هذا العصر ، وآية ذلك كثرة التراجم التي عقدها
أبو الفرج في أغانيه لشعرائهم جميعاً ، وهي تراجم تتضمن أخبارهم ،
كما تتضمن طرائف من أشعارهم ، وخاصة التي غنى فيها المغنون .
وأشهر من ترجم لهم من قريش عبد الرحمن بن الحَكَم^(١) ، من
بيت بني أمية ، وعبد الله^(٢) بن الحسن بن الحسن بن عليّ من
بيت العلويين ، وعبد الرحمن^(٣) بن أبي بكر الصديق من بيت
أبي قحافة ، وجعفر^(٤) بن الزبير من بيت الزبيريين ، والحسين^(٥)

(١) أغاني ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣ . (٢) نفس المصدر ٢٠٣/١٨ .

(٣) نفس المصدر ٩٣/١٦ . (٤) أغاني ١٠٤/١٣ .

(٥) نفس المصدر ١٦٩/١٠ .

ابن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب من بيت العباس^(١)،
وعروة بن أذينة من بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وأشهر
من ترجم لهم أبو الفرج من حلفاء قريش ابن أرقطة^(٢)،
وعبيد الله^(٣) بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وهو من حلفاء بني زهرة
وعداده فيهم ، ثم ابن هرمة^(٤) ، وهو من الخـلـج ، ويقال إنهم
من قريش ، وأدرك العصر العباسي .

وقد ترجم أبو الفرج بجانب هؤلاء القرشيين وحلفائهم جماعة
من شعراء الأنصار المهمين ، وقد كان شعراء الأنصار في المدينة
هذا العصر أكثر نفراً من شعراء قريش . وهذا طبيعي فقد كان
في الأنصار بيوت كثيرة تشتهر بالشعر منذ العصر الجاهلي ، كبيت
حسان بن ثابت ، وقد ترجم صاحب الأغاني لشاعرين منه في هذا
العصر ، وهما عبد الرحمن بن حسان^(٥) ، وابنه سعيد^(٦) . وبجوار
بيت حسان نجد بيت كعب بن مالك ، يقول صاحب الأغاني :
لكعب أصل أصيل وفرع طويل في الشعر ، ابنه عبد الرحمن
شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، ومعن بن عمر بن عبد
الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر ، ومعن بن زهير

(١) أغاني ١٦٢/٢١ . (٢) انظر الأغاني ٢٤٢/٢ .

(٣) نفس المصدر ١٣٩/٩ . (٤) نفس المصدر ٣٦٧/٤ .

(٥) ترجم أبو الفرج لعبد الرحمن بن حسان ترجمة متداخلة مع عبد الرحمن
ابن الحكم ، انظر الأغاني ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣ .

(٦) انظر أغاني ٢٦٩/٨ .

ابن كعب شاعر ، وكلهم مجيد مقدم ^(١) . ووراء هذين البيتين الكبيرين للشعر في هذا العصر نجد كثيراً من شعراء الانصار ترجم لهم صاحب الأغاني مثل النعمان بن بشير ^(٢) والسري بن عبد الرحمن ^(٣) ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً الأصوص شاعر المدينة في هذا العصر غير مدافع . ويأتى في أثر هؤلاء الشعراء من قریش وحلفائهم ومن الانصار طائفة من شعراء الموالي مثل موسى شهوات وكان يلقب بشهوات لأنه كان سئولاً ملجئاً ، وقيل لأن امرأته كانت تقول ما يزال موسى يحننا بالشهوات ، فغلبت عليه ^(٤) . وأصله من أذربيجان ، وقيل ليس بالمدينة شاعر من الموالي إلا وأصله من أذربيجان ^(٥) ، وقد اشتهرت من هؤلاء الموالي أسرة بالشعر هي أسرة يسار النسائي ، فقد كان ابنه إسماعيل شاعراً مهماً ، ترجم له صاحب الأغاني ترجمة مستفيضة ^(٦) ، وكذلك كان ابنه محمد وإبراهيم شاعرين ^(٧) ، وكانت فيهم جميعاً نزعة إلى الشعبيية ، وقد روى صاحب الأغاني شعراً لإسماعيل يفصح في وضوح عن هذه النزعة ^(٨) .

أرأيت إلى هذا الحشد الحاشد من الشعراء الذين عاشوا في المدينة

(٢) أغاني بولاق ١٤/١١٩ .

(١) أغاني ٢٧/١٥ .

(٤) أغاني ٣/٣٥١ .

(٣) نفس المصدر ١٨/٦٥ .

(٥) الشعر والشعراء ص ٣٦٦ .

(٧) نفس المصدر ٤/٤١٢ .

(٦) أغاني ٤/٤٠٨ .

(٨) نفس المصدر ٤/٤١١ وكذلك ٤/٤٢٣ .

لهذا العصر وترجم لهم صاحب الأغاني ، وهو لم يترجم لكل شاعر
 نبت في المدينة حينئذ ، إنما ترجم للمشهورين منهم . وليس من شك
 في أن هذا الحشد يدل دلالة قاطعة على مدى ما كان في المدينة
 من نهضة للشعر ، وهي نهضة واسعة تجعل الإنسان يظن أن أهل المدينة
 كانوا جميعا يصطنعون الشعر في هذا العصر حتى الموالى منهم كانوا
 ينظمونه ويصنعونه .

٢

العصر الغنائي في المدينة

إذا أخذنا نبذة الشعر العربي في المدينة أثناء العصر الأموي
 وجدناه يتفرع إلى فرعين كبيرين : فرع تقليدي ، وفرع غنائي ،
 ونقصد بالاول شعر الهجاء والمدح وما يتصل بهما ، وبالثاني الشعر
 الذي كان يغنى فعلا ، يغنيه المغنون والمغنيات في المدينة ، وقد
 يصحبون غناءهم بالضرب على الأدوات الموسيقية ، وكان موضوعه
 غالبا الحب وما يتصل به .

وإذا أخذنا نقارن بين هذين الفرعين الكبيرين للشعر في المدينة
 أثناء العصر الأموي ، عصر الغناء والمغنين ، وجدنا الفرع الثاني يتفوق
 على الفرع الأول تفوقا شديدا ، سواء في كثرة من مارسوه ، أو في
 كثرة ما جاء منه من نماذج فنية . وتحقيق هذه المسألة لا يحتاج إلى أكثر

من قراءة تراجم الشعراء السابقين في كتاب الأغاني واستعراض
ما خلفوه من شعر . ولعل أول ما يلاحظه قارئ الأغاني على هؤلاء
الشعراء أن أغلب القرشيين منهم لم يعنوا بالشعر التقليدي أى عناية ،
فعبد الله بن الحسن إنما يروى له صاحب الأغاني غزلا ، وكذلك هو
يروى لعبد الرحمن بن أبي بكر ولجعفر بن الزبير وللحسين بن عبد الله
ابن عبيد الله بن العباس . وطبعى ألا يؤثّر عن هؤلاء السادة مديح ،
وفيمن يمدحون ؟ وهم يرون أنفسهم خليقين بالمدح ، وأنه كان أولى
بالشعراء الذين يمدحون ملوك بني أمية أن يمدحوهم ، وهم كذلك
كانوا يرفعون أنفسهم عن الإسفاف وأن ينزلوا من سمائم إلى السب
والقذف ، لذلك كله لم يتركوا مديحا ولا هجاء ، وإنما تركوا شعرا يعبر
عن عواطفهم الخالصة ، وسرعان ما يسمع به المخنون والمخنيات أو
يُسْمَعونه لهم ، فيقبلون على غنائها والترنم به .

ولم يتورط أحد من نبلاء قریش في الشعر التقليدي سوى
عبد الرحمن بن الحكم فقد أغرم بهجاء عبد الرحمن بن حسان . ويظهر
أنه اضطر إلى ذلك ؛ لأن عبد الرحمن كان يكثر من هجاء معاوية وبيته ،
فرد عليه ، وسرعان ما استعر الهجاء بينهما ^(١) . ولعل من الطريف
أن نلاحظ هنا أن عبد الرحمن بن حسان حين أراد أن يهاجم معاوية
ابتكر طريقة سار عليها كثير من شعراء الحجاز وهي أن يهاجمه

عن طريق الغزل بآبنته . وهكذا تغزل في رملة بنت معاوية ، وغازل
ذلك أخاها يزيد فيما يقول الرواة (١) .

ويذهب عبد الرحمن بن حسان فلا يخلفه من يقوم على هجاء بني
أمية ، فقد أذعنّت المدينة لهم منذ موقعة الحرة ، ولعلمها من أجل ذلك
لم يظهر بها شعر سياسي مما ظهر في هذا العصر عند شعراء الأمويين
من مثل الأخطل ، أو شعراء الشيعة من مثل السكيت ، وحتى
ابن الزبير لم يكن له شاعر بالمدينة ، بل حتى عبد الله بن حنظلة لانجد
في المدينة من يرثيه لاهو ، ولا قتلى الحرة ، إنما يرثيه ويرثيهم ابن قيس
الرقيات بقصيدته المشهورة :

ذهب الصّبا وتركت غيّتيه ورأى الغواني شيب لمتيّه (٢)

لم ينم الشعر التقليدي في المدينة هذا النمو الذي أتاح في بيئات
أخرى للشعر السياسي أن يظهر وأن يكبر ، لأن المدينة كانت تتخفف ،
ولم ترد أن تتورط في شغب قد يؤذيها .

أسلمت المدينة لعبد الملك ، ولم يعد يوجد فيها شاعر يعنى بهجاء بني أمية ،
بل إن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ينزع عن مذهب أبيه ، ويتخذ
مذهب المدينة وما كان يشيع فيها من ملق للأمويين ، فيمدحهم
ويصلونه (٣) . وكذلك كان الأحوص يمدح الأمويين وينال صلاتهم (٤) .

(١) أغاني ١٤/١٢٢ . (٢) ديوان ابن قيس الرقيات طبع فيينا ص ١٨٦ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٢٦٩/٨ .

(٤) نفس المصدر ٢٤٨/٤ وما بعدها .

وقد تخصص ابن هرمة في مديح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عامل المدينة لمروان بن محمد ، وفيه يقول ^(١) :

يكاد بابئك من جود ومن كرم من دون بوابه للناس يندلق
وربما كان المدح أكثر شيوعاً في شعراء الموالى بحكم أنهم أجانب
وأن مركزهم الاجتماعي يجعلهم في حاجة إلى التكسب كما يجعلهم أكثر
استعداداً للتذلل والتضرع . وقد كانوا يمدحون النبلاء الذين يجاورونهم
من أهل المدينة ، ولم يكن هواهم على العموم مع بني أمية ، لأن هؤلاء
النبلاء الذين يعيشون معهم لم يكونوا من هوى بني أمية ، ثم بنو
أمية عرفوا بتعصبهم للعرب على الموالى ، فكان ذلك مدعاة لأن يكتبوا
بمدح من يجاورونهم من الأشراف والسادة . ومع ذلك كله نجدهم
يفقدون على الأمويين يمدحونهم وينالون جوائزهم ، ففي الأغاني أن
خلفاء بني أمية كانوا يحسنون إلى موسى شهوات ويدرون عطاءه ،
وتجنيته صلاتهم إلى الحجاز ^(٢) . وكذلك كان إسماعيل بن يسار يفد
عليهم ويحيزونه ، مع أنه كان كالمنقطع إلى عروة بن الزبير ^(٣) .

على أننا إذا أخذنا نقيس مديح هؤلاء الشعراء إلى ما أنتجوه هم
أنفسهم من شعر غنائى فى الحب والغزل غنى فيه المغنون والمغنيات
فى المدينة لم نجد شيئاً مذكوراً . والحق أن من يبحثون عن شعر
المديح فى هذا العصر يذبحى ألا يبحثوا عنه فى المدينة ، إنما يبحثون
عنه فى العراق عند جرير والفرزدق وأمثالهما وفى الشام عند الأخطل

(١) أغاني ١٠٣/٦ . (٢) نفس المصدر ٣٦٥/٣ .

(٣) نفس المصدر ٤٠٨/٤ .

شاعر البلاط الأموي المشهور ومن نهج نهجه .

لم تكن المدينة متفوقة هذا العصر في شعر المديح ، وهي كذلك لم تكن متفوقة في شعر الهجاء ، وليس معنى ذلك أنه لم يوجد فيها هجاء ، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء الذين سميناهم ومعهم الأحوص يعنون بالهجاء أحيانا ، ولكنهم لم يتخصصوا به على نحو ما نجد في العراق التي أنتجت في هذا العصر النقائض المعروفة بين جرير والفرزدق أو بين جرير والأخطل .

ولعل من الطبيعي ألا يسود الشعر التقليدي من هجاء وغير هجاء في المدينة هذا العصر ، لأن المدينة لم تكن محافظة ، ولم تكن تسير في حياتها على النهج الجاهلي ، كما سارت قبائل العراق ، بل لقد كانت مجددة ، وقد غرقت في الترف والنعيم إلى آذانها ، فكان من نتائج ذلك أن نفرت إلى حد ما ، مما يمثل حياة العرب القديمة وخاصة هذه الحياة التي تقوم على الصعوبة في الخلق والخشونة ، فيكون الهجاء ، ثم هي كانت من الثروة والترف بحيث لا تحتاج إلى مال بني أمية وبحيث يضطرها هذا المال إلى أن تسرف في مديحها للأمويين ، ثم هي كانت معارضة لبني أمية ، فلم يطلب منها الأمويون شعراء المديح الذين يباهون بهم الأقاليم الأخرى وشعراءها .

وبجانب ذلك كله كانت المدينة مكتظة بدور الغناء والمغنين والمغنيات ، وكانت هذه الدور تطلب دائما شعرا يُغَنَّى ، وكان هذا الشعر هو الذي يشيع ، لأن أشراف المدينة وسادتها كانوا يطلبونه

لمغنيين ومغنياتهم ، وكانوا إذا فقدوه في المدينة طلبوه في شعر البادية (١) وهل تظن أن أحدا من الشعراء الذين سميناهم اشتهر في المدينة هذا العصر وهو لا ينظم شعرا غنائيا ؟ إنهم جميعا كانوا أصحاب شعر غنائى ينظمونه في قصة الحب . وبهذا الشعر نالوا شهرتهم في عصرهم ، بل إن كثير آ منهم لم يؤثر عنهم شعر تقليدى كأكثر شعراء قریش وبعض شعراء الأنصار من مثل السرى بن عبد الرحمن ، وفيه يقول صاحب الأغاني : « إنه كان أحد الغزلين » (٢) .

وعلى هذا النحو كان كثير من شعراء المدينة يقصر نفسه على الغزل وحكاية عواطف الحب ، إما لأنه من سادتها أو لأنه يريد أن يرضى دور الغناء فيها . وكان من يكون شاعرا من هؤلاء السادة يتخصص بشعره بعض المغنين أو المغنيات ، يغنيه له ، فقد روى صاحب الأغاني أن مالك ابن أبي السمع كان يتغنى (٣) في أشعار الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس .

وكما كان يتخصص بعض المغنين بشعر بعض سادة المدينة كان يتخصص بعض آخر بشعر شاعر ممتاز ولو لم يكن من كبار الأشراف والسادة . وقد كانت المغنيات خاصة تتعلق بشعر الأحوص إذ كن يعجبهن به وبشعره . كانت تعجب به جميلة (٤) وسلامة (٥) وغيرهما .

(٢) أغاني ٦٥/١٨ .

(١) أغاني ٢١٣/٤ .

(٤) أغاني ٢٠١/٨ .

(٣) نفس المصدر ١٧٠/١٠ .

(٥) نفس المصدر ٢٣٧/٨ .

وقد أخذ المغنون يشتهرون بمجموعات من هذه الغزليات
التي كان ينتجها الشعراء ، وكانوا هم يغنون فيها ، فيونس الكاتب يشتهر
بزينبيات ابن هرمة ، وهي قطع كلها في زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن
ابن الحارث بن هشام^(١) ، وحتى عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة
نجدته يشتهر بسعادياته ، وهي سبعة ألحان تذكر فيها كلها سعاد^(٢) .
ومهما يكن فإن هذا الشعر الغنائي كان هو الشغل الشاغل للمدينة
في هذا العصر ، وكان الشعراء يهتمون به اهتماما شديدا ، وقد توفروا
عليه من قرشيين وأنصار وموال كل يريد أن يحدث فيه ما يشتهر به
بين أبناء عصره ، واستطاعوا أن ينهضوا به نهضة واسعة إذ حشدوا
أنفسهم له ، وكادوا ألا يستبقوا من ملكاتهم شيئا لفن آخر ، لا لخطابة
ولا لكتابة ولا حتى لشعر تقليدي . ولعل من أطرف ما يروى في
هذا الصدد أن أحد أبناء المدينة سأل جريرا أن يسمعه بعض شعره ،
وشعره كله على ما نعرف تقليدي : مدح وهجاء ، فأبى عليه أن يسمعه
شيئا قائلا : إنكم يا أهل المدينة إنما يعجبكم النسيب^(٣) .

كانت المدينة بلدة النسيب كما يقول جرير في هذا العصر ، أو كما
نقول نحن بلدة هذا الشعر الغنائي الذي كان يغنيه طويس وسائب خاثر
ومعبد وجميلة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات . وقد استطاعت
المدينة أن تظفر بطائفة كبيرة من الشعراء تجد عندها ما يغنيه هؤلاء

(٢) نفس المصدر ٢٥٤/٩ .

(١) أغاني ٤٠٥/٤ .

(٣) أغاني ٧٦/١ .

المغنون الكثيرون ، بل قل ما يوقّعه هؤلاء المغنون الكثيرون على أدواتهم الموسيقية المختلفة . وسقف قليلا نتحدث عن هذا الشعر ونعرض لأهم مميزاته .

٣

خصائص الشعر الغنائي في المدينة ومميزاته

لعل أول ما يلاحظ على الشعر الغنائي الذي كان يغنيه المغنون والمغنيات في المدينة أنه كان مقظوعات قصيرة ، فهم لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، ومهما أطالوا فلن يتجاوزوا سبعة أبيات إلا في النادر . على أن بعض المغنين كان يأبى أن يغنى في أكثر من بيتين (١) .

وهذه القطعة الصغيرة التي كانت تغنى كانت تختار من الشعر التقليدي أحيانا ، فقد تكون مديحا أو تكون حماسة أو رثاء أو حكمة ، ولكن ليس هذا هو الغالب ، إنما الغالب أن تكون غزلا ، بحيث إذا قلنا إن الغزل كان موضوع الشعر الغنائي في المدينة لم نبعد ، وهو غزل قصير لم يستطع الشعر القديم أن يمد المغنين والمغنيات منه إلا بقطع قليلة ، لأن الغزل لم يكن الموضوع الغالب على الشعر الجاهلي ، إنما كان يغلب عليه الحماسة والهجاء . ومن ثم كان من الضروري أن يجد المغنون والمغنيات حاجتهم من شعر حديث يؤلف لهم ، شعر يكون موضوعه الحب ، حياته وموته ووقائعه ، وليس من الضروري أن يكون قصائد طويلة ،

بل يكفى أن يؤلف الشاعر طائفة صغيرة مختارة من الأبيات فيغنيها
المغنون والمغنيات ويجدوا فيها طلبةً لهم .

وقد أقبل شعراء المدينة على هذا الغزل يؤلفونه ، وأقبل من
ورائهم شعراء البادية وشعراء مكة . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق
أحد في المدينة إلا وهو ينظم من هذا الشعر الذى تطلبه دور اللهو
وقصور النبلاء والأشراف من رجال ونساء كي يغنيه موالين من
مغنيات ومغنين . وهكذا لم تعد المدينة تعنى بالشعر الذى كان يقال فى
حروبها القديمة ، حرب بُمَاحٍ وغيرها ، وكذلك لم تعد تعنى بالشعر
الذى كان يقال فى حروبها مع مكة ، بل إنها لم تعد تعنى بالشعر القديم
كله ، فقد صبت عنايتها على هذا الشعر الجديد الذى كان يحكى قصة
الحب ، ويصور لواعجه وحوادثه . وقد يعنى شاعر المدينة بالمديح فلا
يعنى به الناس ، ولا يعنى به المغنون إلا أن يكون فى خليفة أو أمير
كبير ، وينهبوا إليه يطالبون جائزته ، فيغنوا له بهذا الشعر الخاص ^(١) .
ونقول الخاص لأنه فقد الآذان التى تعنى به فى المدينة ولم تعد
هناك أذن تحب أن تسمع سوى الشعر الحديث الذى يغنى فيه طويس
ومعبد وجميلة وسلامة ومن إليهم ، فهو الشعر العام الذى يستهوى جميع
القلوب والأفئدة .

أصبحت المدينة لا تعنى إلا بهذا الغزل الجديد ، وقد كان يخالف
— إلى حمد كبير — نسيب القدماء ، الذين لم يكونوا يخصصون

(١) أغاني ٢٩٧/١ وكذلك ٢٤٩/٤ وما بعدها .

نسيبهم بمقطوعات خاصة على نحو ما نعرف في هذا العصر ، بل كانوا يسوقون النسيب في مطلع قصائدهم كأنه ليس غايتهم من أشعارهم ، إنما هو يأتي تبعا ، أما في هذا العصر فقد أصبح الغاية كلها . وأيضا فإنهم كانوا يعنون ببيكاه الديار ووصف أثر ارتحال المرأة مع قومها ، أما في هذا العصر فقد كان أهل المدينة مستقرين ، وكذلك كانت ديارهم ، فلم يعد لشعرائهم ولا لمغنيهم حاجة بهذه الصورة القديمة من النسيب إلا حين يريدون أن يقلدوا القدماء .

✕ كان غزل المدينة يختلف في صورته عن النسيب القديم لا بما قدمنا فقط ، بل أيضا من أن الشاعر كان يقصد في القطعة التي بعالجه إلى تصوير حبه وما يلقى فيه من وَصَبٍ وعذاب . وبذلك كان غزله معنويا أكثر من النسيب القديم ، فالشاعر يعنى فيه بحكاية خواطره ، وقلما عنى فيه بوصف المرأة وصفا حسيما ، وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن أغلب غزل المدينة في هذا العصر كان غزلا عفيفا ، ففرق بين أن يكون الغزل معنويا وأن يكون عفيفا ، وقد مر بنا ما كانت تنغمس فيه المدينة من حضارة وترف ، وما كان يشعر به أهلها من حرية في اللهو والعبث والمجون ، وهي حرية جعلت الغزلين منهم يعبرون في صراحة عن متعتهم بالمرأة في شعرهم . وماذا يمنحهم من هذا التعبير ؟ وهم قوم لا عمل لهم إلا الفراغ والا اللهو ، فذلك هي وظيفتهم في الحياة ، وهي وظيفة نعيموا بها حيننا من الدهر ، وكان لا بد للغزل الذي يعبرون به

عن خلجاتهم أن يفصح عن وظيفتهم ، بل قل عن حياتهم ، وهي حياة
 صريحة لا يتكفون فيها حشمة ولا يصطنعون فيها وقارا ✓
 كانت صورة الغزل في المدينة هذا العصر صورة صريحة لا التواء
 فيها ولا عوج ، بل يحكى فيها الشاعر كل ما يقع له مع صواحبه من
 عبث ومجون في استهتار واضح ، ومن هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة
 في هذا العصر غزل إباحي لم نكن مخطئين .

وليس معنى ذلك أن المدينة انتفى منها الغزل العفيف ، وإنما معناه
 أن هذا هو الكثير الغالب ، وقد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب
 شعر عفيف فيه تسام وفيه طهر ، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من
 تغزلوا وعبروا في غزلهم عن مثالية من العفاف والنبل دون سقوط في
 حكاية رغبات جنسية أو لذائذ جسدية على نحو ما نعرف عند فقيه
 المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

وأياضا ينبغي أن نعرف أن غزل الإباحيين أنفسهم كان يختلف
 باختلاف المرأة التي يتغزلون فيها ، فالمرأة العربية الكريمة من قریش
 أو من الأنصار لا يتغزلون بها في حرية على نحو تغزلهم بالقيان من
 الجوارى المغنيات اللاتي كن يُبَغَّعن في الأسواق .

وليس من شك في أن هؤلاء القيان كان لهن أثرهن في شيوع
 الغزل الإباحي بالمدينة وانتشاره ، وكذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت
 البهتان تتشابهان من حيث الحضارة والترف ومن حيث وجود دور
 اللهو وهؤلاء القيان .

ولعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف في البادية عند
جميل وكُشَيْرٍ وأصحابهما ، فقد كانت البيئة غير متحضرة ، ولم يكن
هناك هؤلاء القيان ولا هؤلاء الشبان من أهل المدينة الذين خلعوا
كل حشمة ووقار .

على كل حال كان غزل المدينة في هذا العصر يتميز بألوان من
الإباحية والحرية ، فالشاعر فيه مرسل طليق لا يعوقه شيء عن التصريح
بكل ما يدور في نفسه ومع صاحبه . وقد شاع بين الشعراء بدع جديد
هو أن يقصّروا حوادثهم من غير تحفظ ولا تكلف ، واستمع إلى هذه
القصة ينظمها إسماعيل بن يسار أحد الموالى هناك^(١) :

كَلَّمْتُ أَنْتِ الْهَمُّ يَا كَلَّمْتُ	وَأَنْتُمْ دَائِي الَّذِي أَكْتَمْتُ
أَكَلْتُمُ النَّاسَ هَوًى شَفَنِي	وَبَعْضُ كَتَمَانِ الْهَوَى أَحْزَمُ
قَدْ لُمْتَنِي ظُلْماً بِلا ظَنَّةٍ	وَأَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا الْيَوْمُ
أَبْدَى الَّذِي تَخْفِيْنِهِ ظَاهِراً	أَرْتَدُّ عَنْهُ فَيْكِ أَوْ أَقْدِمُ
إِمَّا بِيَأْسٍ مِنْكَ أَوْ مَطْمَعٍ	يُسَدِّي بِحَسَنِ الْوَدَّ أَوْ يُلْحِمُ
لَا تَتْرَكْنِي هَكَذَا مَيِّتاً	لَا أُمْنَحِ الْوَدَّ وَلَا أَصْرَمُ
أَوْفِي بِمَا قُلْتَ وَلَا تَنْدِمِي	إِنَّ الْوَفَى الْقَوْلَ لَا يَنْدَمُ
إِيَّاهُ بِمَا جِئْتُ عَلَى رِقَبَةٍ	بَعْدَ الْكُرَى وَالْحَيَّ قَدْ نَوَّموا
أَخَافْتُ الْمَشَى حِذَارَ الْعِدَا	وَاللَّيْلُ دَاجٍ حَالِكٌ مَظْلَمُ

ودون ما حاولتُ إذ زرتكم
وليس إلا الله لي صاحب
حتى دخلت البيت فاستندرت
ثم انجلي الحزنُ وروعاته
فتُ فيما شئت من نعمة
حتى إذا الصبح بدا ضوؤه
خرجتُ والوطء خفي كما
أخوك والخالُ معاً والحَمُّ
إليكم والصارمُ اللَهْذَمُ
من شفق عيناك لي تسجُمُ
وغيب الكاشحُ والمُبْرَمُ
يَمْنَحُنِيهَا نَحْرُهَا والهم
وغارت الجوزاءُ والمِرْزَمُ
ينسابُ من مكنيه الأرقمُ

وواضح أن إسماعيل يبدأ قصته بمخاطبة صاحبه كالم، وهو يعلن
أنه حاول أن يكتهم هواها، ويذكر ما كان من لومها إياه ويصف ما
كان منه بعد ذلك، فهو يتردد بين اليأس والطمع، وما يزال بها يباطلها
بما وعدته، ثم يقص علينا وعداً معها، فيروي كيف أنه زارها خلصة
ذات ليلة وقد نام أهلها وورقباؤها، ويصف كيف كان يخفف مشيه حتى
لا يشعر به أحد، وما يلبث أن يدخل بيتها فتبكي وتبلسل خدودها
بالدموع، ثم ينجلي الحزن، أو قل ينجلي أثر المفاجأة، فينعم كل منهما
بصاحبه، حتى إذا بدا ضوء الصباح انصرف إسماعيل كما أقبل، يخفف
من مشيه وسيره، كأنه أرقم ينساب من مكنيه.

أرأيت إلى هذه القصة القصيرة وما تصف في حرية وصراحة بما
إنها مثال هذا الغزل الإباحي الذي شاع في المدينة والذي لم يكن إسماعيل
ابن يسار خير من يمثله، وإنما كان الأحوص الشاعر الأنصاري هو
خير من يمثله حقاً، فقد شاعت في شعره الحرية والصراحة.

وسنعرض للأحوص بالتفصيل في غير هذا الموضع. ومهما يكن
فإن كثيراً من غزل المدينة هذا العصر كان غزلاً إباحياً مكشوفاً.

٤

فصل في خصائص ومميزات الموسيقى

تحدثنا عن خصائص الشعر الغنائي في المدينة وميزاته من حيث
الموضوعات والمعاني التي كان يعالجها ، والمكن لم نتحدث عن موسيقاه ،
ولعل الحديث في هذا الجانب أوفر شأعياً ، وأكثر فروعاً ، فهذا الشعر
الغنائي كان مقطوعات تغني ، أو قل - كما كانوا يقولون - كان أصواتاً
تغني . ومعنى ذلك أن المغنين والمغنيات كانوا يؤدّونهم ويمدّونه أو
يمطّطونه ويضربون عليه بالآتهم الموسيقية ، وقد تضرب عليه جوقة ،
وقد يرقصون ، عليه كما قدمنا في حديثنا عن دار جميلة ، فقد كان غناء
الشعر في هذه الدار يصحب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية بينما
يغني المغنون وقد لا يكتفون بذلك ، فإذا هم يرقصون في أثناء هذا الضرب .
وليس هذا كل ما مر بنا في فصل الغناء السابق ، فقد مر بنا أيضاً
أن هؤلاء المغنين والمغنيات نقلوا إلى العربية أنغاماً وألحاناً أجنبية عن
نشيط وغيره ، وأنهم استطاعوا أن ينقلوا الغناء العربي من حال بسيطة
ساذجة إلى غناء متقن ، أو قل إلى فن له مصطلحاته وتقاليده ، فإذا
بنا نسمع عن ثقیل أول ، وثقیل ثان ، وخفيف ثقیل ، ورمل ، وخفيف
رمل ، وهزج ، وإذا بنا نسمع عن أصابع ، فهذا ثقیل بالنصر أو

بالخنصر في مجرى البنصر ، ونحو ذلك مما عرضنا له في غير هذا الموضع .
 وإنما نذكر ذلك الآن لتسأل هل أحدث هذا الفن الجديد من
 الغناء عند العرب تجديداً أو تغييراً في موسيقى الشعر الغنائي أثناء
 هذا العصر الأموي . وأكبر الظن ، بل أكبر اليقين أن تجديداً أو
 تغييراً في هذه الموسيقى قد حدث ، ويتضح ذلك لمن يقرن موسيقى
 هذا الشعر الغنائي الذي كان يُغَنَّى في المدينة لهذا العصر الى موسيقى
 الشعر الجاهلي القديم ، ونقصد طبعاً موسيقى الشعر الغنائي الذي كان
 يؤلف حينئذ للمغنين والمغنيات ، لا ما كانوا يغنون فيه من الشعر كله ،
 فبعض ما كانوا يغنون فيه كان يختار لهم من الشعر القديم نفسه .

✕ ولعل أول ما يدركه قارئ الأغاني في هذا الصدد أن موسيقى
 الشعر الغنائي الجديد كانت أكثر صفاء من موسيقى الشعر القديم ،
 وكانت لغته أكثر قرباً للناس من لغة الشعر القديم ، فهي تختار من
 اللغة المألوفة ، وقد كان ذلك من أهم الأسباب في أن يصبح هذا الشعر
 الغنائي الجديد شعراً شعبياً . ✕

ويأتى الوزن بعد اللغة ، وهو الآخر قد طرأ عليه كثير من التعديل
 إذ كان المغنون والمغنيات يضطرون مع ألحانهم أن يطيلوا ويمدّدوا
 في بعض حروف التفعيلات البيت وأن يقصروا أو يهـمـسوا في حروف
 أخرى من هذه التفعيلات . وإن ذلك يجعلنا نؤمن بأن موسيقى الشعر
 القديم نفسها تطوّرت تحت تأثير هذا المد والهمس فطالت المسافات

الزمنية في بعض الحروف وقصرت في أخرى . وقد أتاحت هذه الصورة من الغناء للشعراء المعاصرين ، أو قل نهتهم ، أن يحدثوا زخافات وعللا كثيرة في شعرهم . وإن من يدرس هذا الباب في عروض الخليل يعرف الى أي حد يتغير البحر عن صورته حين تدخل فيه هذه الزخافات والعلل ، فالرمل مثلا ووزنه فاعلاتن ثلاث مرات ، حين يلم به الزخاف في جزئه الأول ويصبح فاعلاتن يتغير عن صورته القديمة ، ويصير سريعا لسرعة حركاته . ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعا ، بخلاف الطويلة فتجعله بطيئا ، وتلائم الأولى الموضوعات العنيفة التي تعبر عن عواطف ملتهبة ، بينما تلائم الثانية الموضوعات الهادئة التي تعبر عن عواطف فاترة أو محزنة . وعلى هذا النحو كان الشعراء في المدينة أثناء هذا العصر يُحرِّفون في صورة الوزن القديم تحت تأثير الغناء المعاصر لهم ، تحريفا يضيق ويتسع في تفعيلات الشعر . وإن من يرجع إلى عروض الخليل يدرك مدى هذا التحريف ، فهو أكثر وأوسع من أن نلم به في هذا المكان .

✓ وليس هذا كل ما أثَّر به المغنون والمغنيات في الشعر الغنائي وأوزانه ، فقد أثروا فيه من طريق آخر ، وذلك أنهم كانوا يقبلون على الأوزان الخفيفة ، ويطلبونها ، مما جعل أصحاب الشعر الغنائي في عصرهم يهجرون ، الى حد ما ، الأوزان الطويلة من مثل الطويل والكامل ويقبلون على الأوزان السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهجج ، ولم يكتفوا بذلك ، فقد توسعوا في تلبية نداء المغنين والمغنيات ، فإذا هم يحزنون لهم

الأوزان الطويلة المعقدة ، كما يجزئون لهم الأوزان السهلة البسيطة ، حتى يخففوا عليهم ما وسعهم التخفيف ، وحتى يهينوا لهم الفرصة لتطبيق ألحانهم وأنغامهم على ألفاظ الشعر كما يريدون . واستطاع المغنون حقاً أن ينفذوا من ذلك إلى كل ما كانوا يتمنونه ويحملون به من الوصول ببعض أصواتهم إلى أروع صورة ممكنة لفنهم وغنائهم . ولعل القارىء يذكر ما مر بنا في فصل الغناء عند معبد وأنه كان يقول : « لقد صنعت ألحانا لا يقدر شعبان ممتلئ ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحانا لا يقدر المتسكى أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم » وقد ذكر أبو الفرج لحناً من هذه الألحان التي لا يستطيع أن يغنيها متسكى . حتى يحشو ولا قاعد حتى يقوم وهو :

ولقد قلت والضمير كثير البلايل

ليت شعري تمنياً والمثنى غير طائل

هل رسول مبلِّغ فيؤدِّي رسائل

وكان لحن معبد فيه خفيف ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى (١) ،

وواضح أن هذا اللحن الذي توفرت فيه كل هذه القيم الموسيقية في الغناء والذي كان يقيم الناس ويقعدهم ، وزنه مجزأ أو معدل ، فهو من مجزوء الخفيف . ومن يقرأ الأغاني يخيل إليه أن أصحاب الشعر الغنائي لم يتركوا في هذا العصر وزناً قديماً معقداً أو بسيطاً إلا جزأوه ، ابتغاء تحريف

صورته بحيث تتعادل مع الغناء الحديث . وقد مر بنا في فصل الغناء أن
يونس الكاتب اشتهر بغنائه في الزينديات السبع ، وهي سبع مقطوعات
لابن رهيمة في زينب بنت عكرمة على ما قدمنا . ومن ينظر ^(١) فيها
يجد ثلاثاً من الأوزان غير المجزأة ، وأربعاً من الأوزان المجزأة
وهي قوله :

أَقْصَدْتُ زَيْنَبُ قَلْبِي وَسَبَّتْ عَقْلِي وَلَبَّسِي
وهو من مجزؤ الرمل ، وقوله :

إِنَّمَا زَيْنَبُ هَمْسِي بِأَبِي تَلَكْ وَأُمِّي
وهو أيضاً من مجزوء الرمل ، وقوله :

وَجَدَ الْفَوَادَ بَزَيْنَبَا وَجَدًا شَدِيدًا مُتَشَعِّبَا
وهو من مجزؤ الكامل ، وقوله :

إِنَّمَا زَيْنَبُ الْمُئْنَى وَهِيَ الْهَمُّ وَالْهَوَى

وهو من مجزوء الخفيف ، فكمثرة زينديات ابن رهيمة من الأوزان
المجزأة ، وإن في هذا ما يرمز إلى العصر كله ، إذ كثر الشعر على
الأوزان المجزأة ، وكان الشعراء يصنعون ذلك إرضاء للمغنين والمغنيات
فإن تركوه فإلى أوزان تشبه هذه الأوزان المجزأة كالهزج والمتقارب ،
وكان المغنون والمغنيات يطلبون ذلك بأنفسهم ويلحون في طلبه . روى
صاحب الأغاني أن ابن عائشة المعنى تعرض لعروة بن أذينة ، وطلب منه

قطعة من الهزج يغنى فيها ، وما زال به حتى صنع له قوله :

سَلَيْمَى أَرْمَعَتْ يَيْسَنَا فَأَيْنَ بَوَصْلِهَا ^(١) أَيْنَا ^(٢)

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن بعض المغنين والمغنيات كان ينظم الشعر ، ومعنى ذلك أن من المغنين والمغنيات أنفسهم من كان يقوم بإحداث الملائمة بين الشعر وما يريد من نغم وتلحين . وربما كان أشهر من صنع الشعر منهم في هذا العصر سلامة القس ، وقد روى صاحب الأغاني من شعرها الذي غنت فيه قولها تنذب يزيد بن عبد الملك مولاه ، وهو من مجزوء الرمل :

قَدْ لَعَمْرِي بَتُّ لَيْلِي كَأَخِي الدَّاءِ الْوَاجِعِ ^(٣)

وبجانب سلامة نجد أبا سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً ^(٤) . وما من ريب في أن أبا سعيد وسلامة ومن لف لفهما من شعراء المغنين أحدثوا تغييراً كثيراً في أوزان الشعر تحت تأثير ألحانهم وأنغامهم . ونحن نلاحظ من طرف آخر أن الدورة تمت ، فبما أن بعض المغنين والمغنيات تعلم الشعر ، كي ينظمه حسب ما يريد للحنه ونغمه ، فكذلك تعلم بعض الشعراء الغناء ومصطلحاته ، كي يوفر لشعره ما يريد من نغم ولحن . وخير من يمثل ذلك عروة بن أذينة أحد فقهاء المدينة ومحدثيها ^(٥) ، فقد كان يصوغ الألحان والأنغام على شعره ، وقد روى

(١) هكذا في ابن عبد ربه ٢٣٣/٣ ورواها أبو الفرج تقولها بمعنى تظنها .

(٢) أغاني ٢٣٧/٢ وما بعدها . (٣) أغاني ٣٣٣/٨ .

(٤) نفس المصدر ٣٣٠/٤ . (٥) أغاني ١٦٢/٢١ .

له ابن عبد ربه صوتين مما يغنى فيه الحجازيون (١).

ولعل في هذا كله ما يوضح كيف أن الشعر الغنائي في المدينة لهذا العصر كان يمتاز بخصائص موسيقية كثيرة سواء في لغته أو في أوزانه فقد دخلها تعديل كثير ، تارة عن طريق الزحافات والعلل وتارة عن طريق اختيار الأوزان السهلة البسيطة ، وتارة ثالثة عن طريق تجزئتها بحيث تصبح خفيفة على الفم والسمع ، وبحيث يستطيع المغنون أن يحملوها من قيم الغناء وألحانه وأنغامه ما يريدون .

الفصل الرابع

اتساع موجه الشعر الغنائى

١

الشعر الغنائى بين المدينة ومكة

رأينا المدينة تهض بالشعر الغنائى فى هذا العصر نهضة واسعة وهى نهضة كانت تشاركها فيها مكة ، بل قل كانت تنافسها منافسة شديدة ، وطبيعى أن تنافس مكة المدينة ، فقد كان بها كثرة من المغنين . حقا هى تأخرت عن المدينة قليلا فى النهوض بفن الغناء ، ولسكنها لم تلبث حين عرفت أن أسرفت فيه ، فكان لها مغنون ممتازون مثل ابن مسجج وهو أقدم مغنيها ، وقد اشتهر بنقله إلى العربية ألحانا وأنغاما من الغناء الأجنبى : الفارسى والرومى ^(١) ، وكذلك صنع تليذه ابن محرز ^(٢) .

وينبغى أن لا نفهم من ذلك أن مكة استقلت عن المدينة فى غنائها ، إذ كانت تستمد دائما منها . وآية ذلك أن أشهر مغنيها بعد ابن مسجج وابن محرز وهو ابن سُرَيْج ، تتلمذ على طُوَيْس فى المدينة ^(٣) ، وهو أول من ضرب فى مكة بالعود الفارسى على الغناء العربى ^(٤) ، وكان يغنى

(٢) نفس المصدر ٣٧٨/١ .

(١) أغانى ٢٧٦/٣

(٤) أغانى ٢٥٠/١ .

(٣) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣

في الثقل والخفيف^(١)، فيستوفى النغم الطوال ويحسن النغم القصار. وليس ابن سريج فقط هو الذي كان يأخذ عن أصحاب الغناء في المدينة فقد كان ابن مسجع وابن محرز يذهبان إليها لأخذ بعض الأصوات من المغنين والمغنيات هناك^(٢).

على كل حال كانت مكة تتأثر المدينة في غنائها، وقد اشتهر فيها بجانب من قدمنا الغرير رض تلميذ ابن سريج، وكان غناؤه أشجى من غناء أستاذه، وهو مولى الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر صاحبة عمر بن أبي ربيعة، وكان من موالها أيضا يحيى قيل وسُمِّيَّة^(٣). وبجانب هؤلاء نجد مغنين آخرين مشهورين، وقد ترجم لهم صاحب الأغاني من مثل الهذلي^(٤) وعبادل^(٥) وابن عباد^(٦) ويحيى المسكي^(٧) وإسماعيل بن الحر^(٨) وعمر الوادي^(٩). وكما كتبت مكة بالمغنين اكتظت بالمغنيات^(١٠)، وإن كانت لم تستطع أن تظفر بمثل جميلة وسلامة وغيرهما من مغنيات المدينة الممتميزات.

ومكة إن لم تستطع أن تتفوق على المدينة تماما في فن الغناء فإنها نافستها فيه، كما نافستها في فن الشعر الغنائي، فقد كان لها فيه شعراء

(١) أغاني طبع دار الكتب ٢٧٦/١ (٢) نفس المصدر ١٨٨/٨ .

(٣) انظر ترجمة الغرير في الأغاني ٣٥٩/٢ .

(٤) الأغاني ٦٥/٥ . (٥) نفس المصدر ٩٦/٦ .

(٦) نفس المصدر ١٧١/٦ (٧) نفس المصدر ١٧٣/٦ .

(٨) نفس المصدر ١٠٤/٧ . (٩) نفس المصدر ٨٥/٧ .

(١٠) نفس المصدر ٣١٣/١ وكذلك ٢١٠/٨ .

كثيرون ، وأهم شعرائها عمر بن أبي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات
والحارث بن خالد المخزومي ، والعرجي . وعمر هو أكبر شاعر غنائى
أنشجته حركة الغناء فى مكة لهذا العصر ، وقد ساعدته ظروف مختلفة على
أن ينبغ فى هذا الفن ويشتهر فيه ، فقد كان ثرياً ثراء واسعاً فكان ابن
سريع والغريض يعيشان فى كنفه ويغنيان فى أشعاره ، وكان له جاريتان
فى بيته يغنيانه فى شعره يقال لإحدهما بغوم وللأخرى أسماء^(١) . ولم
يساعده ثراؤه على اتخاذ المغنين والمغنيات وعنايتهم بغناء شعره فقط ،
بل ساعده على شىء آخر مهم وهو أن يقصر نفسه على الغزل وبذلك
لم يتكلف مديحاً ولا فناً آخر من فنون الشعر التقليدى . روى صاحب
الأغانى أن سليمان بن عبد الملك قال له : « ما يمنعك من مدحنا ، فقال
إنى لا أمدح الرجال ، إنما أمدح النساء »^(٢)

تخصص عمر فى فن الغزل وهو أهم موضوعات الشعر الغنائى فى
عصره ، وشعره فى هذا الجانب يعتبر طرقاتاً خالصة فى جمال موسيقاه
وفى صراحته واستهتاره ، أو قل إباحيته . ويخيل إلى الانسان أن عمر
لم يترك فتاة جميلة فى مكة إلا شبيب بها وذكرها ونوه باسمها ، فهو يشبب
بزينب بنت موسى الجمحية^(٣) ، وبابنة عمها ناعم^(٤) ، وبالثريا بنت على
ابن عبيد الله ، ويقول صاحب الاغانى إنه كان مغرماً بها ، وكانت

(٢) نفس المصدر ٧٤/١ .

(١) أغانى ١٦٥/١

(٣) نفس المصدر ٩١/١ وما بعدها (٤) أغانى ٢١٣/٤ .

عُرْضَة ذلك جمالا وتاماً^(١). ولم يكتف عمر بذلك فقد كان يتعرض للنساء الحواجج في الطواف وغيره من مشاعر الحج، ويشبب بهن^(٢). ومن أشهر من شبب بهن ليلى بنت الحارث البكرية^(٣)، ورملة^(٤) بنت عبدالله بن خلف الخزاعية، وفاطمة بنت محمد بن الأشعث السكندرية^(٥) وزوجة^(٦) شيخ النحو أبي الأسود الدؤلي. وهكذا لا يكاد يترك سيدة أو فتاة تشتهر بميسم جمال وتقصد إلى مكة حتى يتعرض لها وينظم فيها غزله.

ولم يكن عمر يتعرض للسيدات والفتيات في مناسك الحج فقط بل بلغ به عبثه أن كان يخرج لاستقبالهن في طرقهن إلى مكة. روى صاحب الأغاني أنه خرج مع ابن سريج على نجميين رحلتاهما ملبستان بالديباج، وقد خضبا النجميين، ولبسا حلتين، فجعلا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل^(٧). وروى صاحب الأغاني أيضا أنه كان يعتمر في ذي القعدة، ويحل، ويلبس تلك الحلل والوشى، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويُسبِّل لمتته، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات، ويتلقى المدنيات إلى مَرٍّ، ويتلقى الشاميات إلى السكديد^(٨). وكل حوادث عمر مع هؤلاء الحواجج وكل

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٤٩.

(٤) نفس المصدر ٢١٤/١ وما بعدها.

(٦) نفس المصدر ١٤٧/١.

(٨) نفس المصدر ٢٢١/١.

(١) أغاني ٢١٢/١.

(٣) أغاني ١٥٧/١.

(٥) نفس المصدر ٨٤/١.

(٧) نفس المصدر ٢٥٨/١.

وقائعه مع غيرهن من فتيات مكة ونسائها ، كل ذلك مصور في شعره
✓ أجمل تصوير ، وهو شعر ينساق كله في التشبيب والغزل .

وكان يعاصر عمر عبید الله بن قيس الرقيات ، وهو أشد قریش
أسر شعراً في الإسلام ^(١) . وإنما لقب الرقيات لأنه شبب بثلاث
نسوة ، سمين جميعاً رقية ^(٢) . وكان زبیری الهوى ، وله في آل الزبير
مدائح كثيرة . وقد مدح من بعدهم عبد الملك بن مروان . ومعنى ذلك
أنه لم يقصر نفسه مثل ابن أبي ربيعة على الغزل ، يقول ابن سلام :
« كان غزلاً ، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبي ربيعة ، وكان عمر
يصرح بالغزل . . وكان عبید الله يشبب ولا يصرح ، ولم
يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر ، وكان انقطاعه الى
آل الزبير ، ^(٣) .

ويأتى بعد ابن قيس الحارث بن خالد المخزومي ، وهو أحد شعراء
قریش الغزلين في هذا العصر ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبي
ربيعة ، لا يتجاوز الغزل إلى مدح ولا هجاء ، وكان يهوى عائشة بنت
طلحة ويشبب بها ^(٤) حين تلم بمكة في حجها . وكان على طريقة عمر
يشبب بالحواج ^(٥) ، وقد ولاه عبد الملك مكة فحج بالناس وحجت
عائشة ، فأرسلت إليه : « أخّر الصلاة حتى أفرغ من طوافي فأخرها »

(٢) أغاني ٥/٧٣

(١) ابن سلام ص ١٣٧

(٤) أغاني ٣/٣١٢ .

(٣) ابن سلام ص ١٣٧

(٥) نفس المصدر ٣/٣٢٩ .

وأُنكر أهل الموسم ذلك منه ، وعلم عبد الملك فعزله ^(١) . وغزل الحارث غزل طريف ، لكنّه لا يلحق غزل عمر في صراحته ولا في تأمّنه وكثرة وقائعه .

وربما كان العرجى أشبه الشعراء المسكينين بعمر ، وهو من أبناء عثمان بن عفان ، فهو من بيت ثروة ويسار ، وسمي العرجى لأنّه كان ينزل عرج الطائف ، وقيل بل لمال كان له في العرج ^(٢) . وقد نحّاه نحو عمر في الغزل وتشبه به فأجاد ، وكان يعيش مثله معيشة لاهية ، وساعده على ذلك ثراء ضخم ، فقد روى الرواة أن جماعةً حدثت فأمر بإطعام الناس وإعطائهم ، وبلغ ما أخرجه حينئذ عشرين ألف دينار ، كما روي أنّه كان يلبس الحاتين قيمتهما خمسمائة دينار ^(٣) .

وكان من سوء حظ العرجى أن هجا محمد بن هشام هجاء مقنعا ، وكان محمد خال هشام بن عبد الملك . فلما ولي الخلافة ولاه مكة ، فمزال يطلب سبيلا إلى العرجى حتى وجده ^(٤) ؛ فأخذه وقيده وضربه ، وأقامه للناس ثم حبسه ، ومكث في حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات ^(٥) . وفي حبسه يقول ^(٦) :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسدادٍ تُخَرِّ
وهؤلاء هم أهم شعراء مكة في هذا العصر ، وكلهم من قریش وقد

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣/ ٣١٧ . (٢) أغاني ١/ ٣٨٥ .

(٣) انظر نفس المصدر ١/ ٣٩٥ . (٤) نفس المصدر ١/ ٤١٠ .

(٥) نفس المصدر ١/ ٤٠٩ . (٦) أغاني ١/ ٤١٣ .

كان وراءهم شعراء كثيرون مثل كثير بن كثير^(١) السهمي ، والفضل
 ابن العباس اللهي^(٢) ثم أبي العباس الأعشى ، وكان من الموالي .
 على كل حال أحدث الغناء في مكة ، كما أحدث في المدينة ، نشاطاً
 واسعاً في الشعر الغنائي ؛ فقد كثرت أصحابه وكثروا يقدمون من أصوات
 أو كما نقول الآن من أدوار ، يغنى فيها المغنون والمغنيات في مكة .
 وينبغي أن نلاحظ هنا شيئاً مهماً وهو أن هذه الأصوات أو الأدوار
 لم تكن تقدم إلى أصحاب الغناء في مكة فقط ؛ بل كانت تقدم أيضاً
 إلى أصحاب الغناء في المدينة ، وكان عمر نفسه يذهب بشعره إلى
 المدينة ويقدمه إلى المغنين ليغنوه فيه ، وكان يعطيهم فيكثر في عطيته من
 أجل ذلك^(٤) . وكما كان يقصد المغنين بشعره كان يقصد دور المغنيات
 وخاصة دار جميلة^(٥) ، وكان العرجي يصنع صنيعة^(٦) . وإن من يرجع
 إلى ترجمة ابن قيس الرقيات في الأغاني يجد أكثر من غنى في شعره
 كانوا مدنيين ، وعلى رأسهم مالك بن أبي السمع الطائي ، ولذلك ترجم
 له أبو الفرج بعده مباشرة . وغير ابن قيس مثل عمر والعرجي كانوا
 شركة بين المغنين في مكة والمدينة .

ويحسن أن نلاحظ هنا أيضاً ملاحظة ثانية بجانب الملاحظة السابقة ،
 وهي أن شعر عمر وغيره من شعراء الغزل في مكة كان في فتيات بلدتهم

(١) انظر أغاني ٢٤٦/١ وكذلك ٣١٩/١ وأيضاً ١٧٧/٩ .

(٢) أغاني طبع بولاق ٢/١٥ (٣) نفس المصدر ٥٩/١٥ .

(٤) أغاني طبع دار الكتب ٢٩٦/٤ . (٥) نفس المصدر ٢٠٦/٨ .

(٦) نفس المصدر ٢٣٠/٨ وما بعدها .

ونسائهما من الأحرار ، وإن تركوهن فإلى الحواج من شريفات العرب
ونبيلاتهن ، وقلما تغزلوا في أمة من الإماء .
ومهما يكن فإن مكة شاركت المدينة في الشعر الغنائي هذا العصر ،
وقد اُفتن فيه أصحابه على صور مختلفة .

٢

فتنة أهل المدينة بالشعر الغنائي

قدمنا في الفصل الثاني من هذا البحث مدى تعلق أهل المدينة
بالغناء ومدى تقديرهم له وإعجابهم به ، وكان الغناء يقترن بهذا الشعر
الغنائي الذي يغنى فيه ، فكان طبيعيا أن ينسحب إعجاب أهل المدينة
بالغناء على الشعر الذي يصحبه . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد
في المدينة إلا وهو يروى هذا الشعر ويرفع صوته به إن كان له صوت
ممتاز ، ومن يرجع إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج يروى هذا الشعر يروى
في كل مكان بالمدينة ، حتى في المسجد ، وعلى لسان أشهر الفقهاء في العصر ،
وأكثرهم تحررا ، فقد روى صاحب الأغاني أن سعيد بن المسيب كان
ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، وقال أبو الفرج : إنه كان كثير
الإنشاد والاستنشاد للشعر (١) .

وإذا كان ابن المسيب يروى الشعر في المسجد فقد كان أهل المدينة

شبابهم وكهولهم يروونه في الطرقات ، وفي ضواحي المدينة ، يدفعهم
في ذلك إعجاب شديد بهذا الشعر ، بل قل فتنة شديدة . روى
أبو الفرج أن إنسانا أنشد عند إبراهيم بن هشام ، وهو وإلى المدينة
قول الأحوص :

إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيةً وإذا أجرٌ إليكم سادرا رَسَنِي
فوثب أبو عبيدة بن عمار بن يامر قائما ، ثم أرخى رداءه ، ومضى
يمشى على تلك الحال ، ويجره ، حتى بلغ العَرَض^(١) ، ثم رجع فقال له
إبراهيم بن هشام حين جلس ما شأنك ، فقال : أيها الأمير إني سمعت
هذا البيت مرة فأعجبني فحلفت لا أسمعه إلا جررت رَسَنِي^(٢) . ولعل
خير من يمثل فتنة أهل المدينة بالشعر الغنائى أبو السائب المخزومي ،
وكان من عبادها ، وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة^(٣) ، ومع
ذلك كان إذا استمع إلى مقطوعات الشعر الغنائى ، وخاصة مقطوعات
الغزل طرب طربا شديدا . روى أبو الفرج أنه سمع رجلا ينشد قول
أبي دهل الجمحي :

أليس عجبيا أن نكون ببلدة كلانا بها ثاو ولا تنكائمُ
فقال له أبو السائب : قف يا حبيبي ، فوقف ، فصاح بجمارية :
يا سلامة اخرجي ، فخرجت ، فقال له : أعد بأني أنت البيت فأعاده ،
فقال : بلى والله إنه لعجيب عظيم ، وإلا فسلامة حرة لوجه الله اذهب
فديتك مصاحبا^(٤) . وروى أبو الفرج أن رجلا كان يشغل عليه أنشد

(١) واد من وديان المدينة فيه زروع ونخيل . (٢) أغاني ٢٦١/٤ .

(٣) أغاني ٢٧٧/١ . (٤) نفس المصدر ١٢٠/٧ .

أمامه غزلاً فأقبل عليه يقول : بأبي أنت ! كنت والله لا أحبك
وتثقل علي ، فأنا الآن أحبك وتخف^(١) علي ، وقد أنشده يوماً إسماعيل
ابن أبي أُوَيْسٍ لَقَيْنَسَ :

تَعَالَى رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا

وَمَنْ بَعْدَ مَا كُنَّا نَطْأُهَا فِي الْمَهْدِ

فَزَادَ كِبَارَ دُنَا وَأَصْبَحَ نَامِيًّا وَلَيْسَ إِذَا مَتْنَا بِمَنْتَقِضِ الْعَهْدِ

وَلَكِنَّه بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَادِثٍ وَزَائِرُنَا فِي ظِلْمَةِ الْقَبْرِ وَاللَّحْدِ

فخلف لا يزال يقوم ويقعد حتى يحفظها ويروها^(٢) . وروى ابن
عبد ربه أنه خرج يوماً هو وابن أبي عتيق يتنزهان ، فقال أبو السائب
لبعض حاجته وعليه طويلته فانصرف دونها ، فقال له ابن أبي عتيق :
ما فعلت طويلتك ؟ قال : ذكرت قول كثير :

أَرَى الْإِزَارَ عَلَى ابْنَتِي فَأَحْسَدُهُ

إِنِّ الْإِزَارَ عَلَى مَا ضَمَّ مُحْسُودٌ

فتصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه ،
فأخذ ابن أبي عتيق طويلته ، فرمى بها وقال له : أتسبقتني أنت إلى بر
الشيطان^(٣) . وروى ابن أبي الزناد قال : « كنت ليلة عند الحسن
ابن زيد ببطحاء^(٤) ابن أزهري نصف الليل جلوساً في القمير ، وأبو السائب

(١) أغاني طبع دار الكتب ١٤٣/٧ (٢) نفس المصدر ١٩٦/٩ .

(٣) ابن عبد ربه ٢٣٩/٣ . (٤) موضع على ستة أميال من المدينة .

المخزومي معنا ، وكان ذا فضل ، وكان مشغوفا بالسماع والغزل ، وبين
أيدينا طبق عليه فريك ، فنحن نصيب منه ، فأنشد الحسن قول داود بن سلم :
ومن يُطِيع الهوى يُعْرِفْ هواه

وقد يُنْهِيكَ بالأمر الخبير
وجعل يمدّ به صوته ويطرّ به ، فأخذ أبو السائب الطبق ، فرمى به
إلى السماء فوق الفريك على رأس الحسن بن زيد فقال له : مالك ويحك
أجننت ؟ فقال له أبو السائب : أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا ما أعدت إنشاد هذا الصوت ومددته كما فعلت !
فما ملك الحسن نفسه ضحكا (١) . وروى أبو الفرج أنه مضى مع
بعض أصحابه إلى العقيق فتناشدا وتحدثا ولم يلبث صاحبه أن
أنشده للعرجي :

بانا بأنعم ليلة حتى بدا
صُبحٌ تلوح كالأغرّ الأشقر

فتلازما عند الفراق صبا

أخذ الغريم بفضل ثوب المغسير

فقال لصاحبه : أعدده علي ، فأعاده ، فقال : أحسن والله ! امرأتى
طالق إن نطق بحرف غيره حتى أرجع إلى بيتي ، ومضى مع
صاحبه فلقيهما عبد الله بن حسن بن حسن فسلم ، ثم قال : كيف أنت
يا أبا السائب ، فقال له :

فتلازما عند الفراق صبايةً

أخذَ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت عبد الله إلى صاحبه ، وقال له : متى أنكرت صاحبك ؟
فقال منذ الليلة ، فقال إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قریش ! ثم مضى
هو وصاحبه فلقيهما محمد بن عمران التيمي قاضى المدينة . . . فسلم
ثم قال كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صبايةً

أخذَ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت محمد بن عمران إلى صاحبه ، فقال له : متى أنكرت
صاحبك قال : آنفا ، فلما أراد المضى . قال له صاحب أبى السائب :
أفدعه هكذا ؟ والله ما آمن أن يتهوّر فى بعض آبار العقيق ، قال :
صدقت ، يا غلام قيدَ البعلة فأخذ القيد ، ووضعته فى رجله ، وهو
ينشد البيت ويشير بيده إليه ، يُرى أنه يفهم عنه قصته ، ثم نزل الشيخ
وقال : يا غلام احمله على بغلتى ، وألحقه بأهله (١) .

ويقول أبو الفرج « كان أبو السائب رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً
يصوم الدهر ، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلاً ، توجه ابنه يوماً
يأتيه بما يفطر عليه ، فأبطأ الغلام إلى العتمة ، فلما جاء ، قال له : يا عدو
نفسه ، ما أخرك إلى هذا الوقت ؟ قال : جزت بباب بنى فلان فسمعت
منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بنى ، فوالله لئن كنت

أحسنْتَ لأحبُّوكَ ولئن كنت أسأت لأضربكَ ، فاندفع يغنى
بشعر كثير :

ولما علَّوْا شَغْباً^(١) تبيَّنت أنه تقطَّع من أهل الحجاز علائق
فلازِلن حُسْرَى ظُلماً ما لم حملنها إلى بلدٍ ناء قليل الأصادق
فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل ، فقالت له زوجته : يا هذا
قد انتصف الليل وما أفطرتنا ، فقال لها : أنت طالق إن كان فطورنا
غيره فلم يزل يغنيه إلى السحر ، فلما كان السحر ، قالت له زوجته :
هذا السحر وما أفطرتنا ، فقال : أنت طالق إن كان سحورنا غيره ،
فلما أصبح قال لابنه : خذ جبتى هذه وأعطني خالقك ليسكون الحباء
فضل ما بينهما ، فقال له : يا أبت ! أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا أقوى
على البرد منك ، قال : يا بني ما ترك صوتك هذا للبرد على سبيلا
ما حييت ،^(٢) .

وإذا كان أبو السائب على صلاحه وزهده وصومه الدهر يطرب
للشعر هذا الطرب ، فغيره ممن لم تكن حياتهم تقوم على الزهد والمبالغة
في الصوم والصلاة كان يطرب طرباً ، لعله أشد من طربه ، حين يستمع
إلى ما كان يحدثه الأحوص وغيره من شعراء المدينة ومكة ، وما كان
يحدثه كثير وغيره من شعراء البادية ، ويغنى فيه المغنون .

وكما كان شباب المدينة وشيوخها يعجبون بهذا الشعر الغنائى

(١) الشغب : منهل بين طريق مصر والشام

(٢) أغاني ٧/ ٢٩٠ .

وخاصة الغزل منه ، كان نساء المدينة أيضاً يعجبهن به إعجاباً واسعاً ، وقد بلغ من إعجابهن به أنهن كن يروينه ، وكانت السيدة سكينة بنت الحسين من أهم النساء اللاتي تعلقن به وبروايته ، وكان ينفذ عليها في دارها المسماة بالبريدى بالعقيق كبار الشعراء المعاصرين لها ، فينشدونها ومن معها من نساء المدينة غزلهم^(١) ، وكانت تجيزهم ، وتعلق عليهم بنقد يدل على ارتفاع ذوق المرأة في المدينة لهذا العصر^(٢) . وكانت عائشة بنت طلحة مثل سكينة تعجب بهذا الشعر الغنائ^(٣) الذي شغل عصرها وأهل بلدتها .

وكانت المرأة الشريفة في المدينة لا تجد حرجاً في أن تذكر بهذا الشعر ، وأن يتغنى الشعراء بها ، لأن في هذا اعترافاً بجمالها وفتنتها ، وكما قيل الغواني يغرهن الثناء ، وأي ثناء أوقع في روع المرأة من الثناء على جمالها وحسنها البارع . وكان المرأة في المدينة كانت ترى في ذكر الشعراء لها ما يعبر عن هذا الثناء ، وعمما بها من إغراء ، ولم تكن ترفض ذلك إلا أن يخرج الشاعر عن وقاره إلى نوع من الحرية والإباحية^(٤) .

ولعل في هذا ما يفسر رضا عائشة بنت طلحة وسكينة وغيرهما على الشعراء حين يذكرون اسمهن في غزلهم ، وكأنما كان هذا الغزل

(١) انظر أغاني ١٥٠/١ و ٣٧٦/٢ وانظر طبعة بولاق ١٧٣/١٤ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٧٤/١٤ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٣٢٠/٣ وما بعدها .

(٤) أغاني ٢٥٤/٦ وما بعدها .

حينئذ يشبه صحافتنا الحديثة ، فكما أنك قلما تجد الآن سيدة تطلب الشهرة ترفض أن ترسم صورتها في صحيفة يومية أو أسبوعية ، فكذلك كان هذا الشعر الغنائى فى العصر الأموى صحافة العصر ، فهو الذى يسجل أخبار النساء الجميلات ، وهو الذى تظهر فى مرآته صورهن المغربية . وما من ريب فى أن ذلك هو الذى جعل المرأة العربية الشريفة تطلبه ، حتى نساء الخلفاء وشريفات بيت بنى أمية كن يطلبنه ، فقد روى صاحب الأغاني أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كي يتغزل بها^(١) ، وروى أيضاً أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء الغزلين أن ينظموا فيها شعرا ، فبعضهم تشجع ونظم فيها ، وبعضهم جبن فاكتمى بالنظم فى بعض جواربها^(٢) .

وقد أشاع إعجاب نساء المدينة وفتياتها بهذا الشعر رقة عامة فيهن ، كما أشاع ظرفا ودماثة ، ولعل مما يصور ذلك أدق تصوير ما رواه صاحب الأغاني من أن تاجرا من أهل الكوفة قدم المدينة بخمير فباعها كلها ، وبقيت السود منها ، فلم تنفق ، وكان صديقا للدارمى أحد^(٣) شعراء مكة ومغنيها ، فشكى ذلك إليه وكان قد نسك ، وترك الغناء وقول الشعر ، فقال له لا تهتم بذلك فإنى سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

(١) أغاني طبع دار الكتب ١٦٦/١ .

(٣) أغاني ٤٥/٣

(٣) أغاني طبع بولاق ٤٩/١١

قِيلَ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخَمَارِ الْأَسْوَدِ مَاذَا صَنَعْتَ بِرَاهِبٍ مُتَعَبِدٍ
 قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ ثِيَابَهُ حَتَّى وَقَفَتْ لَهُ بِيَابِ الْمَسْجِدِ
 وَغْنَى فِيهِ ، وَغْنَى فِيهِ أَيْضاً سَنَانُ السَّكَاتِبِ ، وَشَاعَ فِي النَّاسِ ، وَقَالُوا
 قَدْ فَتَكَ الدَّارِمَى وَرَجَعَ عَنْ نَسْكَهْ ، فَلَمْ تَبْقَ فِي الْمَدِينَةِ ظَرِيفَةٌ إِلَّا ابْتَاعَتْ
 خَمَاراً أَسْوَدَ حَتَّى نَفِدَ مَا كَانَ مَعَ الْعِرَاقِيِّ مِنْهَا ^(١) . وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي
 أَنَّ هَذَا حَادِثٌ بِالْغِثِ الدَّلَالَةِ عَلَى مَدَى مَا كَانَ لِلشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ فِي هَذَا
 الْعَصْرِ مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَالْحَقُّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَنُونَ بِهَذَا الشَّعْرِ
 فَتْنَةً شَدِيدَةً ، وَكَانَتْ فَتْنَتُهُمْ بِهِ تَزْدَادُ حِينَ يَغْنَى فِي دَوْرِ النَّبِيَاءِ
 وَالْأَشْرَافِ وَدَوْرِ الْمَغْنِينَ وَالْمَخْنِيَاتِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ غَرِيباً أَنَّ
 يَعْجَبُ بِهِ الزَّهَادُ وَالنَّسَاكُ ، وَأَنَّ يَطْلُبَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ ، وَأَنَّ يَغْرَقُوا
 جَمِيعاً فِي إِعْجَابِهِمْ وَطَلْبِهِمْ .

٣

فَقَهَاءُ الْمَدِينَةِ يَسَاهِمُونَ فِي الشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ

رَأَيْنَا النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَفْتَنُونَ بِالشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ وَيَعْجَبُونَ بِهِ إِعْجَاباً
 شَدِيداً ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ النَّاسُكَ الْمَشْهُورُ أَبُو السَّائِبِ الْخَزَوَمِيُّ . وَكَانَ مِنْ
 مَظَاهِرِ هَذَا الْإِعْجَابِ وَتِلْكَ الْفَتْنَةِ أَنَّ كَثْرَ مَنْ يَنْظُمُونَ فِي الشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ
 فِي الْمَدِينَةِ كَثْرَةً مَفْرُطَةً ، كَمَا قَدِمْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَحَتَّى فَقَهَاءُ

المدينة أخذوا يشتركون في هذا النظم ، فكان لهم شاعران مشهوران في هذا العصر ، هما عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

أما عُرْوَة فقد كان معدوداً في الفقهاء والمحدثين ، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوي^(١) . وقد تحدثنا عنه في غير موضع ، وقلنا إنه كان يغنى شعره ، وله فيه أصوات معروفة ، وهو شعر كله ينساق في الغزل ، فهو شاعر غَزَل من شعراء المدينة وهو شاعر يغنى شعره ويوقعه ، ويحدث فيه ما يريد من تقطيعات وتمديدات ، وكان لهذا كله أثر في غزله ، فهو غَزَل غَسائى بالمعنى الدقيق ، يكتظ بالموسيقى ، وتتوفر له منها قيم صوتية كثيرة . واستمع إلى هذه القطعة :

جُعِلَتْ هَوَاكَ كَجُعِلَتْ هَوَايَ لَهَا	إِنَّ الَّتِي زَعَمْتُ فُؤَادَكَ مَلَّيْهَا
يَبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا	فَبِكَ الَّذِي زَعَمْتُ بِهَا وَكَلَّا كُفَّيْهَا
لَوْ كَانَ تَحْتَ فِرَاشِهَا لِأَقْلَبَهَا	وَيَبِيتُ بَيْنَ جَوَانِحِي حَبَّ لَهَا
يَوْمًا وَقَدْ ضَخَّيْتُ إِذْنَ لَأَظْلَمَهَا	وَلَعَمْرُهَا لَوْ كَانَ حَبُّكَ فَوْقَهَا
شَفَعَ الْفُؤَادُ إِلَى الضَّمِيرِ فَسَلَّهَا	وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةَ
بَلْبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجْلَّهَا	بِيَضَاءُ بَاكِرِهَا النِّعَمِ فَصَاغَهَا
أَرْجُو مَعُونَتَهَا وَأَخْشَى ذَلَّهَا	لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّمًا لِي حَاجَةً
مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا	مَنْعَتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي
مِنْ أَجْلِ رِقَبَتِهَا فَقُلْتُ لَعَلَّهَا	فَدَنَا فَقَالَ لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ

كان شعر عروة يزخر بالموسيقى على هذا النحو ، فهو شعر مهيأ للغناء ، يغنى فيه صاحبه ، ويغنى فيه غيره . وليس هذا كل ما يميز شعر عروة ، بل هناك ميزة تتصل بمعانيه ، وقد تحدثنا عنها في خصائص الشعر الغنائى بالمدينة وميزاته ، وقلنا إن هذا الشعر كان ينصب على الغزل غالباً ، وإن الغزل فى المدينة كان على ضربين : غزل إباحى فيه صراحة ، وفيه حرية ، وغزل عفيف فيه طهر ، وفيه مثالية . وما من ريب فى أن غزل عروة كان من الضرب الثانى ، وتعليل ذلك واضح فهو فقيه ، وله من تدينه رادع يقيه أن يكون آثماً فى حبه ، أو صريحاً صراحة تؤدى بغزله إلى أن يكون إباحياً مكشوفاً .

وكان يذهب هذا المذهب نفسه فى الغزل العفيف عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعداده فى قريش مثل ابن أذينة ، وجده عتبة أخو عبد الله بن مسعود وله صحبة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وليس من البدرين ، وأبوه عبد الله كان رجلاً صالحاً استعمله عمر بن الخطاب فأحمدته^(١) . وعبيد الله أحد وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث ، وهو أحد السبعة الفقهاء المقدمين من أهل المدينة ، وهم القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار . وكان عبيد الله ضريراً ، وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة

مثل ابن عباس وعمه عبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وروى عنه
 الزهري وابن أبي الزناد وغيرهما من نظرائهما . وكان عبد الله بن
 عباس يقدمه ويؤثره ^(١) ، ويقول الزهري : « أدركت أربعة بحور ،
 عبيد الله بن عبد الله أحدهم » . ويقول أيضا : سمعت من العلم شيئا كثيرا
 فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كأتى كنت في شعب من الشعاب
 فوقعت في الوادي ، وقال مرة « صرت كأتى لم أسمع من العلم شيئا » ،
 وقد أثنى عليه عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فقال « لو كان عبيد الله
 ابن عبد الله بن عتبة حيا ما صدرت إلا عن رأيه ، ولوددت أن لي
 بيوم من عبيد الله غُرْمًا ^(٢) » .

كان عبيد الله بن عبد الله فقيها ممتازا في عصره ، ويكفي أنه كان
 أحد فقهاء المدينة السبعة الذين حمل عنهم الدين والعلم ، وكان إلى ذلك
 موضع إجلال من الخلفاء والأمراء . ومن يرجع إلى ترجمته في الأغاني
 يحده رقيقا ، شديد الحساسية جدا ، فقد روى هشام بن عروة أنه استأذن
 على عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة فردده الحاجب وقال له :
 عنده عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وهو مُخْتَلِّ به ،
 فانصرف غضبان وأرسل إلى عمر :

أَبِنْ لِي فَكُنْ مِثْلِي أَوْ ابْتَغِ صَاحِبًا

كَمِثْلِكَ إِنِّي تَابِعٌ صَاحِبًا مِثْلِي

عَزِيزٌ إِخَائِي لَا يَنَالُ مَوَدَّتِي مِنَ النَّاسِ إِلَّا مُسْلِمٌ كَامِلُ الْعَقْلِ

وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا

إذا لم يؤلّف روحٌ شكل إلى شكل

فبعث عمر إليه من يعذره عنده ويقول: إن عمر يقسم بالله ما علم بأبياتك ولا برد الحاجب إياك فعذره (١). ويقال إن أبا بكر بن حزم مر عليه وهو وال على المدينة فلم يسلم عليه ، فتلومه (٢).

كان عبيد الله رقيقاً مرهف الإحساس ، وقد هياه ذلك لأن يصبح من شعراء عصره الغزلين . وقصة غزله قصة مثيرة ، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة تسمى عَشْمَة ، فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ثم ندم على طلاقها إذ كان يحبها حباً شديداً ، ولكن ماذا يصنع ، لقد قضى الأمر وخرجت من يده ، ويظهر أنه لم يستطع إرجاعها ، فتولع بها وهام ، وأسف أسفا شديداً على ما فاتته منها ، وتكلف في ذلك ألواناً من الخطوب وتعرض لضروب من الألم .

والرواة يملكون بهذا الحادث في حياة عبيد الله مراً سريعاً ، فلا يذكرون لنا شيئاً بعد ذلك ، لا يذكرون لنا كيف كانت علاقة عبيد الله بزوجه في أثناء زواجهما ، ولا كيف تم هذا الزواج ، وحتى ما روي من أشعار عبيد الله رويها عارياً من حوادثه وأخباره ، فأصبحنا لا نستطيع أن نفهم في غزله ، فنرجع بعضاً منه إلى ما قبل زواج عَشْمَة وبعضاً إلى أيام زواجهما ، وبعضاً ثالثاً إلى أيام فراقهما .

ومهما يكن فإن عبيد الله كان شاعراً عاشقاً أقيمت حواجز بينه

وبين من عشقها ، فتولع بها وأغرم غراماً شديداً ، وحاول ، فيما يظهر ، السلوى فلم يجد إلى ذلك سبيلاً ، ماذا يصنع ؟ لم يجد إلا الغزل بنفس به عما في نفسه ، واستمع إليه يقول (١) :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتّم

ولامك أقوامٌ ولو مهمٌ ظلم

فيا من لنفسٍ لا تموت فينقضي عنها ولا تحيا حياة لها طعم
أترك إتيان الحبيب تأمناً ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فدق هجرها قد كنت تزعم أنّه رشادٌ ألا يا ربما كذب الزعم
كتم عبيد الله الهوى ، ولم ينفعه كتمانها ، فقد أضرب به ضرراً بليغاً
فأعلن حبه ، فقلومه الناس ، حينئذ تمني الموت حتى يخلص من تلك الحياة
التي لم يكن يعرف لها لوناً ، والتي أصبح لا يجد لها طعماً ، وهو يعود
إلى نفسه فيجده لا يزال حياً ، وقد هجر صاحبته ، بل هي التي هجرته ،
وهو يذوق الآن هجرها وما قدمت يداه من طلاقها ، خيانه كلها أحزان
وهوم ، أو كما يقول هو عن نفسه (٢) :

أروح بهمّ ثم أغدو بمثله ويحسب أني في الثياب صحيح

وأى حجة ؟ إنها حجة تشبه المرض ، بل قل إنها مرض خالص ، فقد
تركته صاحبته ولم تحاول أن ترجع إليه ، وهو ينتظر أن تلم به فلا تلم ،
فيتحرق حسرة ولوعة ، وسرعان ما تجيش نفسه بالشعر فيقول (٣) :

(١) أغاني ١٤٩/٩ وما بعدها وانظر ابن عبدربه ١٢٦/٣ .

(٢) أغاني ١٥١/٩ .

(٣) أغاني ١٣٨/٩ .

تَغْلِغَلْ حَبُّ عَشْمَةٍ فِي فَوَادِي

فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ

تَغْلِغَلْ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورٌ
صَدَعَتْ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرَتْ فِيهِ

هَوَاكَ فَلَيْمَ فَالْتَأَمَ الْفُطُورُ

أَكَادَ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهَا أَطِيرُ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا يَطِيرُ

غَنَى النَّفْسَ أَنْ أَزْدَادَ حَبًّا وَلَكِنِّي إِلَى صَلَةِ فَقِيرٍ

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ كَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ يَتَغَزَلُ بِصَاحِبَتِهِ هَذَا الْغَزَلُ الرَّقِيقُ

الَّذِي يَعْبُرُ بِهِ عَنْ لَوَاعِجِ حُبِّهِ ، وَكَانَ يُسْأَلُ أَتَقُولُ الشَّعْرَ فِي فَضْلِكَ

وَنَسْكَكَ ؟ فَيَقُولُ : إِنْ الْمَصْدُورُ إِذَا نَفَثَ بَرًّا . وَأُظْهِرَ لَمْ يَبْرَأْ أَبَدًا ،

فَقَدْ كَانَ بَرُّهُ دَائِمًا إِلَى حِينٍ ، ثُمَّ يَصْدُرُ ، فَيَعْمَدُ إِلَى هَذَا الشَّعْرِ يَصِفُ

فِيهِ مَا يَعْانِي مِنَ الْحُبِّ وَمَا يَلْقَى مِنْ آَلَامِهِ .

وَوَاضِحٌ فِي هَذَا الْغَزَلِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ لِعُبَيْدِ اللَّهِ أَنَّهُ يَخْلُو مِنَ الرِّغْبَاتِ

وَاللَّذَائِدِ الْحَسِيَةِ ، وَهَذَا طَبِيعِي ، فَهُوَ فَقِيهِ ، بَلْ هُوَ مِنْ كِبَارِ الْفُقَهَاءِ فِي

عَصْرِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا تَلَمُّ بِهِ نِزَوَاتِ الْجَسَدِ أَوْ قُلْ بِعِبَارَةِ

أَدَقٍّ لَا يَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرَ عَنْهَا فَهُوَ مُتَحَرِّجٌ ، وَهُوَ فِي سَرِيرَتِهِ مَتَمَسِّكٌ

بِدِينِهِ وَطَهَارَةِ خَلْقِهِ ، لِذَلِكَ كُنَّا نَشْعُرُ عِنْدَهُ — كَمَا شَعَرْنَا مِنْ قَبْلِ عِنْدِ

عُرْوَةٍ — بِسَمُوِّ فِي عَاطِفَتِهِ ، بَلْ لَعَلَّهُ يَتَفَوَّقُ عَلَى عُرْوَةٍ فِي ذَلِكَ ، فَهُوَ

أَكْثَرُ مِنْهُ تَحَرُّجًا ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهُ عَشَقًا ، إِذْ لَمْ يَعْرِفْ عُرْوَةَ

بِعَشْقٍ عَلَى نَحْوِ مَا عَرَفَ صَاحِبَهُ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا يَجْعَلُنَا نَحْسُ فِي شَعْرِهِ

بحرارة ولطفة أكثر من إحساسنا إزاء شعر عروية رغم ما فيه من توفر الموسيقى وجمال الأصوات .

ونحن إنما نسجل هذا كله لتنفيذ منسه إلى أن موجة الشعر الغنائى لهذا العصر ، وخاصة ما اتصل منها بالغزل كانت عنيفة وأنه لم يسلم من الإعجاب بها أحد ، بل لقد ساهم فيها الفقهاء ولم يجدوا فيها حرجا ، بل لقد توسعوا فى مساهمتهم ، فلم يكن منهم أصحاب غزل فقط كعبيد الله ، بل كان منهم من ينظمون هذا الغزل ويضعون له الأصوات كما رأينا عند عروية فى غير هذا الموضع

٤

الشعر الغنائى يصح شعرا شعبيا عاما

لعل من الظواهر المهمة فى الشعر الغنائى هذا العصر أنه أصبح شعرا شعبيا عاما تتردد مقطوعاته فى جوانب العالم العربى ، إذ لم يكن للعرب حينئذ صحف يقرأونها سوى الشعر ، فهو صحفهم التى يقرأون فيها حوادثهم وأخبارهم ، ويروون فيها عواطفهم وشعورهم . وكلنا نعرف قصة جرير حين أساء إليه الراعى وابنه فى البصرة فنظم فيه قصيدة طويلة ختمها بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وقد غدا فى المربد فأنشدها ، فثبت الراعى ساعة ، ثم رحل إلى

الشُّرَيْف وهو أعلى دار بنى نمير ، فوجد القصيدة قد سبقته (١) .
ويروى أيضاً أن الحكم بن عبد دل الأسدي كلم محمد بن حسان بن
سعد التيمي ، وكان على خراج الكوفة ، أن يترك لرجل ثلاثين درهما
من خراجها ، فقال : أمتي الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج
أمير المؤمنين شيئاً ، فانصرف ابن عبدل غاضباً ، وهجاه بقصيدة
جاء فيها :

يقول أمتي ربيّ خداعاً

أمت الله حسان بن سعد

فاشتهرت القصيدة حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره
فيقول : عدّ (كلمة لزجر الدواب) ثم يقول بعدها أمت الله حسان بن
سعد . وكان أبوه يسمع ذلك فيقول : بل أمت الله ابني محمد ، فهو
عرّضني لهذا البلاء في ثلاثين درهما (٢) .

وهذان الحادثن اللذان يرويها صاحب الأغاني يدلان على شدة
شيوع الشعر عند العرب ، ومع ذلك فقصيدة جرير وقصيدة ابن عبدل
لم تكونا من الشعر الغنائي الذي يغنى في هذا العصر ، بل كان يتناقلهما
الناس والرواة . وإنما سمقنا ذلك لندل على قابلية العرب لرواية الشعر
وحفظه وإنشاده .

وقد توفر للشعر الغنائي مع هذه القابلية العامة عند العرب شيء

(١) أغاني طبع دار الكتب ٢٩/٨ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ٤١٢/٢ .

مهم ، بل لعله كان أكثر أهمية من هذه القابلية في حد ذاتها ونقصد
أنه كان يغنى . وقد عمل هذا الغناء على إشاعته بين الناس بوسيلتين :
الأولى غناؤه في موسم الحج ، فنحن نقرأ دائماً في أخبار المغنين أنهم
حبسوا الناس في الموسم ، فهذا الغرييض بالمزدلفة يغنى الناس ويحبسهم
عن مناسكهم ^(١) ، وهذا ابن سُرَيْج يغنى فيجعل الحاج يركب بعضهم
بعضاً ^(٢) ، وكذلك كان يصنع ابن عائشة ^(٣) وغيره . وهذه كانت
الوسيلة الأولى إلى إذاعة الشعر الغنائى بين الناس ، والوسيلة الثانية
كانت انتقال الأصوات نفسها من المدينة ومكة إلى الحواضر والبادى
المجاورة في الحجاز ، ثم الحواضر البعيدة في العراق والشام . ولتتخذ
الطائف مثلاً لحواضر الحجاز ، فإنها كانت تتخذ مصيفاً لنبلاء المدينة
ومكة ، فكان المغنون في البلدين ينزلون فيها ، ومن أمثلة ذلك الثريا
صاحبة عمر بن أبى ربيعة ومولاة الغرييض وقيل وسمية ، فإنها كانت
تصيف هناك ^(٤) ، وأيضاً فإن العرجى كان ينزل في عرج الطائف ،
وكان يصحبه بعض المغنين وعلى رأسهم قنند ، مولى عائشة بنت سعد ، وقد
ذكر ذلك في شعره ^(٥) . وليس من شك في أن هؤلاء المغنين جميعاً كانوا
يذيعون هناك شعر الأحوص وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما ممن يغنى
في شعره بالبلدين الكبيرتين . ومن الأدلة التى توضح ذلك عمر الوادى

(١) أغانى طبع دار السكت ٢/٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر ١/٣١٧ . (٣) نفس المصدر ٢/٢٠٨ .

(٤) نفس المصدر ١/٢١٢ . (٥) أغانى ١/٣٩٣ .

معنى الوليد بن يزيد فقد كان من أهل وادى القرى بالحجاز ، ويقول صاحب الأغاني إنه ذهب إلى الحَرَم فتعلم الغناء ، ثم رجع إلى وادى القرى ، فأخذ عنه حكم وذووه من أهل الوادى ^(١) . ومعنى ذلك أننا نجد فى وادى القرى ما نجده فى الطائف من أن المغنين ينقلون الغناء من المدينة ومكة بما فيه من شعر وما فيه من موسيقى . وليس ذلك كل ما نلاحظه فى الحجاز ، فقد كان هذا الشعر الغنائى بما فيه من أصوات لا يشيع فى الحواضر فقط ، بل كان يشيع فى البوادر ، فقد روى عمر الوادى أنه كان يسير ليلة بين الروحاء والعرج ، فسمع إنسانا يغنى صوتا لم يسمع قط أحسن منه ، وهو :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سُدَى بِأَرْضِهَا

أَرَى الْأَرْضَ تَطْوِي لِي وَيَدُنُو بَعِيدِهَا

مِنَ الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا

إِذَا مَا انْقَضَتْ أَحَدُوثُهُ لَوْ تُعِيدُهَا

وكاد يسقط عمر من راحلته طرباً وتبع الصوت ، فإذا هو برجل يرعى غنما ، وإذا هو صاحب الصوت ، فأعلمه الذى أقصده إليه ، وسأله إعادته عليه ، فأعاده عليه مراراً حتى أخذه ، وهو من خفيف الرمل ، وقد قال الراعى فى بعض حديثه لعمر الوادى إني ربما ترنمت به وأنا جائع فأشبع ، وكسلان فأنشط ، ومستوحش فأانس ، ويروى الرواة أن

عمر كان يشعر إزاء الصوت نفس شعوره ^(١).

وعلى هذا النحو كانت أصوات المغنين في المدينة ومكة تنقل
لا إلى الحواضر في الحجاز ، بل إلى البوادي وبين الرعاة . ولم يكن
هذا كل ما اتخذ في نقلها ، فقد نقلت بعيداً حيث المغنون في العراق
والشام ، ولعل مما يدل على ذلك أننا نجد حنيناً الحيرى يغنى في العراق
بشعر للأحوص ^(٢) ، كما يغنى بشعر لسكثير بن كثير السهمي ^(٣) الشاعر
المكي . وقد أمضى الغريض أيامه الأخيرة باليمن ^(٤) وغنى هناك فيما
كان يغنى به في مكة من شعر الغزالي في الحجاز . وسنعرف أن كثيراً
من المغنين والمغنيات في المدينة ومكة قصدوا إلى دار الخلافة في دمشق
حيث غنوا الخلفاء ، ولا بد أنهم كانوا في طريقهم وفي القوافل التي
يركبونها يتغنون أغانيهم .

وليس من شك في أن القوافل لعبت دوراً مهماً في إشاعة هذا
الشعر الغنائي وذيوعه ، فبعد أن كانت هذه القوافل في الجاهلية
تستخدم الحداث أثناء سُرّائها ، أخذت في هذا العصر تستخدم الغناء ،
فابن مسجح يقص علينا أنه ذهب إلى دمشق وكان في القافلة التي
ذهب فيها جوار مغنيات ^(٥) . وأوضح من ذلك أننا نجد من أصحاب
هذه القوافل مغنياً من مغنى المدينة اشتهر في هذا العصر وهو دَحْمان
وكان يُكْرَى إلى المواضع ويتجر ، وليس من شك في أنه كان يغنى

(٢) أغاني ٣٤٢/٢ .

(١) أغاني ٨٦/٧ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ٣٩٩/٢ .

(٣) نفس المصدر ٣٤٣/٢ .

(٥) نفس المصدر ٢٨٢/٣ .

في قافلته ، بل كان يشركه بعض الجوارى . وقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية تغنى في إحدى قوافله فاشتراها منه بعشرة آلاف دينار (١).

وهذا كله أحدث ما يزيد أن نصل إليه وندل عليه من أن الشعر الغنائى أصبح في هذا العصر شعراً شعبياً عاماً ، فالمغنون يرددونه في مواسم الحج وفي حواضر الحواجز وبواديها ، وفي حواضر العراق والشام ، وفي القوافل ، والناس من ورائهم يصنعون صنيعهم .

✓ وقد ساعد على شعبية هذا الشعر أن الشعراء أخذوا يهذبون ألفاظه وموسيقاه على نحو ما قدمنا في غير هذا الموضع ، وقد جعلوا لغته أكثر قرباً للناس من لغة الشعر القديم ، وحتى من لغة الشعر التقليدى المعاصر عند الفرزدق وجريز . ولم تكن لغته هي القريبة من نفوس الناس فقط ، بل كانت معانيه أيضاً ، فهو يدور حول الحب ووقائعه ، بينما يدور الشعر التقليدى حول وقائع قديمة حيث نجد الشعراء يفتخرون بوقائع آبائهم في الجاهلية وحروبهم . ومن الغريب أنهم تركوا وقائع الإسلام وفتوحاته واستمروا يتحدثون عن أيام الجاهلية وحروبها ووقائعها ، وكان ذلك كله لا يقرب من نفوس الناس قُربَ معانى الشعر الغنائى التى دارت فى أكثر أحوالها على الحب ووقائعه . على كل حال كان الشعر الغنائى في هذا العصر يدور على ألسنة الناس فقد أشاعه المغنون وأشاعته سهواته وقرب لغته ومعانيه . وليس من شك في أن ذلك كان إيذاناً بأن يقتحم على الشعر التقليدى عُسر داره في العراق ، ويظفر به ظفراً محققاً على ما سنرى .

نفوس الشعر الغنائى على الشعر التقليدى

رأينا الشعر الغنائى يصبح شعراً شعبياً عاماً ، وكان من آثار ذلك أن أخذت موجته تتسع ، بل قل أخذت تعلو وترتفع وتسير قدماً إلى الأمام ، فإذا هي تكتسح كل الموجات التى تقابلها من موجات الشعر التقليدى ، ونقصد موجات الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وهو اكتساح بدأ فى الحجاز ثم أخذ يمتد إلى الشام ثم العراق عقر الشعر التقليدى .

وأكبر الظن أن القارىء لم ينس ما قدمناه من أن الشعر العربى كان صحف العرب فى هذا العصر ، وهى صحف مختلفة ، تارة تكون رجزاً وتارة تكون شعراً ، وتارة تكون غزلاً وتارة تكون مديحاً أو هجاء ، وقد أخذت تتركز هذه الصحف المختلفة فى دارين كبيرتين : دار الحجاز ودار العراق ، وكانت الدار الأولى مركز الشعر الغنائى ، بينما كانت الثانية مركز الشعر التقليدى . فأما الدار الأولى فقد كانت تصدّر صحيفتها منذ أوائل العصر الأموى ، وكان يوجد بجانبها صحف صغيرة للشعر التقليدى فى الحجاز ، غير أنها لم تلبس أن ابتلعها أو كادت ، وحواتها جميعاً — إلا فى القليل — إلى شعر غنائى .

وعلى هذا النحو أخذت صحف الشعر التقليدى فى الحجاز تختفى واحدة وراء الأخرى ، فكانت لا تظهر إلا فى فترات قليلة ثم ما تلبث أن تنقطع ، وقد تعود إلى الظهور ولكنها سرعان ما تعود

إلى الانقطاع . أما صحيفة الشعر الغنائى فكانت هى الصحيفة الكبرى ، وآية ذلك أن الشعراء لم يكونوا يشتهرون فى هذه البيئة إلا بغزلهم ، فكثير ، مع أن له مدائح فى الأمويين والهاشميين ، إنما يشتهر بشعره فى عزّة ، وابن قيس الرقيات ، مع أن له مدائح فى الأمويين والزيديين ، إنما يشتهر بغزله فى الرقيات ، وهكذا الأحوص إنما يعرف بغزله فى أم جعفر أو فى جميلة أو سلامة . وليس هذا كل أدلتنا على ما نزعناه فهناك دليل ثان وهو أن الشعراء فى الحجاز أخذ بعضهم يقصر نفسه على الغزل الذى كانت تطلبه بيئته ، فلا يتركه إلى غيره من فنون الشعر التقليدى ، على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبى ربيعة .

وبينما كانت هذه الدار الأولى تعنى بإصدار صحيفة الشعر الغنائى وقد أخذت تنصرف على ما حوّلها من صحف الشعر التقليدى حتى اكتسبتها جميعا ، كانت الدار الثانية ، دار العراق ، لا تصدر إلا صحيفة واحدة هى صحيفة الشعر التقليدى ، وخير ما يمثلها نقائض جرير والفرزدق التى كانا ينشدانها فى المربد بالبصرة ، فتذبح على السنة العامة والخاصة هناك لسبب بسيط وهو أنها صحيفتهم اليومية .

ونحن نلاحظ أن أخبار هذه الصحيفة الثانية ، صحيفة الشعر التقليدى فى العراق ، لم يكن لها طرفة أخبار الصحيفة الأولى ، صحيفة الشعر الغنائى بالحجاز ، لأنها انصبت فى الغالب على ذكر وقائع وأحداث وأيام كانت للقوم فى الجاهلية ، وقبلما عرضت لشيء من حياتهم الجارية ، أو حياتهم اليومية الحاضرة . أما صحيفة الشعر

الغنائى فقد كانت صحيفة يومية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فيها يقرأ الناس ما يقع فى مواسم الحج بين شعراء الحجاز والحواج ، وفيها يقرأون ما يقع بين هؤلاء الشعراء وصواحبهم فى المدينة ومكة .

كانت الصحيفتان مختلفان صحيفة تاريخية ، تتحدث عن الماضى البعيد ولا تكاد تلم بالحاضر إلا فى النادر ، وصحيفة إخبارية كل أحاديثها عن الحاضر ، أو قل بعبارة أدق ، إنها مرآة الحاضر بكل ما فيه من أحداث ووقائع . وليس هذا كل ما بين الصحيفتين من خلاف ، فقد كانت الصحيفة التقليدية تخلو من الصور ، فهى جافة ، وإن أتت بصور فهى صور جاهلية ، صور حرب ومتحاربين قدماء ، أما الصحيفة الغنائية فصحيفة حية تمتلئ بالصور وأى صور : صور العذارى والجوارى الجميلات اللاتى قُتِنَّ عبَّاد الحجاز ، واستصبين شعراء المدينة ومكة .

وخلاف ثالث بين الصحيفتين عرضنا له قبل ذلك وهو أن إحداها كانت تعتمد على التلوين ، فهى تعتمد على التصوير من جهة ، وتعتمد على التلوين من جهة ثانية ، بخلاف الصحيفة الثانية ، ونقصد بالتلوين ما كان يصحب صحيفة الشعر الغنائى من موسيقى .

كانت صحيفة الشعر الغنائى تتميز بخصائص كثيرة تتيح لها الانتصار والظفر على الصحيفة التقليدية وكل ما يمثلها ، وقد بدأ هذا الانتصار فى الحجاز نفسه فأصبحت هى الصحيفة التى تتلى هناك ، ولم تعد تظهر صحف للشعر التقليدى إلا لمساماً . ولم يقف انتشار هذه الصحيفة

وتغلبها على الصحيفة الثانية صحيفة الشعر التقليدي عند الحجاز ، فقد أخذت دمشق تسمع بها وكذلك العراق . ولم تطلبها العراق توأ لأنها كانت محافظة مغرقة في المحافظة ، وكانت تجد لذتها في الاستماع إلى ما يتلى في صحيفتها التقليدية ، ومع ذلك فإن أصحاب هذه الصحيفة أنفسهم أخذوا يشعرون بما للصحيفة الأولى ، الصحيفة الغنائية ، من خطر . ولعل ذلك ما جعل المرزوق ، وهو أحد أصحاب هذه الصحيفة يقول حين استمع إلى بعض الشعر الذي سجلته الصحيفة الغنائية : هذا الذي كانت الشعراء تطلبه ، فأخطأته ، وبكت الديار ^(١) ، وكذلك قال صاحبه جرير : « إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه ^(٢) » . ومع ذلك فالمرزوق وجرير لم يُصدَّداً شيئاً في صحيفتهما التقليدية ، بل استمرا يُصدِّرانها على النمط القديم .

لم تسرع العراق إذن إلى التعديل في صحيفتها التقليدية القديمة ، ولعل الشام كانت أكثر منها إسراعاً ، وقد أتاح لها ذلك اتصالها بالمغنين والمغنيات منذ أوائل هذا العصر الأموي ، فإن يزيد بن معاوية كان له ذوق موسيقي ، وهو ابن ميسون بنت بحدل الكلابية ، وكانت تنظم الشعر ، وقد رفضت معيشة دمشق كما يقول الرواة ، وآثرت عليها البادية ، ونشأ ابنها على غرارها يحب الشعر ، وكان يحب الغناء ويطرب للموسيقى وقد طلب المغنين من المدينة فذهبت إليه عزة الميلاء ^(٣) . ومن ذلك الوقت نجد الخلفاء يستقبلون كثيراً من المغنيات والمغنين في دمشق .

(١) أغاني ١/٧٥٠ . (٢) نفس المصدر ١/١٠٦ .

(٣) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٣/٥٩٢ .

ومعروف أنه تلا عصر يزيد عصر مضطرب ، فلا نسمع عن مغنين
ومغنيات ذهبوا من المدينة إلى الشام ، حتى تهدأ الأمور ، ويعتلى
عرش الخلافة عبد الملك بن مروان فنجده يستقبل ابن مسـُـجح
مغنى مكة ويسأله أن يغنيه الغناء الممتقن ^(١) وكذلك استقبل بُدَيْح المليح
مولى عبد الله بن جعفر ، واستمع إليه وأثابه ^(٢). وقد أقام الوليد ابنه
برغم اشتغال جيوشه في فتوح الهند بقيادة محمد بن القاسم والاندلس
بقيادة موسى بن نصير حفل استقبال في دمشق لابن سريج ، مغنى مكة ^(٣).
ولم يكن سليمان بن عبد الملك يعجب بالغناء وكذلك عمر بن عبد العزيز ،
ولم يكن لا يلبث يزيد بن عبد الملك أن يتولى الخلافة فيرسل في طلب
المغنين من المدينة ويقف عليه معبد ومالك وابن عائشة ^(٤) ، وقد اشترى
سلامة القس وحباية .

وهذه الصلة بين الخلفاء في دمشق وبين المغنين والمغنيات في الحجاز
كانت تؤذن بانتصار صحيفة الشعر الغنائى في هذا الإقليم الذى دخلته ،
إقليم الشام ، وهو إقليم لم يكن يشارك مشاركة ذات قيمة في الشعر
الغنائى حتى عصر يزيد بن عبد الملك ، إذ كان يكتفى بقراءة ما يصله من
صحيفة الشعر الغنائى الحجازية على أيدي النashرين من المغنين والمغنيات .
وسرعان ما تحدث المفاجأة فإذا الوليد بن يزيد يُخْرِج ، أو يحاول
أن يخرج ، صحيفة للشعر الغنائى في دمشق نفسها ، كأنه يريد لها أن

(١) أغاني ٢٨٤/٣ (٢) أغاني ١٠/١٤ وما بعدها .

(٣) أغاني ٢٩٧/١ (٤) أغاني ١٠٩/٥ .

تكتفى بهذه الصحيفة الجديدة ، وأن تجد فيها ما تريده من غذاء الشعر والغزل .

وقد كان الوليد شاعرا ممتازا ، وفي كتاب الأغاني ترجمة مطولة له عرض فيها أبو الفرج لشعره الغنائى وما غنى فيه المغنون والمغنيات ^(١) ، وفي موضع آخر حيث يتحدث عن الخلفاء وأولادهم الذين تركوا أصواتا ، نراه يضع فى أعلى طبقاتهم الوليد إذ كان يضرب بالعود ويؤقّع بالطبل ويمشى بالدف على مذهب أهل الحجاز ^(٢) .

وإذن فالوليد كان من أصحاب الشعر الغنائى ، وكان أيضا من المغنين الذين يؤلفون الأصوات ، لم يكن يغنى للناس ، ولكن الناس تناقلوا غناؤه . وما من ريب فى أن هذا يعطى صحيفة الشعر الغنائى عنده طرافة ، فإن الشعر الذى يخرج فيها شعر غنائى تام . ومن يرجع إليه فى الأغاني يحده يتعلق بالأوزان القصيرة المعدلة والمجزوءة ، وليس ذلك فقط ، فقد روى له صاحب الأغاني قطعة من وزن المجتث ^(٣) ، وهو وزن قصير حديث نظن أنه كان أول من نظم فيه .

واستمرت هذه الصحيفة الغنائية فى الشام تصدّر طوال حياة الوليد قبل خلافته ، وفى أثناء خلافته ، ويظهر أنه لم يكن لها أنصار كثيرون ، فنحن لا نجد شاعرا غنائيا فى الشام بجانب الوليد بن يزيد ، وكان من نتائج ذلك أن صحيفته التى كان يصدرها هناك انقطعت بمجرد

(١) انظر ترجمته فى الأغاني ١/٧ وما بعدها .

(٢) أغاني طبع دار السكتب ٢٧٤/٩ . (٣) أغاني ١٧/٧ .

قتله ولم تعد للظهور ، إنما تظهر هذه الصحيفة في إقليم جديد يتناولها من أيدي شعراء الحجاز والوليد بن يزيد ، ويحقق لها من النجاح كل ما كان يحلم به أصحابها سواء في الشام أو في الحجاز ، ونقصد إقليم العراق الذي أخذ يتصل بحركة الغناء والمغنين في الحجاز على نحو ما بينا ذلك في فصل الغناء والمغنين .

✕ ونحن لا نصل إلى العصر العباسي حتى نجد كثيرين من أهل العراق عربا وموالي يتعاونون على إصدار صحيفة الشعر الغنائي هناك ، وساعد على ذلك أن الدولة اهتمت بهذه الحركة ، وأصبحت لاتجد مغنيا مشهورا في الحجاز إلا وهو يفرع إلى العراق . وقد تكونت هناك مدارس للغناء والموسيقى ، وكثر فيها الأساتذة والتلامذة كثرة مفرطة ، بحيث غطت هذه المدارس على حركة الغناء القديمة في الحجاز .

لم يعد للحجاز شأن في الغناء والموسيقى حينئذ ، فقد تركهما للعراق كما ترك معهما صحيفة الشعر الغنائي التي كان يصدرها ، فلم نعد نسمع عن شاعر غنائي كبير يظهر في الحجاز مثل عمر بن أبي ربيعة أو الأخوص ، بل اقتصر ذلك على العراق وشعرائه من مثل بشار ومطيع بن إياس وأبي نواس والعباس بن الأحنف وهلم جرا .

ولا نستطيع أن نعرض ببيان واضح لمدى ما كان للصحيفة الغنائية في العراق من شيوع وانتشار ، ونشاط وازدهار ، لأن ذلك يخرج عن موضوعنا ، لكن يكفي أن نقول إننا لا نجد في العراق ،

شاعراً مشهوراً في القرن الثاني إلا وتؤسس شهرته على ما يخرج من الشعر الغنائي . ومعنى ذلك أن صحيفة الشعر الغنائي انتصرت أخيراً في العراق على الشعر التقليدي ، وقد جدد الشعراء ، تحت تأثير الغناء والموسيقى ، كثيراً في الأوزان ، كما جددوا في اللغة والأساليب ، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك . على أنه ينبغي ألا ننظر أن صحيفة الشعر التقليدي انقطعت تماماً في العراق ، فقد بقي منها بقايا ، أهمها ما يتصل بالمديح وكانت تصدر هذه الصحيفة أعداداً متتالية حين يقف الشعراء بأبواب الخلفاء والوزراء والأمراء فيمدحونهم ويأخذون جوائزهم .

ونرى من كل ما سبق أن صحيفة الشعر الغنائي انتصرت انتصاراً واسعاً على صحف الشعر التقليدي ، سواء في الحجاز أو في العراق أخيراً ، فقد أصبحنا لا نكاد نسمع عن نقائض جرير والفرزدق ، إذ هجرها الناس والشعراء إلى هذا الشعر الجديد الذي يخف على الأسماع والأفواه .

الفَصِيلُ الْخَامِسُ

الأحوص

أكبر شاعر غناني في المدينة

١

نسب الأحوص وعيانه وصفاته

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله^(١) بن عاصم بن ثابت من بني ضُبَيْعَة ابن عمرو بن عَوْفٍ من الأوس^(٢). وكان يقال لبني ضبيعة في الجاهلية بنو كَسَرِ الذهب^(٣). ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن حياة الأحوص إلا ما يروى عن جده عاصم من أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه بعثاً فقتله المشركون ، وأرادوا أن يصلبوه فحتمه الدَّبْرُ ، وهي النحل ، فلم يقدروا عليه ، حتى بعث الله عز وجل الوادي في الليل ، فاحتمله السميل فذهب به ، ولذلك يقال له حمى الدبر^(٤) ، وقد افتخر الأحوص بذلك فقال :

(١) هكذا نسب الأحوص في الأغاني طبع دار الكتب ٢٢٤/٤ ، وفي طبقات بن سلام ص ١٣٧ أنه ابن عبد الله بن محمد بن عاصم ، وانظر ابن سعد القسم الثاني من الجزء الثالث ص ٣٣ .

(٢) يقول ابن سلام إنه خزرجي ، انظر الطبقات ص ١٣٧ .

(٣) أغاني ٢٢٤/٤ . (٤) انظر ابن سعد في الجزء السابق ص ٣٣ .

وأنا ابن الذي حَمَتْ لِحَمِّهِ الدُّبُّ —

— رُ قَتِيلِ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ (١)

وليس في كتب التاريخ ما يروى بعد ذلك عن جد الأحوص الأدنى عبد الله ولا عن أبيه . أما أمه فهي أُمِّيَّة بنت عُمير بن مُحْشِيٍّ ، وليس بين أيدينا ما يوضح شخصيتها ولا شخصية أسرتها وقد افتخر الأحوص بخال له فقال :

غَسَّائَتْ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبْ —

— رَارُ مَيْتًا طَوْبِي لَهُ مِنْ صَرِيعِ (٢)

وغسيل الملائكة هو حنظلة بن عامر من بني ضبيعة (٣) بن عمرو ابن عوف من الأوس ، قتل في وقعة أحد ، فقال عنه النبي إن حنظلة لتغسله الملائكة (٤) . وإذا صح أنه خال أدنى للأحوص وأن أمه من أسرته يكون أوسيا أبا وأما .

واسم الأحوص — كما رأينا — عبد الله ، وإنما لقب الأحوص لِحَوْصٍ كان في عيذه وهو ضيق يعتري مُؤَخِّرِ العين . وكان الأحوص — إلى ذلك — أحمر شديد الحمرة ، ووصفه الفرزدق فقال : كأنه وَحَرَّةٌ (٥) ، والوحرة يَعْسُوب أحمر ينزل الأنبار .

(١) أغاني ٢٢٤/٤ وكذلك ٢٣٤/٤ واللحيان حتى من هذيل .

(٢) أغاني ٢٣٤/٤ . (٣) طبقات ابن سعد ٤٦/٥ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/٣ .

(٥) أغاني ٢٣٢/٤ .

ومن يقرأ أخبار الأحوص في كتاب الأغاني يحس أنه كان فيه
 نزق ، بل حمق وطيش ، فقد روى الرواة أن سكينه بنت الحسين
 ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم وافتخرت به ، فافتخر هو عليها بأبيه
 حمي الدبر وخاله غسيل الملائكة^(١) . وبأبي سكينه حمت أباه الدبر
 وغسلت خاله الملائكة ! . ويروي الرواة أنه قدم البصرة فتزوج ابنة
 رجل من تميم ، وخرج بها إلى المدينة ، وكانت أختها عند رجل في
 طريقها ، فقالت له : اعد لي إلى أختي ، ففعل ، فذبحت لها وأكرمتها ،
 ثم جاء زوجها ، وكان في إبله ، فلما رآه الأحوص اقتحمته عينه وازدراه
 لقبحه ، وقال توا^(٢) .

سَلامُ اللَّهِ يا مَطرُ عَلَيمَا وليس عَلَيمُك يا مَطرُ السَّلامِ
 فطَاقَها فَلَسْتَ لَها بِكَفٍ وإلا عَضَّ مَفرَقُكَ الحِسامُ
 وليس كل ما يلاحظ على الأحوص الطيش والحمق ، فنحن نلاحظ
 عليه أيضا ميلا إلى الخصومة والشر مما يدل على أنه كان حادَّ الشعور ،
 وهي حدة تحولت إلى هجاء كل من حوله ، وبذلك ملأ قومه شرا .
 روى صاحب الأغاني أنه أقبل يوما حتى وقف على معن بن حميد
 الأنصاري أحد بني عمرو بن عوف بن جحجج بن جحجج فقال :

رَأيتُكَ مَزهُواً كَأَن أَباكُم
 صُهيْبَةَ أَمسى خَيرَ عَوفٍ مُرَكَّبَا

تَقَرُّ بِكُمْ كُوثَى (١) إِذَا مَا نُسَبِّتُهُمْ

وَتُنْكَرُكُمْ عَمْرُو بْنُ عَوْفٍ بْنُ جَخَجَبِي

عَلَيْكَ بِأَدْنَى الْخَطْبِ إِنْ أَنْتَ نَلْتَهُ

وَأَقْصِرْ فَلَا يَذْهَبُ بِكَ التَّيْهَ مَذْهَبًا

فَقَامَ إِلَيْهِ بَنُوهُ وَمَوَالِيهِ ، فَقَالَ : دَعُوا الْكَلْبَ ، خَلِّوا عَنْهُ ، لَا يَمْسُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ ، فَانْصَرَفَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرَاءِ بَقِيَ بَاءُ لَقِيهِ ابْنُ جَرِيرٍ أَحَدُ بَنِي الْعِجْلَانِ ، وَكَانَ ضَابِطًا ، فَقَالَ لَهُ الْأَحْوَصُ :

إِنَّ بَقْوِمَ سَوْدُوكَ لِحَاجَةٌ إِلَى سَيِّدٍ لَوْ يَظْفَرُونَ بِسَيِّدٍ

فَأَلْقَى ثِيَابَهُ ، وَأَخَذَ بِجِلْدِ الْأَحْوَصِ ، وَمَعَ الْأَحْوَصُ رَاوِيَتَهُ ، وَجَاءَ النَّاسُ لِيَخْلَصُوهُ ، فَخَلَفَ لَثْنُ خَلَصَهُ أَحَدٌ مِنْ يَدَيْهِ لِيَأْخُذَنَّهُ ، وَلِيَدْعُنَ الْأَحْوَصَ ، فَخَنَقَهُ حَتَّى اسْتَرْخَى ، وَتَرَكَهُ حَتَّى أَفَاقَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُلْ مَمْلُوكَ لِي حُرٍّ ، لَئِنْ سَمِعَ أَوْ سَمِعْتَ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ النَّاسِ لَا ضَرْبَ بَنِكَ ضَرْبَةً بِسَيِّفٍ أُرِيدُ بِهَا نَفْسَكَ ، وَلَوْ كُنْتَ تَحْتَ أَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، فَأَقْبَلَ الْأَحْوَصُ عَلَى رَاوِيَتِهِ فَقَالَ : إِنْ هَذَا مَجْنُونٌ ، وَلَمْ يَسْمَعْ هَذَا الْبَيْتَ غَيْرَكَ ، فَيَا بَاكَ أَنْ يَسْمَعَهُ مِنْكَ أَحَدٌ (٢) .

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ كَانَ الْأَحْوَصُ يَسِيرُ مَعَ الْأَنْصَارِ هَذِهِ السَّيْرَةَ مِنْ هَجَائِهِمْ ، وَكَانُوا يَسِيرُونَ مَعَهُ هَذِهِ السَّيْرَةَ مِنْ إِهَانَتِهِ وَازْدِرَائِهِ ، وَلَمْ يَكُونُوا وَحْدَهُمُ الَّذِينَ يَزْدُرُونَهُ ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ يَزْدُرُونَهُ أَيْضًا ، رَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي أَنَّهُ مَرَّ بِعَبَادِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ

ومحمد بن مصعب بن الزبير بخيمتي^(١) أم معبد، وهما يريدان الحج وكان آيبا
من عند يزيد بن عبد الملك، وهو على نجيب له فاره ورَحْل فاخر
وبزة مرتفعة، فحدثهما أنه قدم على يزيد بن عبد الملك، فأجازه وكساه
وأخدمه^(٢)، فلم يرهما يهشان لذلك، فجعل يقول: خيمتي أم معبد،
عباد ومحمد، كأنه يروض القوافي للشعر يريد قوله، فقبال له محمد بن
مصعب: إني أراك في تهيمته شعر وقواف، وأراك تريد أن تهجونا،
وكل مملوك لي حر لئن هجوتنا بشيء إن لم أضربك بالسيف مجتهدا على
نفسك، فقال الأحوص: جعاني الله فداك إني أخاف أن تسمع
هذا في عدوا، فيقول شعرا يهجوكم به فينحلنيه وأنا أبرئكما الساعة،
كل مملوك لي حر إن هجوتكما ببيت شعر أبدا^(٣).

ولعل في هذا كله ما يدل على أنه كان ذا عاطفة جامحة، وأن هذه
العاطفة تحولت إلى هجاء من حوله من قرشيين وأنصار، حتى أصدقائه. روى
صاحب الأغاني أنه لما أراد الخروج إلى يزيد بن عبد الملك نهض صديق
له كان هو صديقه الوحيد من بني جهمجي، فجهزه وقام بجوائحه وشيعه،
فلما ركب الأحوص أقبل عليه فقال: لا أخلف الله عليك بخير، فقال
مه غفر الله لك! فقال الأحوص: لا والله أو أعاصيها حربا^(٤)،
وطبيعي أن يكون الأحوص بسبب هذا الشر كله منبوذا
من قومه في المدينة، وأيضا فإنه كان ضعيف الخلق لا يبالى

(١) موضع بين مكة والمدينة

(٢) أعطاه خادما .

(٣) أغاني ٢٤٢/٤ .

(٤) أغاني ٢٤٠/٤ .

أحداً (١) ، فتحاماه الناس وابتعدوا عنه لسفاهة لسانه وسفاهة خلقه جميعاً .

وأحس الأحوص أنه غريب في قومه ، فهم يزورون عنه كلما لقوه ، فماذا يصنع ؟ لقد رأى أن يُوَلَّى وجهه نحو دمشق وأن يتصل ببني أمية ، فهم الذين يستطيعون إذا قربوه أن يفرضوه على قومه فريضا . وهكذا ذهب يستعين بهم ، ودفعه إلى ذلك أنه لم يكن مُشْتَرِياً ، وأنه أراد أن يدفع بهم شر الحاجة . وقد قربوه منهم ، وأجزلوا له في مكافأتهم ، حتى لنراه يقول (٢) :

وما كان مالى طارفاً من تجارة
ولكن عطايا من أمام مبارك

تملا الأرض معروفًا وجوداً وسؤدداً

فبنو أمية هم ثروة الأحوص وتجارته التي يستمد منها ما ينفقه . ويظهر أنها كانت ثروة وتجارة ممتازة ، فقد روى صاحب الأغاني أنهم أعطوه في إحدى قصائده لهم عشرة آلاف دينار (٣) ، وأعطوه في أخرى مائة ألف درهم (٤) ، ومن هنا كان الأحوص يكثر من مديحهم . ولعل ذلك كان من أسباب كراهية أهل المدينة له ، فقد عرفنا قبلاً أنهم لم يكونوا من هوى بني أمية ، بل إن بني أمية كانوا يستأجرون الشعراء

(٢) أغاني ٨/٩ .

(٤) نفس المصدر ١٧٢/٩ .

(١) أغاني ٢٣٣/٤ .

(٣) نفس المصدر ٨/٩ .

من أمثال الأخطل طجانهم. وكان شعراء المدينة من أمثال عبد الرحمن ابن حسان يردون على الأخطل وأمثاله هجاءهم ، ويهجون معهم معاوية وابنه يزيد .

أما اليوم ، فقد ظهر الأحوص ، ودفعه قومه ، فاندفع إلى الأمويين يتقرب إليهم بقصائده ومدائحه ، التي يبالغ فيها ما شاءت له المبالغة ، حتى ليتمكن أن نعهده من شعراء البيت الأموي في هذا العصر ، ولو أن ديوانه بين أيدينا لاستطعنا أن نفهم في وضوح هذا الجانب من شعره ولكنه مفقود ، ولم يبق منه إلا قطع في كتب الأدب ، وأهمها الأغاني ، ومع ذلك فقد رُوي له شعر في الوليد بن عبد الملك وفي يزيد أخيه ، وهو في هذا الشعر لا يقف عند وصفهما بأنهما كريمان شجاعان من بيت شريف ، بل ينفذ إلى إمامتهما الدينية في الناس ، واستمع إليه يقول في الوليد (١)

إمام أتاه الملك عفو ولم يشب	على ملكه مالا حراما ولا دما
تخيره رب العباد لخلقه	وليا وكان الله بالناس أعلما
فلما ارتضاه الله لم يدع مسلما	لبيعته إلا أجاب وسلاما
ينال الغنى والعز من نال وده	ويرهب موتا عاجلا من تشاما
وإن بكفيه مفاتيح رحمة	وغيث حيا يحيي به الناس مَرُهما (٢)

وهذه نعمة لاشك في أن الوليد وغيره من بني أمية كانوا يعجبون بها ، وكان المغنون ما يفتأون يغنونهم فيها . والحق أن الأحوص كان

يغالى في مدحهم ، إذ كان يمدحهم على نحو ما يمدح الشيعة أئمتهم . لا يمدحهم
بالسياسة والحزم ، كما يمدحهم الأخطل مثلاً ، وإنما يمدحهم بأنهم أئمة
الله ، اختارهم لخلقهم ، وكأنه يرد بذلك على الشيعة الذين يزعمون أن النبي
أوصى لعلي ، واستمرت الوصية تتابع في أبنائه . وهو أيضاً يرد عليهم
ما يدعونه على الأمويين من سفك الدماء والظلم على نحو ما نجد عند
الكهيت في هاشمياته ، فهذا الوليد لم يسفح دماً ولم يثب ما لا حراماً ، وإن
يكفيه مفاتيح رحمة يفتح بها على الناس أبوابها ، وسحب كرم يرسل
بها على الناس غيثها .

وبمثل هذا الشعر كان الأحوص يأخذ من بني أمية الألوف
وكانوا يرسلون في طلبه (١) . وتروى كتب (٢) الأدب أنه مدح عبد العزيز
ابن مروان ، ويظهر أنه طلبه وهو في مصر ، كغيره من شعراء الحجاز ،
فذهب إليه . وتدل أخباره أنه كان كثير التقلب في البلاد وأنه كان
يذهب إلى العراق ، وأكبر الظن أنه كان يذهب لمديح بشر بن مروان
كعبة الشعراء ومقصدهم هناك . وليس بين أيدينا ما يدل على أنه قصد
عبد الملك بن مروان ، ولكن المعقول أن لا يمدح أخاه عبد العزيز وإلى
مصر ويترك الخليفة وراءه .

وليس من شك في أن هذه الصلة التي عقدتها بينه وبين بني أمية كانت
تتيح له أن يسير سيرته المعوجة التي عرف بها في المدينة ، فليس هناك
وال يستطيع أن ينال منه لأنه شاعر سادته الذين يولونه ، وما زال

هذا شأنه حتى تولى سليمان بن عبد الملك ، وكانت فيه شدة ، فولى على المدينة أبا بكر بن حزم ، وكان هو الآخر لا يقل عن مولاه شدة . ويروى أن سليمان أرسل إليه أن يخصى الخنثين في المدينة لما سمع من إفسادهم لنسائها فخصاهم ^(١) .

ولما رأى أشراف المدينة شدة الخليفة الجديد وشدة ابن حزم وإليه ، تقدموا إلى هذا الوالى يشكون الأحوص وسيرته ، وقيل بل تقدموا إلى سليمان نفسه ، فشكوا إليه الأحوص وأنه يشبب بنسائهن ^(٢) ، فكتب إلى ابن حزم يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البأس ^(٣) للناس ، وصدع ابن حزم بما أمره ، فجلد الأحوص مائة ، وأقامه على البأس ، فكان يصيح :

ما من مصيبة نكبة أمني بها

إلا تعظممني وترفع شاني
وتزول حين تزول عن متخمط ^(٤)

تخشى بواذره على الأقران
إني إذا خفي اللئام رأيتني

كالشمس لا تخفى بكل مكان
إني على ما قد ترون محسد

أنمي على البغضاء والشنان

(١) أغاني ٢٧١/٤ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ٢٣٣/٤ وكذلك ٢٣٩/٤ وانظر ٢٤٦/٤ .

(٣) البأس جمع بلاس وهي غرائر كبار يجعل فيها اللبن وبشعر عليها من ينسك به .

(٤) متخبط : متكبر

أَصْبَحْتُ لِلْأَنْصَارِ فِيمَا نَابَهُمْ

خلفاءً وللشعراءِ من حَسَّانِ (١)

وما زال الأحوص واقفا على البلس حتى جاءه بنوز ريق من الخزر ج
فدفعوه عنه واحتملوه (٢). والأحوص يأسى في هذه الأبيات على نفسه ،
ويقول إنه أصبح خلفاء للأَنْصَارِ فِيمَا نَابَهُمْ . ولكن لا يظن القارىء
أنه استشعر بعد ذلك أو قبل ذلك مأساة الأَنْصَارِ فِيمَا حَلَّ بِهِمْ أَثْنَاءَ
العصر الأموي ، فإنه لم يكن يستشعر شيئا من هذا أبدا ، أما البيت
فهو لا يعدو فكرة طارئة لم يكن لها أى ظل وراءها . وآية ذلك أنه
أخذ يهجو ابن حزم جزاء لما صنع به ، ولكنه كان يفرق دائما بينه وبين
بنى أمية ، حتى يُنَحِّسَهُمْ بعيدا عن خصومته معه ، واستمع إليه يقول : (٣)

أَهْوَى أُمَيَّةٌ إِنْ شَطَّتْ وَإِنْ قَرُبَتْ

يوماً وأهدى لها نُصْحِي وَأَشْعَارِي

لا تَرِثِينَ لِحَزْمِي رَأَيْتَ بِهِ

ضُرّاً وَلَوْ أَلْقَيْتُ الْحَزْمِيَّ فِي النَّارِ

الْبَاخِسِينَ بِمِرْوَانَ بَذَى خُشْبِ

والمقحمين على عثمان في الدار

لم يحاول الأحوص أن يهجو سليمان بن عبد الملك لجلده إياه ، بل
لقد استمر ، كما يقول ، يهدى إليه وإلى غيره من بنى أمية أشعاره . وإن في

(١) أغاني ٢٣٦/٤ وكذلك ٢٤٠/٤ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٨/٤ .

(٢) أغاني ٢٣٩/٤ .

هذه الآيات ما يكشف عن ضعف خلقه ، فهو يحاول أن يوقع بين ابن حزم ومن ولوه من بنى أمية ، إذ يرميه بأن آباءه أعانوا على قتل عثمان يوم الدار ، كما أعانوا على إزعاج الأمويين وعلى رأسهم مروان من وادى ذى خشب القريب من المدينة قبل وقعة الحرة . ولعل في ذلك ما يكشف ، من بعض الوجوه ، عن موقف الأحوص من خصومة أهل المدينة لبنى أمية ، وأنه لم يكن يحس شيئا من هذه الخصومة .

وقد رجع الأحوص بعد جلد ابن حزم له وتشهيره به يعلن محبته للأُمويين وأنه يهواهم ، كما رجع يهدى إليهم أشعاره . روى الرواة أنه لما توفي سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز وفد عليه مع كثير ونصيب ، وامتنع عليهم عمر ، لأنه كان يكره أن يجيز على الشعر ، ولكنه عاد فأذن لهم ، وأنشده الأحوص قصيدة بديعة يقول فيها :

رَأَيْتُكَ لَمْ تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ يَمْنَةً

وَلَا يَسْرَةَ فَعَلَ الظُّلُومُ الْمُجَادِلِ

وَلَكِنْ أَخَذْتَ الْقَصْدَ جَهْدَكَ كُلَّهُ

وَتَقَفُوا مِثَالِ الصَّالِحِينَ الْأَوَائِلِ

فَقَلْنَا وَلَمْ نَكْذِبْ بِمَا قَدْ بَدَأْنَا

وَمَنْ ذَا يَرُدُّ الْحَقَّ مِنْ قَوْلٍ عَاذِلِ

وَلَوْلَا الَّذِي قَدْ عَوَّدْتَنَا خِلَافَهُ

غَطَارِيفُ كَانَتْ كَالْيُوثِ الْبَوَاسِلِ

لما وَخَدَتْ^(١) شهر ابرحلى جَسْرَةً^(٢)

تَفْلُ متون البسيد بين الرواحل

ولكن رجونا منك مثل الذى به

صُرِفْنَا قديما من ذويك الأفاضل

فإن لم يكن للشعر عندك موضع

وإن كان مثل الدر من قول قائل

وكان مصيياً صادقاً لا يعيبه

سوى أنه يُبْنَى ببناء المنازل

فإن لنا قُرْبى ومحض مودّة

وميراث آباء مَشَوْا بالمناسل

فدادوا عدوّ السّلم عن عُقْرِ دارهم

وأرْسَوْا عمود الدين بعد تمايل

ويقول الرواة إن عمر أعطاه ثلاثمائة درهم^(٣) . وعاد الأحوص

إلى المدينة ، وكان ابن حزم لا يزال عليها . ويظهر أن الأحوص

أخذ يسير سيرته القديمة ، فرفع الناس أمره إلى ابن حزم ، وكان

صدره مُوْغَرّاً عليه لكثرة أهاجيه فيه ، فكتب إلى عمر بأمره

(١) وخذت : أسرع

(٢) الجسرة : الناقة السريعة

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٧ وما بعدها ، وانظر الأغاني طبع

دار الكتب ٢٥٦/٩ وما بعدها .

فبعث اليه أن ينفيه إلى دهلك^(١). ونفاه ابن حزم واستمر هناك طوال
خلافة عمر، ولم تنفعه قصائده الكثيرة التي يترضاها بها ويستعطفه،
واستمع اليه يقول في إحدى هذه القصائد^(٢):

أيا راكباً إما عَرَضْتَ فبَلَّغْنِ
هُدَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَسَائِلِ
وَقُلْ لَأَبِي حَفْصٍ إِذَا مَا لَقَيْتَهُ
لَقَدْ كُنْتُ نَفَّاعاً قَلِيلِ الْغَوَائِلِ
أَفَى اللَّهِ أَنْ تُدْنُوا ابْنَ حَزْمٍ وَتَقْطَعُوا
عُرَى حُرُمَاتٍ بَيْنَنَا وَوَصَائِلِ
وَكَيْفَ تَرَى لِلْعَيْشِ طَيْباً وَلَذَةً
وَخَالَك^(٣) أَمْسَى مُوثِقاً فِي الْحَبَائِلِ

وما طمع الحزمي في الجاه قبلها
إلى أحد من آل مروان عادلٍ
وشئ وأطاعوه بنا وأعانه
على أمرنا من ليس عنا بغافلٍ

(١) دهلك: جزيرة في بحر القلزم بينها وبين بر الصين نحو ثلاثين ميلاً. وانظر
في الخبر هنا الأغاني طبع دار الكتب ٦٤/٩. ويلاحظ أن الروايات مضطربة فيمن
نفي الأحوص إلى دهلك هل هو عمر أو سليمان بن عبد الملك كما في الأغاني ٢٤٦/٤
ووقفنا بينها معتمدين في ذلك على شعر الأحوص نفسه، فجعلنا سليمان أمراً بالجلد وجعلنا
النفي لعمر بن عبد العزيز.

(٢) أغاني ٦٥/٩ (٣) يشير إلى رحم بينهما.

وقد تحول في بقية القصيدة يهجو ابن حزم ، ويعلن أنه رجا منه الصلح ، حتى إذا بلغ منه ما يريد التفت إلى الشامتين به ، يعلن أن مثل هذه النكبة لا تفل من قوته وعزيمته . وهذه معان فيها شيء من القوة والصبر على البلاء الذي نزل به ، ولكن بجوانبها أبيات وأشعار أخرى فيها تخاذل وتضرع إلى عمر أن ينقض ما أبرم فيه ، كأن يقول : (١)

هل انت أمير المؤمنين فإنني بودك من ود العباد لقانع
متمم أجر قد مضى وصنيعة لكم عندنا أو ما تعد الصنائع
فكم من عدو سائل ذي كشاحة

ومنتظر بالغيب ما أنت صانع
ولم يغنه مثل هذا التضرع عند عمر ، ولما أرسل إليه من أشعار أخرى ، وهي كلها تنحو هذا النحو من التوسل والتزلف بالرحم والقرابة ، واستمع إليه يقول في قصيدة أخرى : (٢)

ألا صلة الأرحام أذننى إلى الشقى
وأظهر فى أكفائه لو تكرما
فما ترك الصنوع الذى قد صنعته

ولا الغيظ منى ليس جلدا وأعظا
وكنا ذوى قربنى لديك فأصبحت
قربتنا شدياً أجده (٣) موصراً

(١) أغاني ٦٦/٩ . (٢) أغاني ٢٤٩/٤ وقد ذكر أبو الفرج سببا آخر القصيدة .

(٣) التمدى الأجد : اليأس لا غذاء فيه .

وكنْتَ وما أمّلتُ منك كبارق

لوى قطره من بعد ما كان غيماً

وقد كنت أرجى الناس عندي مودّة

ليالى كان الظنُّ غيباً مُرجّماً

أعدّك حرزاً إن جنيت ظلامه

وما لا ثريّاً حين أحمل مغرماً

تداركُ بعُتبي عاتباً ذا قرابة

طوى الغيظَ لم يفتح بسخطٍ له فما

ولم ينفعه ذلك شيئاً ، ولم يخلّ سبيله عمر . ويقال إن رجلاً من

الأنصار أتوا عمر فكلّموه فيه ، وسألوه أن يعفو عنه ، فلم يقبل

شفاعتهم ، وقال والله لا أردّه ما كان لى سلطان^(١) . فمكث في منفاه بقية

ولاية عمر وصدر من ولاية يزيد بن عبد الملك ، إذ كانت عنده جارية

مغنية من صواحب الأحوص القديمت في المدينة ، وهى حباة ، فأرسل

إليها الأحوص بشعر يمدح فيه يزيد ، وتوسّل إليها أن تغنيه به ، حتى

يعفو عنه ، فصنعت ، وغنّته هذا الصوت :

أيّها المخبّرى عن يزيدٍ بصلاحٍ فداك أهلى ومالى

ما أبالى إذا يزيدُ بَقى لى من تَوَلّيت به صروفُ الليالى

وواضح أنه يعرّض في البيت الثانى بعمر ، ويستبشر بولاية يزيد .

ولما سمع يزيد من جاريته الصوت قال من يقول هذا؟ قالت الأحوص
وهتونت أمره ، وكتبته في أمانه فأَمَّنَه ^(١) ، وكتب اليه برده وحمله
اليه ، وأنفذ اليه صلات سنية ، فلما قدم اليه أدناه وقربه وأكرمه ،
ويروى الرواة أنه قال له يوما في مجلس حافل : والله لو لم تَمُتْ إلينا
بحق ولا صهر ولا رحم إلا بقولك :

وإني لأستحييكم أن يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطمئع
لكفك ذلك عندنا ولم يزل يناديه وينافس به حتى مات ^(٢) .

أصبح الأحوص شاعر يزيد المقرب منه ، وقد أخذ يرد له جميله
وحسن صنيعه بقصائد عذبة بديعة ، لم تبق منها إلا بقايا ، احتفظ بها
كتاب الأغاني . وهي تدل على إخلاصه لسيده الذي رد اليه حريته .
ولم يكتف الأحوص بهذه المدائح وما قدم لمولاه ، فقد تعرض لخصومه
يهجوهم ويثقلهم في هجائهم ، وورطه هذا الهجاء في بلاء كثير . روى
صاحب الأغاني أن يزيد بن عبد الملك بعث حين قتل يزيد بن المهلب
في الشعراء ، يأمر بهجاء يزيد بن المهلب ، منهم الفرزدق وكثير
والأحوص . فقال الفرزدق : لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح
ما امتدحت بمثلها أحدا ، وإنه لقميح بمثل أن يكذب نفسه على كبر
السن ، فليعفى أمير المؤمنين ، فأعفاه ، وقال كثير : إني أكره
أن أعرض نفسي لشعراء أهل العراق إن هجوت بنى المهلب . وأما

الأحوص فإنه هجّاهم . ثم حدث أن بعث به يزيد بن عبد الملك إلى الجراح الحكيم وهو بأذربيجان ، وقد كان بلغ الجراح هجاء الأحوص بنى المهلب ، فبعث إليه بزق من خمر ، فأدخل منزل الأحوص ، ثم بعث إليه خيلاً فدخلت منزله ، فصبوا الخمر على رأسه ، ثم أخرجوه على رؤوس الناس ، فأثروا به الجراح ، فأمر بحلق رأسه ولحيته ، وضربه الحد بين أوجه الرجال والأحوص يقول : ليس هكذا تُضرب الحدود ! فجعل الجراح يقول : أجل ولكن لما تعلم . ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يعتذر ، فأغضى له عليها ^(١) ، لما كان له من قوة العصية هناك .

وعاد الأحوص إلى دمشق يجر أذياله . ويظهر أن حياته لم تطل بعد هذا الحادث كثيراً ، فنحن لا نجد له أخباراً مع من جاء بعد يزيد من الخلفاء ، ويقول الرواة إنه توفي بدمشق بعد مرض ألمّ به ^(٢) .

٢

غزل الأموص

ليس من شك في أن شعر الأحوص يعتبر صورة طريفة للشعر والفن في المدينة أثناء العصر الأموي . والغزل هو أهم خطوط هذه الصورة وأكثرها بهجة ورؤاء . وطبيعي أن يبرع الأحوص في الغزل

(١) أغاني ٢٥٥/٤ وما بعدها .

(٢) انظر الأغاني ٢٦٨/٤ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٣٢/١

لأنه كان متعة نفسه ومتعة أهل المدينة من حوله . وقد تحدثنا عن هذا الجانب قبلا ، وصورنا كيف كان أهل المدينة أصحاب صباية وغزل ، وكيف كانوا يفتنون بالشعر الذى يقص خواطر العشاق والمحبين فتنة شديدة ، حتى عبادهم وزهادهم لم يبرءوا من هذه الفتنة .

واستطاع الأحوص أن يدمهم فى هذا الجانب بفيض لا ينضب من حكاية العشق والصباية بالمرأة والإفصاح عن لواجع الحب وما يصيب به أصحابه من عذاب ووصب ، بل قل ما يصيب به أصحابه من سقم ، كلما أرادوا أن يشتفوا منه زادوا سقما على سقم ، ولعل ذلك ما جعله يردد (١) :

إذا قلت إنى مُشتَفٍ بِلِقائِها فمُ التلاقى بيننا زادنى سُقما
فاللقاء والقرب من صاحبته كل ذلك ينشر حوله جوًّا مريضَ الأنفاس ،
ولسكنه مع ذلك جو فيه لذة لا توصف . وقد كان الأحوص يشعر
بذلك شعوراً متأسلاً فى ذات نفسه ، ولعله من أجل ذلك كان يقول (٢) :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدُرْ ما الهوى

فكُنْ حَجراً مَن يابس الصَّخْر جَلَمَداً
فالحياة فى رأى الأحوص هى العشق ، ومن لم يعشق ينبغى ألا
يعتبر نفسه حياً ، لأن الشعور بالحياة ينقصه ، وما الحياة بدون عشق؟ إنها
تصبح ، فى رأيه ، ظلاماً خالصاً ، بل إنها تفقد الإنسان حسه ، وتجعله
حيواناً شديد الغباوة ، بل حجراً من الصخر شديد القساوة .

الأحوص إذن من الشعراء الغزلين الذين يتعمق العشق أفندتهم
لأنهم يؤمنون بأنه نعيم الدنيا إن خلت من أشعته انطفأت فيها بهجتها
الحقيقية، وأطبق الظلام من كل جانب . ليست الحياة في رأى الأحوال
شيئاً مذكوراً إن هي خلت من العشق ، ولقد كان يقول ذلك في إيمان
عميق ، ولذلك كان يعلن دائماً أنه لن ينسى حبه حتى يوم الحشر يوم
تبلى السرائر (١) :

سَتَبْقَى لَهَا فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحِشَا

سَرِيرَةُ حُبِّ يَوْمِ تَبْلَى السَّرَائِرُ

حبه إذن لن ينتهى بموته ، بل سيحشر معه ، ولن ينساه في هذا اليوم
يوم الروع والفرع الأكبر ! واستمع إلى هذا البيت الذى يصور
حقيقة العاشق وما يعتريه من كرب الوجوم حين يلقى صاحبتَه (٢) :

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً

فَأَبْهَتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أَجِيبُ

فهو يعبر تعبيراً دقيقاً عن لحظة المفاجأة وما يصحبها من حيرة
فى نفس العاشق حتى لينعقد لسانه . ولعل أجمل ما نظمته فى هذا
الباب تلك المقطوعات التى ناجى بها صاحبتَه أم جعفر ، وهى نسيده
من بنى خطمة من الأوس ، وكان يكثر فيها من التشبيب والغزل ، ومن
شعره البديع فيها (٣) :

(٢) أغاني ٢٤٧/٤ .

(١) أغاني ٢٤٨/٤ وخزاه الأدب ٢٣٣/١ .

(٣) أغاني طبع دار السكتب ٢٥٥/٦ .

لقد منعتُ معروفها أمَّ جعفرٍ
 وإنِّي إلى معروفها لفقيرُ
 وقد أنكرتُ بعد اعتراف زيارتي
 وقد وَاغَرْتُ فيها علىَّ صدورُ
 أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ
 بأبياتكم ما درتُ حيث أدورُ
 أزور البيوت اللاصقاتِ ببيتها
 وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ
 وما كنت زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى
 إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزورُ
 أزور على أن لست أنفك كلياً
 أتيت عدوّاً بالبنان يُشيرُ

وهو يستهل هذه القطعة بأن أم جعفر تتدلّل عليه وتمنع، ويقول
 الرواة إن أخاها أيمن كان يتوعده ويهدده، وإنه استعدى عليه وإلى
 المدينة في خبر طويل ذكره صاحب الأغاني (١). ولعل ذلك ما جعل
 الأحوص يتعلّق بها ويشتدّ تعلّقه، فيضع فيها شعراً كثيراً، إذ أحس في
 حبها شيئاً من الحرمان، وكان يحبها من أعماق نفسه، ولم يستطع
 لقاءها فاشتعل قلبه حباً. وزاده اشتعالاً أنه كان لا يجد سبيلاً إلى رؤيتها،

فكان يزور البيوت اللاصقات ببيتها ، وكان يكثر من الدوران حول دارها ، لعله يشقى ما به من سقم وعشق ، ولسكن أنسى له الشفاء ، وأيمن يبادره العدا ، وتبادره هي بالجفاء ، بل بالتسكر والاستخفاء . ولقد تجالذ يوماً هو وأيمن بسببها فأصلاه سياتا حامية^(١) ، وكان ذلك سبباً - على ما يظهر - في أنه ابتعد عن الدوران حول بيتها ، وقد ذهب يعبر عن ذلك في تذلل لها وضراعة ، يقول^(٢) :

وإني لآتي البيت ما إن أحبه

وأكثر هجر البيت وهو حبيب

وأغضى على أشياء منكم تسوءني

وأذعني إلى ما سرّكم فأجيب

أبشك ما ألقى وفي النفس حاجة

لها بين جلدی والعظام ديب

لك الله إني واصل ما وصلتني

ومُثْنٍ بما أوليتني ومُثِيب

وأخذ ما أعطيت عفواً وإني

لأزور عما تكرهين هيوب

فلا تتركی نفسی شعاعاً فإنها

من الحزن قد كادت عليك تذوب

فقد تعود أن يهجر بيتها ، أو بعبارة أدق ، البيوت اللاصقات ببيتها ،

عَوَّده ذلك أيمن وسياطه ، ومع ذلك فهو لا يزال يذكرها ، ويغضى
على ما تصنعه هي وما يصنعه أيمن ، رجاء أن تمن عليه ببقاء أو نظرة ،
وكانت امرأة عفيفة ، وسيدة شريفة ، وكان ذلك حرياً أن يدفع الأحوال
عنها ، ولكنه استمر في غزله واستمر يطلب إليها كما نرى هنا أن تصله
وأن تعطيه ولو عفوا ، وما كانت تعطيه شيئاً ، بل لقد جعلته يوماً يشهد
أمام الناس أنه لا يعرفها . روى صاحب الأغاني أنه لما أكثر الأحوال
من ذكرها جاءت منتقبة ، فوقفت عليه في مجلس قومه ، وهو لا يعرفها
فقال له : اقض ثمن الغنم التي ابتعتها مني ، فقال : ما ابتعت منك شيئاً ،
فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه ، وبكت وشكت حاجة ومُضِرَّ آوفاقة ،
وقالت : يا قوم كلوه ، فلامه قومه ، وقالوا اقض المرأة حقها ، فجعل
يحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها ، فكشفت وجهها وقالت ويحك ! أما
تعرفني فجعل يحلف مجتهداً أنه ما يعرفها ولا رآها قط ، حتى إذا استفاض
قولها وقوله ، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا مادار ، وكثر لغتهم
وأقوالهم ، قامت ، ثم قالت : أيها الناس ، اسكتوا ثم أقبلت عليه ، وقالت :
يا عدو الله صدقت ! والله مالي عليك حق ولا تعرفني ، وقد حلفت على
ذلك ، وأنت صادق ، وأنا أم جعفر ، وأنت تقول : قلت لأم جعفر
وقالت لي أم جعفر في شعرك ، فنجعل الأحوال وانكسر عند
ذلك (١)

وأكبر الظن أن الأحوص لم يكن محظوظا عند حرائر المدينة ،
 لا عند أم جعفر ولا عند غيرها ، ولعل ذلك ما جعله يعرض عن
 الحرائر جملة فيقول ^(١) :

ثنتان لا أدنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب
 أما الخليل فلست فاجعه والجار أوصاني به ربّي
 ولسنا ندرى أكان يقول الأحوص ذلك عن إخلاص ونية
 صادقة ، أو كان يقوله ساخرأ مزدريا للحرائر جميعا ؟

ولكن إذا كان الأحوص مكروها أو منبوذاً عند حرائر المدينة
 فقد كان محبوباً عند الإمام من مغنيات المدينة اللاتي يغنين في نواديها
 الموسيقية ، وكان محظوظا خاصة حظوة ممتازة في دار جميلة ، إذ كان
 الشاعر الذي يعطى هذه الدار ما تغني فيه من شعر وغزل . وليس ذلك
 فقط ، بل لقد كان يعشق ما في الدار من مغنيات ويتخذ منهن خدينيات
 وعشيقات له ، وكأنه كان عاشقا للجمال أين حلّ أو تصور ، لا يهمه
 أن تكون المرأة التي يتغنى بها عربية ، إنما يهمه أن تكون جميلة بارعة
 الحسن ، ولا يعنيه بعد ذلك شيء منها ، لامن تاريخها ولا من ماضيها .
 وهنا يفترق الأحوص في غزله من شعراء الحجاز الذين نعرفهم ، سواء
 شعراء البادية أو شعراء الحاضرة ، أما شعراء البادية فقد كانوا يتغزلون
 بنساء بدويات من مثل عزة وبثينة وليلى ، وأما شعراء الحاضرة فقد
 كانوا يتغزلون بالنساء الجميلات من الحاضرة ، وكانوا يختارونهن من

العرب ، وقلما نجد شاعرًا يتغنى بقينة أو أمة ، ولنضرب لذلك مثلاً عمر ابن أبي ربيعة زعيم الغزاليين في مكة ، فإنه كان يتغزل في الحواج من العربيات ، وكانت صواحبه اللاتي أكثر من الغزل فيهن قرشيات من مكة ، فالثرياء ونُدُهم وزينب كلهن قرشيات مكيات ولكن ارجع إلى ما روى صاحب الأغاني للأحوص من غزل فستجد أكثره في هؤلاء المغنيات من الإماء الأجنبية اللاتي كن يغنين في المدينة من أمثال جميلة والذلفاء وسلامة وعقيلة العقيقيّة .

والأحوص حين يتغزل في هؤلاء المغنيات لا يتغزل عابثاً على نحو ما يتغزل عمر بن أبي ربيعة ، ولكنه يتغزل في صدق ، فهو يحبهن حباً عميقاً يتغلغل إلى ذات نفسه . ويظهر أنه تعلق أول الأمر بجميلة ، إذ يقول صاحب الأغاني إنه كان معجباً بها ، وكان لا يكاد يفارق منزلها إذا جلست^(١) ، ومن شعره فيها وقد غنت فيه^(٢) :

وإن يَقلِ الناسُ لي عاشقٌ فأين الذي هو لم يَـعشَقْ
ولم يَـبكِ نِـؤْياً على عَبْرَةٍ بداء الصَّبابةِ والمـعَلَقِ
فهو يعلن عشقه لجميلة وأنه مريض منها بداء الصبابة ، وجميلة تعجب به وبشعره وتغنيه فيه ، ويغنيها فيه معبد^(٣) وغيره من المغنين والمغنيات الذين يغنون في دارها . ومن شعره فيها أيضاً قوله^(٤) :

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣٣١/٨ (٢) نفس المصدر ١٨٤/٨ .

(٤) أغاني ٢٣٢/٨ .

(٣) نفس المصدر ٢٠١/٨

وبالقفر دارٌ من جميلة هيجت

سوالف حبٍّ في فؤادك مُنْصَبٍ

تري العينُ ما تهوى وفيها زيادة

من الحسنِ إذ تبدو وملهى لللعيب

وقد قال يونس : ما لها صوت أحسن من صوتها في هذا الشعر ،

وقال : أنا أغنيه فتعجبني نفسي ، ويد خلني شيء لا أعرفه من النخوة

والتيه^(١) . وهذا نفسه ما كانت تشعر به جميلة صاحبة الصوت وصانعة ،

وهل من ريب في أنها كانت تشعر أثناء أدائها له بمودتها للأحوص ،

كما كانت تشعر بشيء من التيه ، فهذا أهم شعراء المدينة يتعاقبها وينظم

فيها كما ينظم ابن أبي ربيعة بمكة في الشريقات من النساء والفتيات

الغزلات .

ولم يتعلق الأحوص في دار جميلة بصاحبة الدار وحدها ، بل لقد

تعلق بكثير من المغنيات عندها . وقد تحدثنا في غير هذا الموضع عن

كثرة ما كان عندها من الإماء المغنيات ، وكان الأحوص يتنقل بينهن

جميعا ، يتغزل فيهن ، ويعلن عشقه لهذه اليوم ، ولتلك غداً ،

واستقر عشقه ، على ما يظهر عند ثلاث ، هن : الذلفاء وعقيلة وسلامة ،

وفي الذلفاء يقول^(٢) :

إنما الذَّلْفَاءُ هَمْسِي فَلَيْدَعْنِي مَنْ يَلُومُ

أَحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعاً حِينَ تَمْشِي وَتَقُومُ
 حَبِّبَ الذَّلْفَاءِ عِنْدِي مَنْطِقُ مِنْهَا رَخِيمُ
 أَصِيلُ الْحَبْلِ لَتَرْضَى وَهِيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ
 حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ مُسْتَكِنٌ لَا يَرِيمُ

وهكذا كان الأحوص يحب المغنية من المغنيات ، فيرى أنها كل
 همه في الحياة ، وأنها أحسن الناس جميعا حين تمشي ، وحين تقوم ، وحين
 تنطق ، وحين تغنى . ونحن لا نرتاب في أن دار جميلة أتاحت له أكبر
 حظ ممكن من الاتصال بهؤلاء النساء ، يبتغى عندهن ما يملأ حسه
 ونفسه من متعة بالجمال والحسن ، إذ كان هؤلاء المغنيات من أجناس
 مختلفة . وإن تغنى الأحوص بهن ليكشف عن ناحية مهمة في نفسه ،
 وهي أنه كان أكثر شعراء المدينة أو قل شعراء الحواضر الحجازية
 شجاعة في الإفصاح عن دوائله وما يطوى في فؤاده ، وهو لذلك يتغزل
 في هؤلاء الإمام ، ولعله كان يفضلهن على النساء الحرائر ، فذهب يفصح
 عن ذلك في حرية وصراحة .

وأكبر الظن أن الأحوص اندفع في ذلك أيضا بعامل رغبته في
 الشذوذ على أذواق معاصريه ، فإذا هو يختار لغزله هذا الموضوع
 الجديد من الإمام والقيان ، وهو يختاره محبا له مؤثرا ، إذ كان يجد في
 هؤلاء القيان والإمام من الصبابة والهوى والغزل ما لا يجده في النساء
 الحرائر المتحفظات ، وكان يتغزل فيهن كما يريد ويهوى غزلا عفيفا
 وغزلا إباحيا مكشوفاً ، لا حرج عليه في ذلك ، ولا لاثم يتلومه ، لا أيمن

ولا غير أيمن ، واستمع اليه يقول في عَقِيلِهِ الْعَقِيْقَةُ ^(١) .

يا للرجال لو جَدِّكَ المتجدِّدِ

ولما تَوَمَّلَ من عَقِيلَةٍ في غَدِ

ترجو مواعيدَ ، بَعَثَ آدَمَ دُونَهَا

كانت خَبَالًا للفؤاد المُقْصِدِ

هل تَذْكُرِينَ عَقِيلٌ أو أنساكِه

بَعْدِي تَقَلُّبُ ذَا الزمانِ المُفْسِدِ

يومي ويومك بالعَقِيْقِ إذ الهوى

منّا جميعُ انشملِ لم يَتَبَدَّدِ

لي ليلتانِ فليْلَةٌ مَحْسُولَةٌ

أَلْقَى الحبيبُ بها بنجمِ الأَسْعَدِ

ومَرِيحَةٍ ^(٢) هَمِّي عَلَى كَأَنَّنِي

حتى الصَّبَاحِ مَعْلَقٌ بِالْفَرَقْدِ

وليس غريبا أن يكون الأحوص صريحا في غزله على هذا النحو
فعهدنا به أنه لا يخفى شيئا في دخيلة نفسه .

وأهم مغنية تعلق بها الأحوص وشغف بها حبا سلامة القس ، وقد
فتن بها الناس على ما يظهر في المدينة ، بل في مكة أيضا حيث هام بها
عبد الرحمن بن أبي عمار الجُشَمِيّ الذي لقب بالقس لعبادته ،

(١) أغاني ٢٥٩/٤ (٢) تريخ همه عليه : تسوقه إليه .

ولذلك سميت سلامة القس ، وله فيها أشعار طريفة (١) . وقد تحدثنا عنها في فصل الغناء ، وكانت إحدى الجوارى اللاتي تعلق بهن الأحوص ، بل اللاتي أحبهن حبا مفرطا ، وكانت تبادله حبا بحب ، وفيها يقول (٢) :

أَسَلامَ هَلْ لَمِيتٍ تَنوِيلُ
أُمَهلَ صَرَمَتٍ وَغَالٍ وَدَكْ غُولُ

لا تصرفي عني دلالك إنَّه
حَسَنٌ لَدَيَّ وَإِنْ بَخِلْتُ جَمِيلُ

أَزَعَمْتُ أَنَّ صَبَابِي أُكْذَوْبَةٌ
يَوْمًا وَأَنْ زِيَارَتِي تَعْلِيلُ

وفي البيت الأخير ما يدل على أنها كانت تقول له إنك محب غير صادق ، فأنت رجل تحب كل من في الدار ، دار جميلة ، تحب صاحبة الدار وقد أحبت الذلفاء وعقيلة العقيقية ، وأحبت غيرهما ، فأنت لست محبا صادقا ولا صاحب صباية صادقة ، إنما أنت رجل غزل تغازل النساء والإماء جميعا ، لا تفرق بين واحدة وأخرى . ويظهر أنها كانت تكثر عليه من الدل ، فقلها أتاحت له ما يريد من بهجة اللقاء ، ومن أجل ذلك كان يكثر من توددها واستعطافها والتذلل لها كأن يقول (٣) :

(٢) نفس المصدر ٣٣٧/٨ .

(١) أغاني ٣٣٤/٨

(٣) نفس المصدر ٣٣٨/٨ .

أَسْلَامُ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتِ فَأَسْجِجِي
 قَدْ يَمْلِكُ الْحَرُّ الْكَرِيمُ فَيُسْجِجُ
 مُمْسِي عَلَى عَانَ أَطْلَتِ عَنَاءَهُ
 فِي الْغُلَّةِ عِنْدَكَ وَالْعُنَاةُ تُسَرِّحُ
 وَإِذَا شَكُوتُ إِلَى سَلَامَةِ حُبِّهَا
 قَالَتْ أَجِدُّ مِنْكَ ذَا أَم تَمَزَحُ
 فَهِيَ دَائِمًا تَتَشَكَّكَ فِي حُبِّهِ، وَتَتَهَمُهُ بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّعِبَ وَالْعَبَثَ، بَلِ
 الْعَلَّةُ يَرِيدُ الْمَزَاحَ وَتَرْجِيَةَ الْفَرَاغِ، وَمَنْ شَمَّ كَانَ يَعْلَمُ لَهَا دَائِمًا فِي شَعْرِهِ
 أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ سَلْوَا عَنْهَا، بَلِ إِنَّهُ لَيَبْلُلُ يَدَيْهَا بِدُمُوعِهِ، وَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ
 يَقُولُ (١).

يَا دِينَ (٢) قَلْبِيكَ مِنْهَا لَسْتُ ذَاكِرَهَا
 إِلَّا تَرْقِرُقُ مَاءُ الْعَيْنِ أَوْ دَمْعَا
 أَدْعُو إِلَى هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي
 حَتَّى إِذَا قُلْتُ هَذَا صَادَقَ نَزْعًا
 لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مَحَبَّتِهَا
 أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
 كَمْ مِنْ دَنِيٍّ (٣) لَهَا قَدْ صَرْتُ أَتْبَعُهُ
 وَلَوْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا صَارَ لِي تَبْعَا

(٢) الدين هنا : الداء .

(١) أغاني ٢٩٩/٤ وما بعدها .

(٣) الدني : التافه الوضع

وزادني كلفاً في الحب أن منعت
 وحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا
 وهكذا كانت سلامة تكثر من التمتع على الأحوص، فبزاد شغفه
 بها وتعلقه، ويكثر من شعره فيها، وكانت تغني بنفسها هذا الشعر
 فتحسن فيه إحسانا شديدا.

روى صاحب الأغاني أن الأحوص وابن قيس الرقيات الشاعر
 المكي اجتمعا عندها، فغنتهما على البديهة بشعر لهما جميعا فيها، فأحسنت
 في شعر الأحوص بأكثر مما أحسنت في شعر ابن قيس الرقيات، فقال
 ابن اقيس الرقيات: أحسنت يا سلامة والله وأظنك عاشقة للأحوص
 فقال له الأحوص: ما الذي أخرجك إلى هذا قال: حسن غنائها
 بشعرك، فلو لا أن لك في قلبها محبة مفرطة ما جاء صوتها هكذا حسنا
 على هذه البديهة، فقال له الأحوص: على قدر حسن شعري على شعرك
 هكذا حسنت الغناء به، وما هذا منك إلا حسد، فقالت سلامة: لو لا
 أن الدخول بينكما يوجب بغضة لحكما، فقال الأحوص:
 أنت من ذلك آمنة، فقال ابن قيس الرقيات: كلا! قد أمنت أن تكون
 الحكومة عليك، فلذلك سبقت بالأمان لها^(١).

وطبيعي أن تحسن سلامة في غنائها بشعر الأحوص لأنها من جهة
 تغني في شعر عاشق لها، ومن جهة أخرى تريد أن تثبت تفوقها في
 غنائها بشعره على زميلات الأخرى اللاتي يتغزل بهن ويتغنين في

غزله . وقد حدث أن اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة فازداد شغف
الأحوص بها وأخذ يرسل لها بأشعاره ، ويروى الرواة أنها كانت تغنى
فيها يزيد مولاهما ، وبما غنّته فيه (١) :

عاود القلب من سلامة نَصْبُ فلعينى من جوى الحب غَرْبُ
ولقد قلت أيها القلب ذو الشو ق الذى لا يحب حُبَّك حبُ
إنه قد دنا فراق سُلَيْمى وغداً مطلب عن الوصل صَعْبُ

فهو يبكى سلامة على البعد ، وهو يحس لها بين جوانحه بحب
لا يماثله حب ، وهو يشعر أنها فرّت من يده هذه المرة ، ولن يستطيع
لقاء لها ولا وصلا . والطريف أنه يعلن هنا أنه لا يوجد محب يحب
كما يحب هو ، فهو إذا أحب ازداد كلفه وولعه وبالغ في حبه إلى أقصى
غاية ممكنة ، فهو يحب جميلة ، ويحب أم جعفر ، ويحب الذلفاء ، ويحب
عقيلة ، ويحب سلامة ، وكلها تذكر واحدة منهن خيل إليه أنه لم يحب
أحدا مثلها ، ومن يدري لعله كان يحب أخريات وراءهن لم تسجلن
أشعاره في كتاب الأغاني . ونحن نظن أنه كان يحب حباة أيضا التي
اشتراها يزيد هي الأخرى من المدينة ، وقد سمعت قبل صاحبتها
سلامة إلى إصدار العفو عنه من سيدها يزيد كما مر آنفا . غير أن سلامة
على ما يظهر — هي التي شغفته حبا ، فقد أكثر من الشعر فيها ،
وأكثر من تدليه ، كما أكثر من تحسره على فراقها ، ومن أجل ما يروى

له في بيان لهفته عليها بعد خروجها من المدينة قوله (١) :

ضوءُ نارٍ بدا لعينك أم شبَّتْ بذى (٢) الأثل من سلامة نارٍ
تلك بين الرِّياض والأثل والبساتين من سلامة دارٍ
وكذاك الزمانُ يذهب بالنساءِ وتبقى الرسومُ والآثارُ
لم يبق للأحوص من سلامة ما يتحسسه ويرفع الطرف فيه ويخفضه
سوى الرسوم والآثار ، فهي كل ما بقي له .

وأكبر الظن أنه انطبعت في أنفسنا الآن صورة غزل الأحوص
فهو يتغزل في الإمام والجواري من مغنيات المدينة ، وهو يحسن في
ذلك ، ويأتي بالطريف البديع الذي يعجب معاصريه ، ويروقههم ، وقد
تخصص بهذا الموضوع وأشاعه . وإذن فالغزل بالإمام والجواري
ليس ظاهرة عباسية محدثة في الشعر العباسي عند بشار وأصحابه كما
ظن بعض المعاصرين ، وإنما هو ظاهرة أقدم من ذلك ، هو ظاهرة
أموية قبل أن يكون ظاهرة عباسية ، أو قل هو ظاهرة حجازية قبل
أن يكون ظاهرة عراقية .

٣

مدائح الأموص وأهاليه :

من يقرن مدائح الأحوص في بني أمية إلى مدائح جرير والفرزدق

والأخطل يشعر بفروق أساسية بين النوعين من المدائح ، فدائح
الأحوص أسهل وأقرب إلى اللغة المألوفة من مدائح الفرزدق وصاحبيه ،
وهو من هذه الناحية يتميز تميزاً واضحاً .

ليست مدائح الأحوص في بنى أمية مدائح طنانة ، وهو حتى إن
استطاع أن يصنع بعض المدائح الطنانة ، فإنه لا يستطيع أن يطرد ذلك
في كل مدائحه ، إذ كثيراً ما تخرج بعض نماذجه فيها عن الصورة العراقية
التي تعتمد على البناء الضخم ، إلى صورة حجازية متحضرة ، فيها أثر
الغناء والموسيقى الجديدة . فالأحوص شاعر من نوع آخر غير الذي
نعلمه عند جرير والفرزدق والأخطل ، شاعر يعتمد في حياته على
أن يعيش في دور الغناء بالمدينة ، وهو يصنع الشعر لهذه الدور من
لغة مألوفة ، وقد تسرب ذلك إلى مدائحه ، فإن من يقرأها يلاحظ أن
لغتها قريبة إلى اللغة المألوفة ، وهي ظاهرة يلاحظها كل من يقرأ شعر
هذا العصر في الحجاز ، ويقرنه إلى شعر العراق عند جرير والفرزدق
وأمثالهما ، فهو أقرب لغة وخواطر ومعاني إلى نفوس الناس . ولسنا
أول من يلاحظ هذه الظاهرة على شعر الأحوص فقد لاحظها من قبل
شاعر عاصره ، وهو الفضل بن العباس اللبي ، إذ تعرض له يوماً ، وهو
ينشد شعره ، وتلومته بأنه لا يحسن استخدام الغريب في الشعر (١) ،
وفات الفضل أن عصر الغريب انتهى على الأقل عند الأحوص
وغيره من الغزاليين في الحجاز ، وهو لم ينته عند الأحوص في غزله

فقط ، بل انتهى أيضا فى ضروب شعره الأخرى من مديح وغير مديح ، واستمع إلى هذه الأبيات يقولها فى يزيد بن عبد الملك (١).

كريمٌ قریشٍ حين يُنْسَبُ والذي
أقرَّتْ له بالملك كهلاً وأمرِداً

وليس وإن أعطاك فى اليوم مانعاً
إذ عُدت من أضعاف أضعافه غداً

أهان تِلَادَ المال فى الحمد إنّه
إمامٌ هُدَى يَجْرِى على ما تَعَوَّدَا

تَشَرَّفَ مجداً من أيّيه وجدّه

وقد ورثا بِنِيارَ مجدٍ تَشَيَّدَا

لم يكن الأحوص يستخدم اللغة الغريبة فى مدائحه ، بل كان يستخدم لغة عادية قريبة إلى لغة الغزل الذى يصنعه ، وكأنه كان يريد لهذه المدائح أن تشيع على ألسنة الناس فى عصره ، وأن تصبح شديدة بهذا الغزل الغنائى الذى يغنى فى دور اللهو والموسيقى بالمدينة ، حتى تذيع ، بل حتى تكون صالحة لأن يغنيها المغنون ، وقد كانوا يغنون فعلاً مدائحه فى بنى أمية (٢).

ونحن نحس فى الواقع عند الأحوص بتطور واسع يصيب قصيدة المديح ، فقد أخذ أصحابها فى الحجاز يحاولون أن يقتربوا فى لغتها من

(١) نفس المصدر ٢٥٠/٤ .

(٢) أنظر الأغاني ٢٩٧/١ وكذلك ٢٥٠/٤ .

الناس حتى تصلح للغناء ، فتستقبلها آذان الجماهير كما تستقبل مقطوعات الغزل ، وهم من أجل ذلك يستخدمون فيها نفس اللغة الشعبية التي يستخدمونها في الغزل حتى يمكنوا لها في نفوس الناس . واستمع إلى هذا الشعر بقوله الأحوص أيضا في يزيد بن عبد الملك (١) :

من يكن سائلاَ فإن يزيداً مَلِكٌ من عطائه الإكثارُ
عمّ معروفه فعزّ به الدينَ وذلتَ لملكه الكفار
وأقام الصراطَ فابتهج الحقّ منيراً كما أنار النهار
وليس من ريب في أن هذا شعر خفيف على اللسان والأذن
جميعاً ، وهو من أجل ذلك أقرب إلى ذوق من يستمعون إلى غزليات
الأحوص وغيره من شعراء الحجاز ، وهو أيضا أقرب إلى ذوق من
يغنون في أشعارهم من المغنين والمغنيات .

لم تكن قصيدة المديح عند الأحوص يراد بها أن تنشّد بين أيدي
الخلفاء ، بل كان يراد بها أن تغنى في سمرهم ، يغنى فيها المغنون والمغنيات
عندهم ، كما يغنى فيها المغنون والمغنيات عند الشعب نفسه . ومن هنا
كنا لانعجب حين نجد هذه القصائد تختلف في لغتها عن لغة القصائد
الأخرى عند جرير والفرزدق والأخطل ، فهو لا لم يصنعوا شعرهم
وهم يفكرون أن يطلبوا إلى المغنين والمغنيات مثل حباية أو معبد
ن يغنوا فيه أثناء سمر الخلفاء على نحو ما كان يطلب الأحوص (٢) .
كانت قصيدة المديح عند الأحوص قصيدة غنائية بالمعنى الدقيق

هي قصيدة يراد بها إلى أن تُصَحَّبَ بالضرب على الآلات الموسيقية ولعل هذه الغاية عند الأحوص هي التي أعدت قصيدة المدح لتطور واسع في موسيقاها ، فإن من يدرس موسيقى الشعر الغنائي وتطورها في الحجاز يلاحظ أنها تعدلت ، وتجزأت ، كما لاحظنا في غير هذا الموضع ، وقد أخذ ذلك يتسرب فيما بعد إلى قصيدة المديح وغيرها من الشعر التقليدي بحكم أن من كانوا يصنعونه كانوا يساهمون في صنع الشعر الغنائي على نحو ما نلاحظ الآن عند الأحوص .

على كل حال كانت مدائح الأحوص تخالف — من بعض الوجوه — مدائح جرير والفرزدق في لغتها ، وفي موسيقاها ، إذ كانت موسيقاها هو أكثر صفاء بحكم اندماجها في الأوساط الموسيقية بالمدينة ، وقد أعده ذلك ، كما أعد غيره من أصحاب الشعر الغنائي الخالص ، أن يستخدموا في شعرهم التقليدي الأوزان السهلة كالخفيف والرمل وما إلى ذلك ، بل لقد أخذوا يستخدمون الأوزان المجزأة والمعدلة . ولم يظهر أثر ذلك واضحاً في العصر الأموي ولكنه ظهر في وضوح أثناء العصر العباسي . وإذا كانت مدائح الأحوص تخالف إلى حد ما مدائح جرير والفرزدق والأخطل في لغتها وصفاء موسيقاها وما يقتضيه أحيانا على نفسه من أوزان ينظم فيها ، فكذلك كانت أهاجيه تخالف أهاجيهم إذ لم تكن تعتمد على أيام العرب القديمة وحروبهم تقصصها على نحو ما نعرف في نقائض جرير والفرزدق أو نقائض جرير والأخطل ، إنما كانت تعتمد على هجو الشخص نفسه وتقييده بصورة تتصل به .

لم تكن قصيدة الهجاء عند الأحوص تستمد موضوعها من التاريخ ومن سيرة القبائل القديمة ، إنما كانت تستمد موضوعها من الشخص المهجو نفسه . ونحن نغلو حين نسميها قصيدة ، فلم يترك الأحوص في الهجاء قصيدة بالمعنى المعروف إلا نادرا ، إنما كثرة ما تركه مقطوعات قصيرة وأبيات مفردة .

وهجاء الأحوص من هذه الناحية شبيه بهجاء العصر العباسي الذي نقرؤه عند بشار وحماد وعجود مثلا ، فهو لا يستعين على هجاء خصمه بقصيدة محبوكة الأطراف ، وإنما يعتمد إلى البيت والبيتين أو الأبيات القليلة فيهجوه بها هجاء مقذعا .

ولعل في هذا النوع من الهجاء ما يلفتنا إلى ما حدث في شعر الحجاز وأنه أصبح شعرا شعبيا في جميع جوانبه ، فالشاعر حين يصنع غزلا لا يعتمد إلى القصائد الطويلة التي لا يأتي الإنسان إلى آخرها حتى ينسى أولها . وهو كذلك حين يهجو لايهجو بقصيدة طويلة قلما تحفظ ، إنما يهجو بيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، حتى تحفظ ، وتدور على جميع الألسنة .

ولم يتعلق الأحوص بهجاء شخص في المدينة كهجاء ابن حزم الذي جلد ، ونفاه إلى دهلوك ، ولكن يكاد هجاؤه فيه يعد مفقودا ، لو لا بعض أبيات رواها صاحب الأغاني ، وربما كان من أسباب ذلك أن المغنين أبوا أن يغنوا للأحوص في أهاجيه فيه ، لأنه كان يلى المدينة ، وكان

قاسياً في ولايته لها ، شديدا حازماً ، يخافوه ، ومن شعره فيه (١) .

أَقُولُ وَأُبْصِرْتُ ابْنَ حَزْمِ ابْنِ فَرْتَنَسَى
وَقَوْفًا لَهُ بِالْمَأْزَمِينَ (٢) الْقَبَائِلُ
تُرَى فَرْتَنَسَى كَانَتْ بِمَا بَلَغَ ابْنُهَا
مُصَدِّقَةً لَوْ قَالَ ذَلِكَ قَائِلُ

والفرتنى الأمة بنت الأمة . وإن فيما بقى من أهاجيه في غير ابن حزم ما يدل على شدة لذعه ، وبعد كيده ، في الهجاء ؛ فمن ذلك أنه لما تعرض له الفضل بن العباس اللهي يقول إنه لا يحسن الغريب ، فسكر ماذا يرد عليه ، ثم ذكر أن جده أبو لُحَب وأن جدته حمالة الحطب في جيدها جبل من مسد ، فقال توا (٣) :

مَا ذَاتُ جَبَلٍ يَرَاهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ
وَسَطَ الْجَحِيمِ وَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ
كُلُّ الْجِبَالِ جِبَالِ النَّاسِ مِنْ شَعَرٍ
وَحَبْلُهَا وَسَطَ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَدٍ

وعلى هذا النحو كان الأحوص يبلغ أحيانا بأبياته القليلة في الهجاء مبلغ أصحاب القصائد الطويلة ، قصائد النقاض . ويقول الرواة إنه هجا رجلا من الأنصار ، فاستعدى عليه الفرزدق يهجو له ، ويرد عليه هجاءه ، فأبى ، وكذلك أبي جرير ؛ لما كانا يعلمان من مقدرته في الشعر والهجاء (٤) .

(٢) المأزمان : جلامكة .

(١) أغاني ٢٣٧/٤ .

(٤) نفس المصدر ٢٠٣/٤ .

(٣) أغاني ٣/١٥ .

وكما يمتاز هجاء الأحوص بقصره يمتاز أيضاً بقرب لغته وأنه أدنى إلى اللغة العادية، فتلك صفة عامة في شعره، وقد كان يعممها في هجائه، حتى يبلغ ما يريد من العنت بمن يهجو، والتشهير به.

٤

منزلة الأحوص بين شعراء عصره

إذا أخذنا ننظر في الشعراء الذين عاصروا الأحوص وجدناهم ينقسمون قسمين كبيرين: أصحاب الشعر التقليدي من مديح وهجاء. وكان موطنهم العراق، وأصحاب الشعر الغنائي من غزل ونسيب وما يتصل بهما، وكان موطنهم الحجاز. وإذا حاولنا أن نوازن بين القسمين وجدنا من الناحية التاريخية، كما قدمنا في غير هذا الموضع، أن أصحاب الشعر الغنائي يأخذون في التفوق أثناء هذا العصر على أصحاب الشعر التقليدي، بحيث لا نصل إلى أواخر العصر، حتى يتم لهم التفوق نهائياً.

ولكن هل يتيح لنا ذلك أن نضع أصحاب الشعر الغنائي جميعاً من مثل الأحوص في منزلة تعلو منزلة أصحاب الشعر التقليدي؟ وبعبارة أخرى هل يتيح لنا ذلك أن حاولنا أن نضع طبقات للشعر في العصر الأموي أن نجعل في أعلى هذه الطبقات أصحاب الشعر الغنائي؟

إن من يرجع إلى طبقات ابن سلام التي وضعها لشعراء هذا العصر

والتي يسميها طبقات الإسلاميين^(١) يجده يضع في الطبقة الأولى من هذه الطبقات جريرا والفرزدق والأخطل . ومعنى ذلك أنه هو وغيره من اللغويين في عصره كانوا يرون تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الشعر الغنائي . ونحن نخالفهم في هذا الحكم من جميع الوجوه ، بل لعلنا نعكسه عكسا تاما ، فنذهب إلى قصر الطبقة الأولى على شعراء الحجاز من أصحاب الشعر الغنائي ، فهؤلاء هم الشعراء الممتازون حقاً الذين كانوا يعبرون أولاً عن روح عصرهم وحياتهم التي يحيونها ، ثم هم الذين جددوا في موسيقى الشعر العربي ، وفي لغته ، وأيضاً فإن شعرهم كاد أن يكون شعراً شعبياً يجري على جميع الأفواه والألسنة .

نحن إذن نخالف ابن سلام وغيره من اللغويين في تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الشعر الغنائي ، ولعلمهم إنما اضطروا إلى ذلك لأنهم كانوا لغويين ولم يكونوا يبحثون في الشعر عن القيم الفنية من حيث هي ، وإنما كانوا يبحثون عن الشاهد والمثل ، وكانوا يجدون في نماذج الشعر التقليدي مدداً لا ينضب من الأمثال والشواهد على اللغة وغريبها في اللفظ والتعبير ، فانساقوا من ذلك إلى تفضيل أصحاب الشعر التقليدي ، ووضعوا أشهرهم في الطبقة الأولى من الشعر الإسلامي . وينبغي ألا نفساق معهم في هذا التفضيل لأن الحاجة للغوية لا تهمنا ، وإنما تهمنا الحاجة الفنية من حيث هي . ومن أجل ذلك كنا نخص الطبقة الأولى من الشعر الإسلامي أو الأموي بأهم من

نظموا في الشعر الغنائي من أهل الحجاز ، ولا نصنع صنيع ابن سلام حين آخرهم في طبقاته ، وهل تدري أين وضعهم ؟ لقد وضعهم — أو قل وضع كثيرهم — في طبقة متأخرة هي الطبقة السادسة ^(١) بين طبقاته العشر ، ولم يقدم أحداً منهم سوى كثير فقده وضعه في الطبقة الثامنة ^(٢) .

ونحن لا نستطيع أيضاً أن نجعل كثيراً من شعراء الحجاز من الغزلين ، أو قل أصحاب الشعر الغنائي ، ولعل ابن سلام ، إنما قدمه ، لأنه بدوى يجد عنده من غريب اللغة ما لا يجده عند شعراء الحواضر أمثال الأحوص وابن أبي ربيعة .

وقد وضع ابن سلام الأحوص في الطبقة السادسة وقرنه بابن قيس الرقيات وجميل ونصيب ، وتأخر به في مكانه بعد ابن قيس ونصيب ، ويظهر أنه تأثر في تأخره به أيضاً مسائل لغوية ، لأنه كان عالماً لغوياً ، ولم يكن يهمه أن يقدم الشاعر من وجهة معنوية أو وجهة موسيقية . وقد علل أبو الفرج لتأخر ابن سلام به تعليلاً آخر ، فقال : « والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنى الأخلاق والأفعال أشد تقدماً من ابن قيس ونصيب عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة ^(٣) » . وكان أبا الفرج لم يقبل حكم ابن سلام على الأحوص ، فهو في رأيه ينبغي أن يتقدم كل زملائه الذين ذكرهم ابن سلام في الطبقة السادسة .

(٢) نفس المصدر ص ١٢١ .

(١) ابن سلام ص ١٣٧ .

(٣) أغاني ٢٢٣/٤ .

ولعل في ذلك ما يدل على أن خلق الأحوص شوهه عند بعض النقاد وإنه لينبغي أن نفرق دائماً بين خلق الشاعر وشعره ، لأن الشعراء ليس من وظائفهم أن يحققوا مثلنا الاخلاقية العليا في الحياة فالشعر شيء ، والخلق شيء آخر .

الأحوص إذن ينبغي أن يوضع في المكان الأول من شعراء الطبقة السادسة التي خص بها ابن سلام شعراء الحجاز ، ولكن هل يتأخر كثيراً أو يتقدم عليه ، أما ابن سلام فقدم كثيراً على شعراء الحجاز عامة ، وهو حكم بني على أسباب لغوية فيما نظن ، أما إذا تركنا اللغة ولم نحتكم إلى ذوق اللغويين فإننا نقدم على كثير عمر بن أبي ربيعة شاعر مكة ، كما نقدم عليه الأحوص شاعر المدينة من حيث ما أنتجناه هذا العصر في الشعر الغنائي وما مدّا به المغنين والمغنيات في الحجاز .

أما عمر فقد كان يقول فيه جرير إن أنسب الناس المخزومي^(١) ، ولم يتجاوز عمر بشعره الغزل والنسيب إلى موضوع آخر ، فهو من هذه الناحية يعتبر أهم شاعر في الحجاز وقف نفسه على الشعر الغنائي الذي يغنيه ابن سريج وابن مسجح وابن محرز والغريص في مكة ، كما يغنيه المغنون في المدينة من مثل معبد وجميلة .

وأما الأحوص فكان شاعر المدينة في النسيب والغزل غير مدافع ، وكان يحقق لنفسه في هذا الجانب تفوقاً ممتازاً حاولنا أن نصفه

آنفا ، ويكفي لبيان تفوقه على كثير في غزله أن عزة نفسها كانت
تفضله عليه ونقول له : الأحوص ألين جانباً منك في شعره
وأصعّرُ خدّاً للنساء وأشعر منك^(١) .

وأكبر الظن أننا نستطيع أن نصل من ذلك إلى أن الأحوص
كان من أصحاب المنزلة الأولى للشعر والفن في عصره ، وهو إذا
قُرِنَ حقاً فينبغي أن يقرن إلى عمر بن أبي ربيعة ، فهما أهم من ألف
أدوار الشعر الغنائى في هذا العصر ، وقد كان عمر شديد الصلة بالمغنين
في مكة بينما كان الأحوص شديد الصلة بالمغنين والمغنيات في المدينة .
ومن يقرأ الأغاني يحس أن عمر كان له قصب السبق في تأليف هذه
الأدوار . على أنه ينبغي أن نحتاط في الحكم لأن ديوان الأحوص
مفقود ، ولأن ما قدمناه عنه يدل على أنه كان أكثر حرية من عمر ،
إذ كان يتغزل في الإماء بينما يتغزل عمر في الحرائر .

ومهما يكن فإن عمر والأحوص يعدان في الطبقة العليا من
شعراء العصر الأموى ، ولسنا نستطيع أن نحكم بتفوق أحدهما
على صاحبه حكماً واضحاً لأن أدوات هذا الحكم ناقصة ، على الأقل
فيما يتصل بالأحوص .

ولعلنا لا نتجاوز الحق حين نضعهما جميعاً في الطبقة الأولى من
أصحاب الشعر الغنائى ، ثم نعمم فنجعل هذه الطبقة أولى طبقات
كل الشعراء الذين أنتجهم العصر الأموى من غنائيين وتقليديين .

نحن إذن نخالف ابن سلام في تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الشعر الغنائي ، لأننا نحكم الفن نفسه . وليس من شك في أن الشعر العربي أثرى عند أصحاب الشعر الغنائي ثروة فنية عريضة ، فقد أثرى من حيث الموضوع والمعاني ، وأثرى من حيث اللغة والأسلوب ، وأثرى أخيراً من حيث صحيفه الألحان ، فإن أصحابه هم الذين غيروا في طبقات الأوزان الشعرية تبعاً للتغيير في طبقات الغناء وما عاصرهم من موسيقى .

خاتمة

١

مقدمة الكتاب

حاولت فيما تقدم أن أرسم الخطوط المختلفة للشعر الغنائى فى المدينة أثناء أزهى عصورها الأدبية . وقد لاحظت أن المدينة قبل هذا العصر اتخذها النبى صلى الله عليه وسلم داراً لهجرته ، واتخذها الخلفاء من بعده مقراً لعاصمة الإمبراطورية العربية ، وقد صبّت فيها حينئذ كنوز الأرض ، كما صبّ فيها الموالى من فرس وروم وشأميين ومصريين ، وهياً ذلك كله لحضارة جديدة فيها ، أخذ زخرفها يتماثل منذ عصر عثمان . وما يلبث عصر الخلفاء الراشدين أن يذهب وإذا المدينة تدخل فى حياة جديدة من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والحضارية . أما من حيث الناحية السياسية فقد فقدت زعامتها على العالم الإسلامى وأصبحت ولاية تابعة لدمشق . وقد كانت تقف طوال هذا العصر الأموى فى صفوف المعارضة لبني أمية ، ومن أجل ذلك كان الأمويون ينصرفون عن أهلها فلا يستخدمونهم فى وظائف الدولة الكبرى إلا فى القليل النادر .

وهذا من حيث الناحية السياسية ، أما من حيث الناحيتان الاجتماعية

والحضارية فإن المدينة أدخلت إلى حياة مترفة لاهية وقد تكونت فيها طبقة من الشبان الفسارغين العاطلين ، وذهبت هذه الطبقة العاطلة تملأ أوقاتها باللهو واللعب ، بل قل بالمجون والإثم ، وساعدها على ذلك ما كانت فيه من ثراء ، ورثته عن آبائها الذين فتحوا الأمم الأجنبية ، وأيضاً فإن الأمويين أغدقوا عطاياهم عليهم هناك ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الدولة والحكم .

شباب عاطل ، و ثراء وحضارة ، وترف ورقيق لا يحصى . هذه هي المدينة في العصر الأموي ، وقد وصفت ذلك كله ، وانزلت منه أبين كيف أن أهلها تعلقوا بضرب من الملاهي ، كان له أثره الواسع في أدبهم وشعرهم ، وأقصد الغناء وما صحبه من موسيقى ، فإن أهل المدينة فتنوا به فتنة شديدة لم يسلم منها شاب ولا شيخ ولا ماجن ولا عابد . وقد نهض الموالى من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة واسعة ، بحيث أصبح فنا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إذ تكونت نظريته نهائياً ، وعرفت له مصطلحاته وتقاليده ، التي نقرأها في كتاب الأغاني ، وأخرجت المدينة حينئذ كثرة وافرة من المغنيين والمغنيات الذين خلد اسمهم على مر الزمن ، مثل طويس ، وسائب خائز ، ومعبد ، وعزة الميلاء وجميلة ، وسلامة ، وغيرهم كثير .

واقترنت هذه النهضة لفن الغناء بنهضة كبيرة لفن الشعر الغنائي ، ونقصد الشعر الذي يغنى ويصحب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية ، وهو شعر يدور في أغلبه على الحب ووقائعه . وقد عنيت

بدرس هذا الشعر الغنائى فى المدينة درسا مفصلا ، ولاحظت أنه كان فى أكثر جوانبه غزلا مكشوبا ، وخاصة أن الشعراء هناك كانوا يعنون بالغزل فى الإماء من المغنيات ، فكانوا يصرحون بكل مايجول فى أنفسهم لا يتحرجون ولا يتأثمون من شئ .

كان غزل المدينة إباحياً فى جملة ، ولكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله فى هذه الوجهة ، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عبّاد المدينة وفقهائها ، من مثل عميد الله بن عبيد الله بن عتبة أحد فقهاء المدينة السبعة ، وقد وقفت وقفة قصيرة عند غزله ، وصورت كيف كان غزلا عفيفاً فيه مثالية ، وفيه طهر وتسام عن المتع الجسدية .

ولاحظت أن هذا الغزل الغنائى فى المدينة كان يفرق من النسيب فى العصر الجاهلى مفارق واسعة . وأقصد هذا النسيب الذى كان يوضع بين يدي القصائد والذى كان يتحدث عن الأطلال والدمى ، والذى كان لا يتخذ غاية ، إنما يتخذ وسيلة إلى غرض الشاعر من قصيدته ، فهو أشبه ما يكون بمقدمة موسيقية يسوقها الشاعر أمام غايته . أما فى هذا العصر فقد أصبح هو الغاية ، إذ لا يضعه الشاعر بين يدي قصيدته إنما يضعه كقصيدة مستقلة قائمة بنفسها ، ولم تكن هذه القصيدة تؤلف من عشرات الأبيات ، بل قد تؤلف من أبيات قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد إلا فى النادر ، أما الكثرة فهى أصوات أو قل كما نقول الآن أدوار تؤلف من أجل الغناء . وكان المغنون والمغنيات لا يغنون فى أبيات كثيرة ، فقد يغنون فى البيتين أو فى الثلاثة ، ومهما أطالوا

خلن يزيدوا في غنائهم عن عشرة أبيات ، بل كان منهم من لا يغنى إلا في البيتين . من أجل ذلك كله لم يكن من الضروري للنموذج الغنائى أن يكون طويلا ، بل لقد كان أكثره يكون قصيرا قصرا يبلغ البيتين والثلاثة .

كان هذا الشعر الغنائى فى الواقع مقطوعات وأدوارا ، ولم يكن قصائد بالمعنى القديم للقصائد . وليس هذا كل ما يلاحظ عليه فإنه أيضا كان يتخذ من اللغة المألوفة للناس ، ومن هنا كان أكثر من الشعر التقليدى بضربيه المديح والهجاء قرباً منهم ، فهو من محيطهم ، محيط لغتهم ، ومحيط حياتهم ، وما فيها من حوادث الحب ووقائعه .

وقد كان طبيعياً لهذا الشعر الغنائى أن يتأثر الغناء والموسيقى التى كانت ترافقه لسبب بسيط ، وهو أن المغنين أدخلوا نغماً وألحاناً أجنبية كثيرة ، وأحدثوا نظرية عربية جديدة للغناء ، مما جعل الشعراء الغنائيين يحورون ويجزئون فى شعرهم وأوزانه تحت تأثير هذه النظرية . وقد عرضت لذلك كله ، ولأحظت أن موجة الشعر الغنائى كانت حادة حدة عنيفة فى هذا العصر ، وأنها أخذت تطرد كل ماتلقاه من موجات الشعر التقليدى ، لافى الحجاز ، بل فى الشام والعراق أيضا .

ولما تمَّ لى تصوير ذلك كله وقفت عند الأحوص أكبر شاعر غنائى فى المدينة لهذا العصر ، فتحدثت عن حياته أولاً ، ثم انتقلت إلى غزله ، فكشفت عن خصائصه فيه ، وما كان من حريته وتشبيهه الصريح

في الإماء وتعلقه بهن ، ثم تركت غزله إلى مدائحها وأهاجيه ، فتحدثت
 عن لغة هذه المدائح والأهاجي وموسيقاها ، وما كان من أثر الغناء
 فيها . ولم ألبث أن خرجت إلى بيان منزلته بين شعراء عصره . وقد
 ذهبت أدعو إلى اتخاذ مقاييس جديدة غير مقاييس القدماء في الحكم
 على الشعراء في العصر الأموي حتى نستبين حقيقة فن الشعر حينئذ ،
 ونتعرف على أهم الشعراء الذين تطوروا به في معانيه وألفاظه
 وموضوعاته وأوزانه . ومن أجل ذلك رفضت حكم ابن سلام في
 طبقاته ، إذ قدم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الشعر الغنائي ، وقد
 جعل الأحوص ، وأكثر الغزلين ، في الطبقة السادسة من طبقات
 الإسلاميين ، وهم الذين نسميهم الأمويين .

والحق أن أصحاب الشعر الغنائي في هذا العصر هم الخليقون أن
 يوضعوا في الطبقات الأولى من الشعر الأموي أو الإسلامي . وليس
 من شك في أن الأحوص يوضع في المرتبة الأولى من هذه الطبقات
 فهو شاعر المدينة الغنائي في هذا العصر غير مدافع .

٢

تعليل وتبريل

تحدثنا عن صحف الشعر الغنائي في المدينة وما ارتبط بها في العصر
 الأموي من طه وترف وغناء ومجون أحيانا . وليس معنى ذلك

أن المدينة لم يكن بها في ذلك العصر سوى هذه الصحف ، فقد كانت هناك صحف أخرى بأيدي كرام بررة كانت كل خطوطها وألوانها زهداً وورعاً وتقوى وعبادة .

والإنسان لا يقرن المجموعتين من الصحف بعضهما إلى بعض حتى يحس أن المدينة كانت بلدة المتناقضات حقاً ، فبينما ترى فيها إغراقاً في اللهو والترف ترى إغراقاً في التقوى والورع ، وكأن الناس هناك كانوا يعيشون على طرفين متقابلين : فإما هو في أبعد آماده ، وإما ورع في أبعد آماده .

كانت المدينة إذن داراً للزهد والعبادة ، كما كانت داراً للهو والغناء وما يدمج فيهما . وإن من يتصفح طبقات ابن سعد يجد كثرة غامرة من العباد والنسك عاشوا فيها أثناء هذا العصر . وكان على رأس هؤلاء النسك والعباد عبد الله بن عمر المتوفى سنة ٧٢ هـ ، وكان يرفض الحياة المترفة ، ويتخذ لنفسه حياة زاهدة ، وصور ذلك ابن سعد في طبقاته تصويراً طريفاً ، فذكر عنه أنه كان يترك الحَمَامَ بعدد من رقيق العيش ، وقال إنه لم يكن يلبس الخَزَّ ، ولا كان يشرب في أقداح مفضضة ولا من قوارير ، إنما كان يشرب في أقداح من عيدان ، ولم يتوضأ في الصُّفَر ، إنما كان يتوضأ في أقداح الخشب ، ولم يكن يستخدم الطيب ، وكان يكسر النرد . وروى ابن سعد أنه أُعْجِبَ يوماً بجارية عنده فأعتقها ، وزوجها مولى له ، كما روى أنه كان مرتحلاً ، فسمع

صوت زمارة راعٍ فوضع إصبعيه في أذنيه ، وعدل براجلته عن الطريق (١) .

ولم يكن ابن عمر وحده هو الذى يتخذ لنفسه حياة خشنة زاهدة ، بل لقد كان هناك كثيرون يحيون حياته مثل أبى هريرة ، وكان يقول ما وجع أحب إلى من الحى لأنها تعطى كل مفصل قسطه من الوجع ، وإن الله يعطى كل مفصل قسطه من الأجر (٢) ، ومر بمروان بن الحكم وهو يبنى داره فقال : ابن شديد وأمّل بعيدا ، وعش قليلا ، وكل خضباً ، والموعود الله (٣) . وبجانب أبى هريرة وابن عمر نجد كثيراً من الصحابة والتابعين يختارون لأنفسهم هذه الحياة الزاهدة .

ولم يكن الزهد أغرب ما فى حياة هذه الجماعة ، بل كان النسك والعبادة والخوف من الله وخشية لقائه . روى الرواة عن أبى هريرة أنه بكى فى مرض موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما إني لا أبكى على دنياكم هذه وليكنى أبكى لبعث سفرى وقلة زادى ، أصبحت فى صعود مهبط على جنة ونار ، فلا أدري إلى أيهما يسلك بي (٤) . ووراء أبى هريرة وجدت جماعة من البكائين الذين يكون ليل نهار (٥) ، كما

(١) انظر ترجمة عبد الله بن عمر فى طبقات ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٥ وما بعدها . (٢) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثانى ص ٦١ .

(٣) البيان والتبيين ١٠٣/٣ .

(٤) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثانى ص ٦٢ .

(٥) البيان والتبيين ٨٨/٣ وكذلك ١١٨/٣ .

وجدت جماعة عاهدت الله أن تصوم الدهر مثل عبد الله بن حنظلة الذي كان يبيت في المسجد ، وما كان يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلها من الغد يوتي بها في المسجد ، وكان يصوم الدهر ، وما رئي رافعا رأسه إلى السماء إخبـا (١) .

وكما كان هناك جماعة من الصوامين أمثال ابن حنظلة كان هناك جماعة عاهدوا الله ألا يشهد الليل عليهم بنوم أبداً ؛ فهم يصلون ، وهم يكثر من الصلاة ، حتى ليصلي بعضهم ألف ركعة ، على نحو ما كان يصنع على بن الحسين ، وقد حج خمساً وعشرين حجة (٢) راجلاً . وكان من هؤلاء المصلين المكثرين من يلقب بالراهب لكثرة صلاته وعبادته (٣) . وكان منهم من يسجد فيطيل في سجوده حتى إن العصافير لتسقط على ظهره تحسبه حائطا ، واشتهر بذلك محمد (٤) بن طلحة بن عبيد الله .

ويخيل إلى الانسان أن هؤلاء العباد قد خرجوا عن دنياهم وعن كل ما يتصل بها حتى لقد يرث الشخص منهم ميراثا ، فيفرقه في الناس ؛ كما صنع ابن عمر ؛ وكما صنع عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فقد باع أرضا ورثها بثمانين ألفا ، وأنفقها في سبيل الله ، فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً ، قال : أنا أجعل هذا المال ذخراً

(١) ابن سعد ٤٨/٥ . (٢) ابن عبد ربه ٣٦٩/١ .

(٣) ابن سعد ١٥٣/٥ . (٤) الحيوان لأجاحظ طبع الحلبي ٢٣٨/٥ .

لى عند الله ؛ وأجعل الله ذمخراً لولدى^(١) .
 وفى كتب الأدب والتاريخ قصص كثير يروى عن عباد المدينة
 ونسائها ، فمن ذلك أن سالم بن عبد الله بن عمر دخل مع هشام
 ابن عبد الملك البيت فقال له هشام : سألني حاجتك فقال له : أكره
 أن أسأل فى بيت الله غير الله^(٢) : ومن ذلك ما يروى عن الزهرى
 من أنه قارف ذنباً فاستوحش من الناس وهام على وجهه ، فقال زيد
 ابن على بن الحسين له : يا زهرى لقنوطك من رحمة الله التى وسعت
 كل شىء أشد عليك من ذنبك ، فقال الزهرى : الله أعلم حيث يجعل
 رسالته ! ورجع إلى أهله وماله وأصحابه^(٣) .

ولم يقف نسك هذه الجماعة عند نفسها ، فقد تجردت منهم طائفة
 لوعظ الناس ، وكان على رأسها جماعة القصاص الذين يقصون فى مسجد
 الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بدأ القصاص فى المدينة تميم الدارى فى
 عهد عمر^(٤) ، واستمر من بعده ، واشتهرت جماعة به فى هذا العصر مثل
 عبيد بن عمير ، وكان يجلس إليه عبد الله بن عمر فكانت عيناها تهراقان
 بالدموع^(٥) . ومن مشاهير القصاص فى المدينة مسلم بن حنبل ،
 وهو من قراء المدينة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من سره أن

(١) البيان والتبيين ٨٥/٣ .

(٢) البيان والتبيين ٧٣/٣ (٣) نفس المصدر ١٠٠/٣

(٤) الإصابة لابن حجر طبع مطبعة السعادة ١٩١/١ .

(٥) ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٩ .

يقرأ القرآن غصاً فليقرأ على قراءة مسلم بن جندب (١) .
ولعل أهم واعظ عرفته المدينة في العصر الأموي هو أبو حازم
الأعرج وكان يقول : « نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن
لا نتوب حتى نموت » (٢) .

أرأيت إلى ما في المدينة من نسك وزهد ؟ إن من يقرن حياة
هؤلاء الزهاد والنسك إلى حياة الشباب الذي أترف ، والذي سقنا
أحاديث مطولة عنه يعجب أن تكون المدينة مجتمعا على هذا النحو
لمتناقضات ، فهذا عابد من كبار العباد يعيش مع ماجن من كبار المجان ،
وربما كانا في بيت واحد ، وربما كانا أخوين لأب وأم .

وليس هذا كل ما يلاحظ في المدينة من تناقض ، فقد يكون
الشخص الواحد نفسه متناقضاً ، فهو من جهة عابد ، وهو من جهة أخرى
يقدر الغناء ويقدر الصبابة والغزل ، وإن لم يندفع إلى المجون على نحو
ما لاحظنا سابقاً عند أبي السائب المخزومي ، وقد تقدم أنه كان يصلي في
اليوم واللييلة ألف ركعة ، ومع ذلك كان يفتن بالغزل والغناء فتنة شديدة ،
وكأنهم لم يجدوا في الغناء والغزل من حيث هما إثماً ولا ما يشبه الإثم ،
وهما في الواقع لا يكونان إثماً إلا إذا اقترنا بما يخرجها إلى ذلك .
روى المبرد أن مدنياً كان يصلي مذ طلعت الشمس إلى أن قارب النهار

(١) طبقات القراء لابن الجزري طبع برجستراسر ٢/٢٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٣/٩٨ وانظر ٣/٧٣ ، ٣/٨٠ وابن عبد ربه ١/٣٦٩

أن ينتصف ومن ورائه رجل يتغنى وهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجل من الشرط قد قبض على المغنى ، فقال : « أرفع عقيرتك بالغناء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه ، فانقتل المدنى من صلاته ، فلم يزل يطالب إليه فيه حتى استنقذه ، ثم أقبل عليه فقال : « أتدرى لم شفعت فيك ؟ » فقال : « لا والله ولكن إخالك رحمتى » قال : « إذن فلا رحمنى الله » ، قال : « فأحسبك عرفت قرابة بيننا » قال : « إذن فقطعها الله » ، قال : « فليد تقدمت منى إليك » ، قال : « لا والله ولا عرفتك قبلها » ، قال : « فخبرنى » ، قال : « لانى سمعتك غنيت آنفا ، فأقمت واوات معبد ، أما والله لو أسأت التأدية لكنت أحد الأعوان عليك ^(١) » .

ولم يكتف عباد المدينة بهذه المشاركة البعيدة من استحسان الغناء وأصواته ، بل لقد كان منهم من شارك فى صنع أصوات فى الغناء كعروة بن أذينة ، كما كان منهم من شارك فى شعر الصباية والغزل كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . ولعل فى هذا كله ما يتيح لنا أن نزعم أن المدينة كانت حقاً فى هذا العصر الأموى بلدة المتناقضات ، فهى تجمع أروع صور الزهد والورع مع صور اللهو والغناء والغزل . وبعد فإنى آمل أن تكون هذه الدراسة فاتحة لعناية النقاد بالشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية المختلفة حتى تنكشف صورة هذا الشعر وتطورها على مر العصور انكشافاً تاماً .

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ٨ — ١

الفصل الأول : المدينة ١ — ٥١

- (١) موقع المدينة ١
- (٢) المدينة في العصر الجاهلي ٤
- (٣) المدينة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ٩
- (٤) — المدينة في العصر الأموي ١٩
- (٥) الثراء والحضارة في المدينة ٢٥
- (٦) — ترف أهل المدينة ٣٧
- (٧) اللهو والملاهي في المدينة ٤٤

الفصل الثاني : الغناء في المدينة ٥٢ — ٩٤

- (١) الغناء في المدينة قديم ٥٢
- (٢) الغناء في المدينة أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين ٥٥
- (٣) — المدينة أهم مراكز الغناء في العصر الأموي ٦١
- (٤) الغناء في المدينة يصبح فنا له مصطلحاته وتقاليده ٦٨
- (٥) أشهر المغنين في المدينة : طويس ، سائب خاثر ، معبد ،
ابن عائشة ، يونس الكاتب ، مالك الطائي ، عطرده ٧٧
- (٦) أشهر الغنيات : عزة الملياء ، جميلة ، سلامة القس ، سلامة الزرقاء ٨٨

الفصل الثالث : الشعر الغنائي في المدينة ٩٥ — ١٢١

- (١) — الشعر في المدينة ٩٥
- (٢) الشعر الغنائي في المدينة ١٠٢
- (٣) خصائص الشعر الغنائي في المدينة ومميزاته ١٠٩
- (٤) خصائص ومميزات موسيقية ١١٥

صفحة

الفصل الرابع : انشاع موجة الشعر الغنائى . . . ١٢٢ — ١٥٧

- (١) — الشعر الغنائى بين المدينة ومكة ١٢٢
- (٢) فتنة أهل المدينة بالشعر الغنائى ١٢٩
- (٣) فقهاء المدينة يسامون فى الشعر الغنائى ١٣٧
- (٤) — الشعر الغنائى يصبح شعرا شعبيا عاما ١٤٤
- (٥) تفوق الشعر الغنائى على الشعر التقليدى ١٥٠

الفصل الخامس : الأعراس أكبر شاعر غنائى فى المدينة ١٥٨ — ٢٠١

- (١) نسب الأعراس وحياته وصفاته ١٥٨
- (٢) غزل الأعراس ١٧٤
- (٣) مدائح الأعراس وأهاليه ١٨٩
- (٤) منزلة الأعراس بين شعراء عصره ١٩٦

خاتمة ٢٠٢ — ٢١٢

- (١) خلاصة الكتاب ٢٠٢
- (٢) تعليق وتذييل ٢٠٦

Handwritten signatures and marks:
 - A large signature in blue ink, possibly "Hussein", with a long horizontal stroke.
 - A signature in blue ink below it, possibly "Mustafa".
 - A large green checkmark or "OK" mark.
 - Several green diagonal lines at the bottom right.

تصحیحات

صواب	خطأ	ص	س	صواب	خطأ	ص	س
أذنبها	ذنبها	٦٢	٧	تذهب	يذهب	٦	١٦
تلميذاً لطويس	تلميذاً الطويس	٦٣	١٨	وأقام	قام	١١	٦
هي سيدة	هي أجمل سيدة	٨٨	١٤	إلى الناس	الناس إلى	١٦	١٣
وسنقف	وسقف	١٠٩	٢	مختاراً	مختاراً	١٧	١٢
تلبث	تلبس	١٥٠	١٥	الصغير	الصغير	٣٩	٨
بنسأهم	بنسأهن	١٦٦	٧	بملاؤن	بملاؤن	٤٥	١١
أنفذ	أنفذ	١٧٣	٣	مات مرة	مات مرة	٤٨	٦
الغزالين	الغزالين	١٨١	٢	لم	ولم	٤٨	١٠
يعشق	يعشق	١٨١	١٣	غزالي	زالي	٦	٢١
أن	ن	١٩٢	١٨	المغنين	المغنين	٩	٥

مكتبة

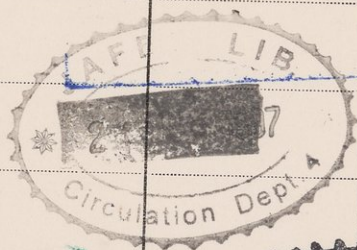
DATE DUE

JAFET LIB.

4 - JAN 1993

JAFET LIB.

16 MAR 1993



808.1:D27sA:v.1:c.1

ضيف، شوقي
الشعر الغنائي في الامصار الاسلامية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031773

808.1

D27sA

V.1

